المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

241

فى انتظار البرابرة

تأليف

ج. م. كوتزى

ترجمة

ابتسام عبد الله

المشروع القومى للترجمة

فى انتظار البرابرة

تأليف

ج. م. كوتزى

ترجمة

ابتسام عبد الله

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٠

هذه ترجمة لرواية:

Waiting for the Barbarians
By
J.M.Coetzee

١

لم أر قط شيئاً يماثله: قرصان صغيران من الزجاج معلقان أمـــام عينيه بعروتين من سلك. أهو أعمى ؟ بمقدورى أن أفهم الأمـــر إن كـــان يريد إخفاء عماه. لكنه ليس أعمى. لقرصان أسودان، يبدوان مستديرين من الخارج، لكنه قادر على لرؤية مـــن خلالهمـــا. يقول لى إنهما اختراع حديث. ويقول: انهما يحميان عينى المرء من توهج أشعة الشمس، ستجدهما مفيدين. هـــنا، فى هـــذه الصـــحراء. إنهما يحميان المرء من التحديق باستمراره وسبصاب المرء بحالات صداع أقل، انظر . يتلمس زوبا عنيه برفق، لا تجاعيد . يعيد العدستين إلى مكانهما. ما يقولـــــه صحيح، وهو يمتلك بشرة رجل أقل سنا. فى الوطن، يرتديهما كل واحد .

نجـــلس فى أفضل غرفة فى الفندق، بيننا دورق وطاس من المكســـر ت. لا نـــناقش ســـبب وجوده هنا. إنه هنا بسبب قوة الطـــوارئ وفى ذلك الكفاية. بدلاً عن ذلك نتحدث عن الصيد. بحكى لى عن آخر رحلة صيد كبيرة ذهب إليها، عندما تم ذبح آلاف الغـــزلان والخنازير والدببة، الكثير جداً منها، بحيث إن جبلا مس اجساد الدبائح تكون وتوجب تركها لتتعفن كان أمراً مؤســـفا . أحكى له عن القطعان لكبيرة للأوز والبط التى تهبط

نحـــو الــبحيرة، ســنوياً، فى هجرتها، وعن الوسائل المحلية لاصــــطيادها. أقـــترح أن آخـــذه خارجاً للصيد ليلا فى قارب محلى. أقول: تلك تجربة لا يمكن أن تفوتك. يحمل الصيادون مشـــاعل متوهجة ويضربون على الطبول، فوق الماء، لتوجيه الأسماك نحو الشباك التى نصبوها . يومى برأسه. يحدثنى عن زيـــارة قـــام بهـــا إلى مكان آخر من الحدود حيث يأكل الناس ثعابين معينة كطعام مترف، وعن وعل قام باصطياده أيضاً.

يختار طريقه بحذر بين قطع الأثاث الغريبة عنه، ولكنه لا يـــنزع عدستيه السوداوين. يأوى إلى فراشه مبكراً. إنه استقر هنا فى الفندق، لأنه المكان الذى يقدم أفضل الخدمات فى البلدة. لقد أعطيت انطباعاً للعاملين فى الفندق بأنه ضيف مهم. العميد جـــول مـــن المكتب الثالث ، هكذا قلت لهم، وأضفت، المكتب الثالث هو أهم الفصائل فى الحرس الوطنى، فى هذه الأيام. هذا ما نسمعه، على أى حال، فى الأقاويل التى تردنا، متأخرة، من العاصـــمة. يـــومئ مـــالك الفندق برأسه، وتخفض الخادمات رؤوسهن. علينا أن نترك انطباعاً جيداً لديه .

أحمل فراشى خارجاً، على المتاريس، حيث نسيم الليل يمنح بعـــض الـــراحة مـــن الحر. على الأسطح المنبسطة للمدينة، أستطيع أن أميز، على ضوء القمر، أشكال نائمين آخرين، ومن تحـــت أشـــجار الجـــوز، على الساحة، لا أزال أسمع دمدمات مناقشـــة مـــا. يـــتوهج غليون فى العتمة مثل براعة، يتضاءل

الوهج، ثم يتقد ثانية. الصيف يدور نحو نهايته. أشجار البساتين تتأوه تحت أثقالها. لم أشاهد العاصمة منذ كنت شاباً.

أستيقظ قبل الفجر. أجتاز، على رؤوس أصابع قدمى، الجنود النائمين، الذين يتحركون قليلاً ويتنهدون، يحلمون بأمهات وحبيبات، أنزل لدرجات. آلاف لنجوم فى السماء تتطلع إلينا من فوق. حقاً، نحن هنا على سقف العالم. الاستيقاظ فى الليل، فى مكان مفتوح، يبهر النفس.

الحارس عند البوابة، يجلس متقاطع الساقين، غارقاً فى النوم، يحتضن بندقيته. مضجع لبواب مغلق، عربته تقف فى الخارج. أمرّ.

* * *

لا توجد لدينا تسهيلات للسجناء ، أفسر الأمر وأقول: لا توجد جرائم كبيرة هنا، والعقوبة، عادة، غرامة أو عمل إلزامى. هذا الكوخ، هو ببساطة، غرفة ملحقة بمخزن الحبوب، كما يمكنك ملاحظة الأمر. الهواء ثقيل فى الداخل وذو رائحة كريهة. لا نوافذ هنا. السجينان يستلقيان مفيدين على الأرض. الرائحة تفوح منهما. رائحة بول قديم. أنادى على الحارس للدخول: دع هذين الرجلين ينظفان نفسيهما، وأسرع رجاءً .

أتقدم ضيفى إلى داخل مخزن الحبوب البارد المظلم. نأمل

بثلاثة آلاف (بوشل)(*) هذا لعام، من الأرضٍ المشتركة. نحن نـــزرع مرة واحدة فقط. لجو كان رحيماً جداً بنا . نتحدث عن لجــرذن ووســائل الســيطرة على أعدادها. عندما نعود إلى لكوخ، نجد ر ئحة رماد رطب تفوح منه، و لسجينين مستعدين، راكعيــن فى زاوية. أحدهما رجل كبير السن، والآخر صبى. أقــول: لقد سجنا منذ ًيام قليلة. كانت هناك غارة على مسافة عشــرين ميــلا من هنا. ذلك أمر غير طبيعى. إنهم، اعتيادياً، يحرصـــون على البقاء بعيداً عن الحصن. اعتقل هذان الاثنان بعدئــذ. يقولان ألاّ علاقة لهما بالغارة. لا أعرف. ربما يقولان الحقيقــة. إن كنت تريد التحدث معهما، سأقدم، بطبيعة الحال، مساعدتى فيما يخص اللغة .

وجــه الصبى منتفخ وبه كدمات، عين واحدة منغلقة تورماً. أجلس القرفصاء أمامه و ُربت على خده. أنصت يا ولد ، أقول ذلك باللهجة المحلية للحدود، وأضيف: نريد التحدث إليك .

لا تصدر منه استجابة ما.

يقول الحارس: إنه يتظاهر ، إنه يفهم .
أسأل، من ضربه؟

يقول: لم أكن أنا. كان هكذا عند مجيئه .

(*) بوشل Bushel : مكيال يعادل جالون.

أسأل الصبي: من ضربك؟

إنه غير مصغ إليّ. يتطلع من فوق كتفي، ليس إلى الحارس ولكن إلى لعميد جول بجوره.

استدير نحو جول وأشير: ربما لم ير شيئا مثله من قبل. أعني العوينات. لابد أنه يعتقد بأنك أعمى. ولكن جول لا يبادلني الابتسام. يبدو ان المرء أمام لسجناء يحافظ على مظهر معين.

أجلس لقرفصاء امام الرجل لعجوز. أيها الأب، أصغ إليّ. لقد جئنا بك إلى هنا لأننا قبضنا عليك بعد غارة على الموشي. انت تعلم انها مسألة مهمة. تعرف أنك قد تعاقب عليها.

يخرج لسانه لترطيب شفتيه. وجهه كئيب ومتعب. أيها الأب. هل ترى هذا السيد؟ هذا السيد يزورنا، قادماً من العاصمة. إنه يزور كافة الحصون على امتداد الحدود. عمله هو التعرف على الحقيقة. هذا هو كل ما يفعله. يتعرف على الحقيقة. إن لم تتحدث معي، فسيكون عليك التحدث معه. هل تفهم؟. صاحب السعادة.. يتحشرج صوته، ينظف بلعومه صاحب السعادة نحن لا نعرف شيئاً عن السرقة. لقد أوقعنا الجنود وربطونا بإحكام. من أجل لا شيء. كنا على الطريق، قادمين إلى هنا لرؤية لطبيب. هذ ابن شقيقتي. لديه جرح متقرح لا يتحسن. نحن لسنا بسرّاق. أظهر قرحتك لصاحب السعادة.

بخفـــة، وبيـــد واحدة وبأسنانه يبدأ الصبى بفك الخرق لتى تضـــمد ســـاعده. اللفات لأخيرة منها ملوثة بالدم و لقيح، لكنه يرفع حافاتها ليرينى الحافة الحمراء لمحتقنة للورم.

يقـــول الـــرجل العجوز، كما ترى، لا شىء يشفيها. كنت أجلبه إلى لطبيب، عندما ُوقفنا الجنود. هذا كل ما فى لأمر .

أعـــود أدراجى مع ضيفى عبر الساحة. تمر بنا ثلاث نسوة قادمـــات من خزان لرى يحملن سلال الغسيل على رؤوسهن. يتطـــلعن إليـــنا بفضول. محتفظات بأعناقهن متصلبة. لشمس تجلدنا.

أقـــول، منذ أمد بعيد، لم نحتجز غير هذين لسجينين. نها المصـــادفة. فى لحالات لاعتيادية، لا يكون لدينا أىّ بربرى على الإطلاق، حتى نريك إياه. ما يسمى بلصوص قطع الطرق لا يعنى الكثير. إنهم يسرقون بعض الخراف أو يقطعون وثاق دابـــة مـــن قطار. نحن نشن هجوماً مقابلاً عليهم أحياناً. إنهم أساســـاً، رجـــال قـــبائل معوزين، يمتلكون قطعانا محدودة من المواشى، يعيشون على ضفاف لنهر. إنها تصبح وسيلة للحياة. يقول الرجل العجوز إنهما كانا فى طريقهما لرؤية طبيب. ربما هى لحقيقة. لم يكن أحد سيصطحب معه رجلاً عجوزاً وصبياً مريضاً فى فريق هجوم.

ُزداد وعيا بأننى سأصبح مدافعا عنهما.

بالـــتأكيد، لا يمكـــن للمرء أن يكون جازماً. ولكن حتى إن كانا كاذبين، كيف يمكنهما أن يكونا ذوا فائدة بالنسبة لك. أناس بسطاء مثلهما ؟

أُحـــاول أن أُخفــف انفعالى تجاه صمته لمحير الذى يخفى شــيئاً، وراء لغمــوض المســرحى الردىء لحاجبيه الداكنين اللذين يخفيان عينين سليمتين. يسير ويداه مشبوكتان أمامه، مثل امرأة.

يقــول، على الرغم من ذلك، يتوجب على استجوابهما، هذا المســاء، إن كـــان الوقـــت ملائمـــاً. سآخذ معى مساعدى، كما سأحتاج إلى شخص ما يساعدنى فى اللغة. ربما الحارس. هل يتحدث تلك اللغة؟

بإمكاننا جميعاً لتفاهم. هل تفضل عدم وجودى هناك؟

ســتجد لأمــر مــرهقاً. لقــد وضعنا الإجراءات وسنقوم بتنفيذها .

* * *

من الصرخ الذى ادعى الناس بعدئذ أنهم قد سمعوه آتياً من مخــزن الحــبوب، لـــم أسمع أنا شيئاً. فى كل لحظة من ذلك المســاء، وأنا ماض فى عملى، أُدرك ما كان ممكناً أن يجرى. وســمعى يتوفق مطردا مع ذروة لألم لبشرى. ولكن مخزن

الحــبوب، مبنى ضخم، ذو أبواب ثقيلة ونوافذ صغيرة. إنه يقع خــلف المسلخ والطاحونة، فى جهة الجنوب. وفضلا عن ذلك، فـــإن ما كان يوما مخفرا أماميا ثم حصنا على الحدود، قد نما وتطــور إلى مســتوطنة زراعية، بلدة يبلغ عدد نفوسها ثلاثة آلاف نسمة، حيث صوت الحياة، الصوت الذى يصدر عن كل هــذه الــنفوس، فى أمسية صيف ساخنة، لا يهدأ، إذ لا بد من وجود أحد ما يبكى فى مكان ما. (بدرجة معينة، أبدأ فى الترافع عن قضيتى الخاصة).

عــندما أرى العميــد جول ثانية، لمّا يكون متمتعاً براحته، أتطــرق فى الحديث إلى التعذيب. أسأل، ماذا لو كان سجينك يقــول الحقيقــة، ومــع ذلك لا يجد من يصدقه. ألا يعد الأمر فظيعــا؟ تخيل: أن تستعد للاستسلام، تستسلم، إن لا تملك شيئا آخــر تستسلم له، إن تحطم، مع ذلك، يضغط عليك للاستسلام أكــثر! وأى مســؤولية لمن يقوم بالاستجواب! كيف يستطيع أن تعرف أبداً إن كان الرجل قد أخبرك الحقيقة؟

يقــول جــول، هناك نغمة معينة فى الصوت. نغمة معينة تدخل إلى صوت رجل ما يقول الحقيقة. التدرب والخبرة تعلمنا تمييز تلك النغمة .

نغمــة الحقيقــة! هل بإمكانك التقاط هذه النغمة فى الحديث اليومى؟ هل أنت قادر على سماع ما إذا كنت أقول الحقيقة؟

هــذه الــلحظة هى الأكثر ألفة، التى جمعت بيننا حتى هذا الوقــت، والـــتى صدها بإشارة طفيفة من يده. لا، أنت تسىء فهمى. إننى أتحدث الآن فقط عن حالة معينة. أتحدث عن حالة أســبر فيهــا بحثاً عن الحقيقة، وعلى فيها أن أمارس الضغط للعــثور عــليها. أتــلقى أولاً أكاذيب، هذا يحدث، كما ترى – أكـــاذيب فى البداية، ثم ضغط، ثم المزيد من لأكاذيب، ومزيد من الضغط، ثم الانهيار، ومزيد من الضغط، ثم الحقيقة. هكذا يمكنك الحصول على الحقيقة .

الألم هو الحقيقة، وكل ما سواه يخضع للشك. هذا ما أحمله مـــعى مـــن حديـــثى مع العميد جول. والذى بأظافر أصابعه المســتدقة، وأوشـــحته البنفسجية الزاهية، وقدميه الهزيلتين فى أحذيـــة ناعمـــة، أبقى أنا متخيلا إياه، وهو فى العاصمة، لتى يـــتوق إليها بشدة، مدمدما لأصدقائه فى أروقة المسرح ما بين استراحة الفصول.

(مـــن جهة أخرى، من أكون أنا كى أؤكد على بعدى عنه؟ أحتسى أنا الشراب معه، أتناول الطعام معه، أريه ما هو جدير بالمشاهدة، أقدم له كل مساعدة ممكنة كما يتطلبه أمر تفويضه، وأكـــثر. لإمبراطورية لا تطلب من موظفيها أن يحب أحدهم الآخر، بل أن يؤدوا واجباتهم فحسب).

* * *

التقرير الذى يقدمه لى ضمن وظيفتى كقاض، مختصر.

فى خـــلال ســـير التحقيق بدت تناقضات واضحة فى إفادة الســـجين. المواجهة مع هذه التناقضات أدت إلى تهيج السجين ومهاجمته الموظف المكلف بالتحقيق. حدث شغب، وفى خلاله سقط المتهم بقوة نحو الجدار. محاولات إنعاشه باءت بالفشل.

من أجل الوصول إلى الكمال كما هو مطلوب من قبل رسالة الفانون، دعوت الحارس وطلبت منه تقديم إفادة. كان يسرد وأنا أســـجل كلماته: أصبح السجين خارج نطاق السيطرة، وهاجم الموظف الزائر. استدعيت إلى الداخل للمساعدة فى تهدئته. فى الوقـــت الـــذى دخلت فيه المكان، كان الشجار قد انتهى. كان الســـجين فـــاقد الوعى والدم ينزف من أنفه. أشير إلى المكان الذى عليه أن يضع توقيعه فيه. يأخذ القلم منى باحترام.

أسأله بلطف: هل أخبرك الضابط بما تقوله لى؟
يقول: نعم، سيدي.
هل كانت يدا السجين موثقتين؟
نعم، سيدى، أعنى لا، سيدى.
اصرفه واملأ استمارة رخصة الدفن.

ولكـــن قبل ذهابى إلى الفراش، آخذ فانوسا، أعبر الساحة، وأدور عبر الشوارع الخلفية إلى مخزن الحبوب. هناك حارس جديـــد عـــند باب الكوخ، فلاح صبى آخر نائم ملتفاً ببطانته.

صرصار ليل يتوقف عن غنائه عند اقترابى. سحب المزلاج لم يوقــظ الحارس. أدخل الكوخ مع رفع الفانوس عالياً، معتدياً، كمـــا أعتقد، على ما قد غدا أرضاً مقدسة أو دنسة، إن كان فى ذلك أى اختلاف، حافظة أسرار الدولة.

الصبى نائم على فراش من القش فى زاوية، حىّ وفى حالة جيـــدة. يـــبدو كأنه نائم. ولكن توتر حالته يخونه. يداه موثقتان أمامه. فى الزاوية الأخرى، حزمة بيضاء طويلة.

أوقظ الحارس. من أخبرك بترك الجثة هناك؟ من خاطها؟

يســـمع الغضب فى صوتى. كان ذلك الرجل الذى جاء مع صـــاحب السعادة الآخر، سيدى. كان هنا عندها حضرت لتسلم مأموريـــتى. قال للصبى، أنا سمعته، نم مع جدك، أبقه دافئا. تظاهر بأنه يحاول خياطة الصبى أيضاً مع الكفن، الكفن نفسه، ولكنه لم يفعل .

بيـــنما يـــبقى الصـــبى ممددا. نائما، متصلب الجسم، عيناه مغلقتان بإحكام، نحمل الجثة خارجا. وفى الفناء، بينما الحارس يمســـك بالفـــانوس، أجد موضع الدرزة، بنصل سكينى، أمزق الكفن وأفتحه، أطويه خلفا من جهة رأس الرجل العجوز.

اللحية الرمادية مكسوة بالدم. الشفتان منسحقتان ومدفوعتان إلى وراء، الأســـنان مكســـورة، عيـــن متدحرجة إلى الخلف، ومحجـــر العيـــن الأخـــرى، حفرة دامية. أقول، أغلقه ، يضم

الحـــارس طرفى الثغرة، لكن الكفن يتدلى مفتوحاً. يقولون إن رأســـه اصـــطدم بـــالجدار، ما الذى تعتقده أنت؟ ينظر نحوى بحذر. أجلب بعض خيوط القنب وأربط الكفن بشدة .

أمسك بالفانوس فوق الصبى. إنه لم يتحرك، ولكننى أنحنى لألمـــس خده يجفل ويبدأ بالارتعاش بتموجات طويلة، تمتد إلى أعـــلى جســـده وأسفله. أقول: أصغ إلى، يا ولد، لن أقدم على إيذائـــك. يـــتدحرج عـــلى ظهـــره، مقدما يديه الموثقتين أمام وجوهنا. إنهما منتفختان وقرمزيتان. أتلمس القيود بارتباك. كل تحـــركاتى تجاه الصبى خرقاء. اسمع، عليك أن تقول الحقيقة للضابط. ذلك كل ما يريده منك – الحقيقة. انه لن يؤذيك عندما يـــتأكد مـــن أنك تقول الحقيقة. ولكن عليك أن تحكى له كل ما تعرف. عليك أن تجيب عن كل سؤال يوجهه إليك، بصدق، لا تيـــأس إن تعرضت للألم . ملتقطاً العقدة، انجح أخيراً فى حل الحـــبل. افرك كفيك بعضهما ببعض كى يبدأ الدم بالسريان . أفـــرك كفيـــه بكـــفى يلوى أصابعه متألماً. لا أستطيع التظاهر بكونى أفضل من أم تهدئ طفلها، بين نوبات غضب والده. لم يفتـــنى أنـــه بإمكـــان المحقـــق أن يرتدى قناعين، أن يتحدث بصوتين، الأول فظ، الثانى مخادع.

أسأل الحارس، هل كان لديه أى شىء ليتناوله هذا المساء؟

لا أعرف.

هــل كان لديك ما تأكله؟ . أسأل الصبى. يهز رأسه. أحس بالأسى يثقل قلبى. لم أتمن قط الانجرار إلى هذا الموقف. إلى أيــن سينتهى، لا أدرى. أستدبر نحو الحارس. سأغادر الآن. ولكــن هناك ثلاثة أشياء أريد منك تنفيذها. الأول، أريد منك، بعــد تحســن يدى الصبى، ربطهما ثانية، لكن ليس بتلك الشدة الــتى تــؤدى إلى تورمهمــا. ثانيا، أريدك أن تبقى الجثة فى مكانها، فى الفناء، لا تعدها إلى هنا. سأبعث، فى ساعة مبكرة مــن الصــباح، بفريق الدفن لأخذها، وستسلمها لهم. إن كانت هناك أى أسئلة، قل إننى أعطيت الأوامر. ثالثا، أريدك أن تغلق الكــوخ الآن، وتعال معى. سأجلب لك شيئاً من المطبخ لتعود به، ويأكله الصبى. تعال .

لم أكن أعنى التورط فى الأمر. أنا قاض مدنى، مسؤول فى خدمة الإمبراطورية. أكمل ما تبقى من خدمتى، فى هذه الحدود الباعثة على الكسل، منتظراً التقاعد، أجمع العشور والضرائب، أدير الأراضى المشاعة، أتابع سريان إمدادات الحامية، أشرف على الموظفين الأدنى، الذين هم الموظفون الوحيدون لدينا هنا، أراقــب التجار، أترأس المحكمة الصغرى مرتين فى الأسبوع. ومــا تــبقى، أرقب الشمس فى شروقها وغروبها. آكل وأنام، وأحــس بالاكــتفاء. وعندما أرحل، آمل أن أكون جديراً بثلاثة أسطر بحروف صغيرة فى صحيفة الإمبراطورية. أنا لم أطلب أكثر من حياة هادئة فى زمن هادئ.

ولكن قصص العام الماضى بدأت تصلنا من العاصمة، عن اضــطراب بيــن الــبرابرة تجار يسافرون عبر طرق آمنة، هوجموا ونهبوا، لصوص المواشى ازدادوا نسبة وجرأة. فريق من موظفى الإحصاء الرسمى، اختفوا، وتم اكتشافهم، مدفونين فى قبور ضحلة. نيران أطلقت على حاكم إقليم فى خلال جولة تفتيشية، اشتباكات حدثت مع دوريات الحدود. القبائل البربرية كــانت مســلحة، مضت الإشاعة. على الإمبراطورية أن تتخذ إجراءات وقائية، إذ إن حرباً ستنشب بالتأكيد.

أنــا شخصــيا، لم أر، من هذا الاضطراب، شيئاً. لاحظت، بشــكل خاص، أنه يحدث مرة فى كل جيل، حالة من هستيريا حــول الــبرابرة، ولم أخذل ولا مرة. ليست هناك امرأة واحدة تعيش على طول الحدود، لم تحلم بيد برابرة سوداء تخرج من تحــت السرير لتمسك بكاحلها، ولا يوجد رجل لم يخوف نفسه لــرؤى عــن برابــرة يسرفون فى شرب الخمور فى منزله، يكسرون الأوانى، يشعلون النار فى الستائر، ويغتصبون بناته. الأحــلام هــذه هي نــتيجة اليسر التام. أرونى جيشاً بربرياً، وسأكون لكم مصدقاً.

فى العاصــمة كــان مــثار الاهتمام، إن قبائل البرابرة فى الشمال والغرب ستتوحد أخيرا. تم إرسال ضباط هيئة الأركان العامة، فى جولات على الحدود. عززت بعض الحصون وتمت تقويتها. أعطيت حماية عسكرية لتجار طلبوها. ضباط المكتب

الـثالث لــلحرس المدنى، شوهدوا للمرة الأولى على الحدود، حمــاة الدولة، المختصون بحركات التمرد السرية، المتعصبون للحقيقة، العلماء فى الاستجواب. وهكذا يبدو أن أعوامى الهينة مقبــلة على نهايتها، عندما أكون قادراً على النوم بقلب هادئ عارفــا أنه بوكزة من هنا ولمسة من هناك، فإن العالم سيبقى مســتقرا فى سيره. لو أننى فقط كنت قد سلمت هذين السجينين المنافيين للعقل إلى العميد، أفكر ملياً- أيها العميد، ها هما، إنك المخــتص. تدبر ما ستفعله بهما - لو أننى كنت قد ذهبت فى رحــلة صــيد لبضعة أيام، كما كان لزاما علىّ أن أفعل، ربما زيــارة لأعــالى النهر، والدودة، وبدرن قراءته، أو بعد إلقاء نظرة عجلى عليه بعين غير مبالية، أضع ختمى على تقريره، دون أى جــدل حول ما تعنيه كلمة تحقيقات، ما يقع تحتها من مسؤولية، مثل بانشى(*) تحت حجارة- لو كنت قد فعلت الأمر الحكيــم، آذن، لــربما كان باستطاعتى الآن العودة إلى صيدى بالصقور وتجوالى الرائق فى خلال انتظارى للقلاقل أن تتوقف والفوضى على طول الحدود أن تخمد. ولكننى، ويا للأسف، لم أبتعد عن المكان، أغلقت أذنى برهة عن الأصوات القادمة من الكــوخ بجــوار مخزن الحبوب، حيث تحفظ الأدوات. بعدئذ، حملت فانوسا، وخرجت ليلا لأرى بنفسى.

* * *

(*) بانشى BANSHEE، روح شريرة يجلب عويلها لموت إلى الدر.

الأرض بيضـــاء بسبب الثلوج من أفق إلى أفق. إنه ينهمر مـــن الســماء التى هى مصدر ضياء منتشر وموجود فى كل مكان، وكأنما الشمس قد ذابت فى سديم وتحولت إلى هالة. فى الحـــلم، أجـــتاز بوابة الثكنات، أمر بسارية العلم العارية. تمتد الســـاحة أمامى، تتداح أطرافها مع السماء ذات الطلاء الفضى، جـــدران أشجار وخيول تضاءلت وفقدت صلابتها منكفئة فوق حافة العالم.

بينما أنزلق عبر الساحة، تتفصل أشكال سوداء عن البياض، أطفال فى لعبهم، يبنون قصراً من الثلج، ينصبون علماً ذا لون أحمـــر على قمته. وهم يرتدون القفازات وأحذية طويلة الساق، مـــلفعين ضد البرد. يجلبون حفنة إثر حفنة من الثلج. يلصّقون جـــدران قصرهم، يملأون فراغاته. أنفاسهم تغادرهم فى نفثات بيـــض. السور حول القصر نصف مبنى. أجهد نفسى لأنفذ من ضجيج أصواتهم المثرثرة بطلاقة. ولكننى لا أقدر.

أنـــا واع لجســـدى وظلى القائم، ولهذا السبب لا أندهش من اخـــتفاء الأطفـــال على الجهتين مع اقترابى منهم. كلهم ما عدا واحـــدة. أكـــبر مـــن الآخرين. ربما لا يمكن عدها طفلة. إنها تجـــلس فى الثـــلج، رأسها مغطى بقلنسوة، مديرة ظهرها لى، مـــنهمكة فى بناء باب القصر، ساقاها مدودتان، تحفر، تربت، تقولـــب. أقف خلفها وأرقبها. إنها لا تستدير نحوى. أحاول أن

أتخيــل الوجــه الــذى تضمه تويجات غطاء رأسها المستدق الأطراف ولكننى لا أقدر.

* * *

يستلقى الصبى على ظهره، عارياً، غارقاً فى النوم، يتنفس بســرعة، أنفاســه غيــر عميقة. يتلألأ جلده بالعرق. الضماد مرفوع وللمرة الأولى عن ذراعه. أرى القيح الملتهب المفتوح المختفى تحته. أقرِّب الفانوس منه. أجد أن بطنه وأعلى فخذيه مجدرة بقشور صغيرة وكدمات وجروح. بعضها موسوم بالدم.

أهمس للحارس، وهو الشاب نفسه الذى كان ليلة أمس. ما الذى فعلوه به؟ يجيب هامسا: مجرد سكين صغير، مثل هذا . وبمــد الإبهــام والســبَّابة. ممسكاً بسكينه الصغير فى الهواء، مشــيراً إلى طعــنة مقتضــبة فى جسد الصبى النائم، ثم ندبر الســكين برقة، مثل مفتاح، إلى اليسار أولاً ثم اليمين. يسحب السكين بعد ذلك. تعود يداه إلى جانبيه، يقف منتظراً.

أنحــنى فوق الصبى وأهزه، مقربا الضياء من وجهه. يفتح عيــنيه الواهنتين يغلقهما ثانية فيما بعد. يتنهد، أنفاسه السريعة تتــباطأ. أقــول له: اســـمع! كنت ترى حلماً سيئا. يجب أن تستيقظ . يفتح عينيه ثم يحولهما نحوى من خلف الضياء.

يقــدم الحــارس إلبــنا إناء فيه ماء. أسأل: هل يقدر على

الجلوس؟ يهز الحارس رأسه. يقوم برفع الصبى ويساعده على احتساء الماء.

سمع ، أقول له. يقولون إنك قدمت اعترافاً، يقولون إنك قد اعترفت بأنك والرجل العجوز ورجالاً آخرين من قبيلتك، قمتم بســرقة المواشـــى والخيــول. وإنك قد ذكرت أن أفراد قبيلتك يســلحون أنفســهم، وإنكم عازمون فى الربيع، على المشاركة جميعــاً فى شــن حــرب كبيرة على الإمبراطورية. هل تقول الحقيقة؟! هل تفهم ماذا سيعنى اعترافك هذا هل تفهم؟ أتوقف. يتطلع نحوى بنظرة خالية من التعبير إزاء كل هذه الشدة، مثل شــخص متعب إثر ركضه مسافة كبيرة. إنه يعنى أن الجنود ســينطلقون ضد قبيلتك، سيكون هناك قتال. وأقاربك سيقتلون، وربما حتى والداك، أشقاؤك وشقيقاتك، هل تريد ذلك حقا ؟ لا يــبدى الصــبى ردة فعل ما. أهز كتفيه، أصفعه على خده، لا يجفــل: الأمــر، مــثل ضرب جسد ميت. يهمس الحارس من خلفى، أعتقد إنه مريض جداً، متفيح تماما ، يغلق الصبى عينيه عنى.

* * *

أستدعى الطبيب الوحيد الموجود، رجل مسن، يحصل على رزقه من قلع الأسنان وعمل عقاقير مثيرة للشهوة من مسحوق العظــام ودم الســحالى. يضع كمادة من صلصال ومسحة من

مرهم على مئات الطعنات الصغيرة. يعدنا بأن الصبى سيكون قادراً على السير خلال أسبوع ويوصى بطعام مغذ له ثم يغادر على عجل، ولا يسأل عن لكيفية التى يتحمل بها جروحه.

ولكن العميد قد نفد صبره. خطته هى بدء حملة سريعة على قبائل البدو والقبض على المزيد من السجناء. وهو يريد أخذ الصبى معه دليلا. يطلب منى التخلى عن ثلاثين جنديا من الحامية، من مجموع أربعبن وتزويدهم بالخيول.

أحاول إثنائه. أقول: ليس من منطلق عدم احترام، لكنك لست جندياً محترفاً أيها العميد، لم يسبق لك أن قمت قط بحملة فى هذه لمناطق القاسية. ستكون بلا دليل، غير الدليل الذى يرتجف منك، ولذى سيقول أى شىء يرد بباله من أجل إرضائك، وهو بكل الأحوال غير ملائم للسفر. انك لن تستطيع الاعتماد على جنودك لمساعدتك. انهم مجرد فلاحين مجندين لم يسافر غالبيتهم أبعد من خمسة أميال عن المستوطنة. البرابرة الذين تطاردهم سيشمون قدومك وسيختفون فى الصحراء، وأنت ما زلت لم تقطع غير مسافة يوم من المسير. لقد عاشوا هنا طوال عمرهم، يعرفون الأرض. أنت وأنا غرباء – أنت أكثر منى فى ذلك. أنا أنصحك بإخلاص بعدم الذهاب .

يصغى إلىّ حتى أنتهى من كلامى بل وحتى (لدى هذا الإحساس) يغرينى بالاسترسال بعض الشىء. أنا واثق من أن

هذه المحادثة، دونت بعدئذ، مع ملاحظة عليها بأننى غير سليم عقـليا . عندما استمع إلى ما فيه الكفاية، يرفض اعتراضاتى: أنا مكلف بمهمة وعلى إكمالها. أيها القاضى أنا وحدى أقدر أن أحكم متى يكون عملى جاهزاً . ويمضى قدما فى استعداداته.

يســافر فى عربــته الســوداء ذات العجلــتين ومعه فراش لــلرحلات ومنضدة كتابة مطوية، مشدودة إلى السقف. أزوده بالخيول، عربات النقل وعلف وكافة التجهيزات اللازمة لثلاثة أسابيع. يرافقه فى الرحلة ملازم أصغر سنا من أفراد الحامية. أتحــدث عــلى انفراد، مع الملازم: لا تعتمد على دليلك، إنه ضــعيف البــنية وخائف. راقب الجو. لاحظ علامات الجنود. مهمتك الأولى هى العودة بضيفنا سالماً . يسلم منحنياً.

اقــترب مــن جول ثانية، محاولاً معرفة المخطط التمهيدى لــنواياه. يقــظ: نعــم، لن أجد نفسى ملزما بتعهد وجهة سير مقدمــاً. وأقول بشكل عام، إننا سنحدد الموضع الذى يخيم فيه هــؤلاء الــبدو الــرحل، جماعتك، ثم سنتقدم أبعد كما تقتضى الحالة .

واســتمر: إنــنى أسأل لسبب واحد لأنك إن فُقدتَ، تصبح مهمتــنا هى العثور عليك وإعادتك إلى الحضارة . نتوقف عن الكــلام، مــتذوقين وجهتى النظر المختلفة بيننا، وما تتضمنه الكــلمات مــن تهكــم. يقــول: نعم، بالتأكيد ولكن ذلك بعيد

الاحــتمال. محظوظون نحن لامتلاكنا الخرائط الممتازة للإقليم التى جهزت من قبلكم.

تــلك الخرائط غير معتمدة إلا على القليل، ومستندة إلى ما يســمع ويقال، أيها الكولونيل. لقد جمعتها معا نقلا عن بيانات مسافرين طوال مدة تمتد إلى عشرة أعوام أو عشرين عاما. أنا شخصــيا لم أضع قدما فى الموقع الذى تخطط الذهاب إليه. أنا ببساطة أحذرك .

مــنذ يومه لثانى فى هذه الأرجاء، كنت غاية فى القلق فى حضوره، كى أكون ُكثر من منضبط فى معاملتى ياه. أعتقد، أنه مثل جلاد جوال، معتاد على أن يتجنب. (أم إنه فى لأقاليم فحسب، ما يزال الناس يعتقدون إن لجلادين والذين يمارسون الــتعذيب، هم لنجسون؟) متطلعا إليه، أتعجب كيف أحس فى المــرة الأولى بالذات: هل إنه دعى كمبتدئ قليل الخبرة ليلوى الكماشــة أو ليديــر الــلولب أو أى شــىء مــن الأمور التى يمارسونها. ارتجف تماما بعض الشىء، وهو يعلم أنه فى تلك الحالة، كان يتجاوز إلى ما هو محرم؟ أجد نفسى متسائلا ما إذا كانت له طقوس خاصة للتطهر، تجرى خلف أبواب مغلقة، كى تجيــز له أن يعود ويتقاسم الخبز مع رجال آخرين. هل يغسل يديــه باعتناء، أو ربما يغير كافة ملابسه، أم ان المكتب الثالث بــتدع رجــالاً جــدداً، باستطاعتهم المرور من غير قلق بين الطاهرين والمدنسين؟

فى ســـاعة مـــتأخرة مـــن الليل أسمع صرير طبول الفرقة الموســـيقية وقرعها تحت أشجار الجوز العتيقة، عبر الساحة. هـــناك توهج متورد فى الجو، منبعث من قاعدة الفحم الحجرى الكبيرة التى يتحمص فوقها خروف بأكمله، هدية من سعادته. إنهم سيشربون حتى الفجر، ثم يغادرون مع طلوع النهار.

أجــد طــريقى إلى مخزن الحبوب، عبر الممرات الخلفية، الحـــارس ليـــس فى مكانـــه. باب الكوخ مفتوح، وأنا أحاول المـــرور، أســـمع أصوات همسات وضحكات. أحدق فى ظلام كالح. أقول، من هنا؟.

هـــناك صوت زحف، والحارس الشاب يتعثر مصطدماً بى. يقـــول: آســـف، سيدى. أشم أنفاسه المخضلة بشراب الرئم. الســـجين نـــادانى وكنت أحاول مساعدته. ومن الظلمة ينبثق صوت ضحكة.

أنام، أستيقظ على أصوات جولة أخرى من موسيقى راقصة قادمـــة من الساحة. أغرق فى النوم ثانية، وأحلم بجسد مسجى عـــلى ظهـــره، ثروة من شعر العانة، براق سلس أسود ذهبى، عبر البطن، ممتد فوق الحقوين ثم نازلاً تحتهما مثل سهم موجه نحـــو ثلمة الساقين. عندما أمد يدى لأمس الشعر، يبدأ بالتلوى. انـــه ليـــس بشـــعر، لكـــنه نحل متجمع بكثافة، الواحدة أعلى الأخـــرى: مبللٍ بالعسل، دبق، يطير بمجموعه خارجاً من بين الساقين، مروحاً بأجنحته.

* * *

آخـــر فعل مجاملة أقوم به هو الخروج راكباً مع العميد إلى مســـافة حيـــث ينعطف فيه الطريق نحو الشمال الغربى، على امـــتداد الـــبحيرة. الشمس مرتفعة تسطع بوحشية من صفحتها وهـــو مـــا يضـــطرنى إلى حجـــب عينى. الرجال، متعبون، مضطربون بعد ليلتهم من المرح، ينتشرون بغير انتظام خلفنا. فى وسط الطابور، محاطا بحارس راكب جنياً إلى جنب معه، يـــأتى السجين. وجهه شبحى، يجلس على حصانه لشكل غير مريح. بالتأكيد ان جراحـــه ما تزال تســـبب له الآلام. تأتى فى لخـــلف، الخيـــول المحملة والعربات الخفيفة مع براميل الماء، الـــتجهيزات والمعدات الثقيلة: رماح، غدّارات، ذخيرة حركية، خيـــام. كلها بمجموعها لا تكون منظراً مثيراً. الطابور يمتطى الخيـــول بشـــكل غير متقن. بعض لرجال حاسرى الرءُوس، بعضـــهم يـــرتدى خوذة الخيالة الثقيلة المزينة بريشة، آخرون بقـــبعات جـــلدية اعتيادية. كان الجميع يحول عينيه عن الوهج الساطع ما عدا واحد منهم، يتطلع مقطبا أمامه، من خلال قطعة من زجاج مدخن، ملتصقة بعصا، يمسكها أمام عينيه، فى تقليد لقائده. إلى أى مدى سينتشر هذه لتظاهر المنافى للعقل؟

ننطـــلق بصمت. الحاصدون مشغولون فى الحقول منذ قبل بزوغ الفجر، يتوقفون عن لعمل، يلوحون عند مرورنا لهم. فى مـــنعطف لطريق أكبح جماح الفرس وأودعه قائلا: أتمنى لك

عودة سالمة، أيها العميد ـ أقول ذلك. يميل رأسه بغموض وهو محاط بإطار نافذة عربته.

وهكــذا، انطلق عائداً، متحرراً من العبء الذى كنت أصله، وســعيداً أن أكون وحدى ثانية فى عالم أعرفه وأفهمه. أصعد الأسوار لمراقبة الطابور الصغير يلتف بعيداً على طول طريق الشــمال- الغــربى، مــتوجهاً نحو لطخة الضباب الخضراء لــبعيدة، حيث يتدفق النهر إلى البحيرة، ويختفى خط الخضرة فى ســديم الصــحراء. الشمس ما تزال معلقة، برونزية، ثقيلة فــوق الماء. إلى جنوب البحيرة، تمتد أراض سبخة، مسطحات المــلح، وخلفهما خط أزرق رمادى من تلال جرداء. الفلاحون فى المــزارع يحمــلون العربتين الكبيرتين القديمتين، بالتبن. سرب من البط البرى، يدور فوق الرءُوس وينحدر إلى الأسفل نحــو المــاء. نهاية صيف، هو وَقت للسلام والوفرة. أنا أؤمن بالسلام، ربما سلام متواز بأى ثمن.

على خط مباشر من جنوب البلدة وعلى مسافة ميلين، تبرز مجموعة كثبان من المشهد الرملى المسطح. اصطياد الضفادع فى المستنقعات والنزول من الكثبان الرملية المنحدرة بمزلجات خشــبية مصقولة، هى رياضة صيفية أساسية بالنسبة للأطفال، مرة فى الصباح وثانية فى المساء عندما تغرب الشمس وتتسلل الــبرودة إلى الــرمال. وعــلى الرغم من أن الرياح تهب فى

المواســم كافــة، فإن الكثبان تبقى ثابتة، متماسكة – على نحو متصــل – بطبقة خفيفة من الحشائش، وكما اكتشفت، مصادفة قبل بضعة أعوام، بهياكل خشبية أيضاً. ذلك لأن الكثبان تغطى خــرائب تعــود إلى أزمـــنة قديمة، قبل ان يتم الاستيلاء على الأقاليم الغربية ويُبنى الحصن.

كان التنقيب في هذه الخرائب، إحدى هواياتى. وإن لم يكن العمــل جاريــاً فى إصلاح مشاريع الإرواء، فإننى أحكم على المذنــبين الثانويين، بالحفر بضعة أيام فى الكثبان الرملية، كما يرســل الجــنود إلى هنا فيما يخص جزئيات العقوبة. بل إننى اعتدت، فى ذروة حماستى، أن أدفع من جيبى الخاص للأعمال العرضية. لعمل غير محبذ. إذ على الحفارين أن يكدحوا تحت أشعة شمس حارقة أو ريح قارسة، دون ملجأ يحميهم مع تطاير الــرمال فى كــل اتجــاه. فى لعمــل، تعوزهم الحماسة، لا يشاركوننى هوايتى (التى يعدونها نزوة)، تعوق عملهم السرعة لــتى تــنجرف فيها الرمال إلى أماكنها. ولكننى خلال بضعة أعــوام، نجحــت فى الكشف عن عدد من البنى الكبيرة، لتبدو بمســتوى ســطح الأرض. أحدث ما تم الحفر عنه يبرز مثل حطــام سفينة فى الصحراء، يبدو للنظرِ حتى منِ أسوار البلدة. من هذا المبنى لدى قد يكون مبنى عاماً أو معبداً، أنفذت إسكفة ثقيــلة مــن خشــب الزان محفور عليها تصميم يمثل سمكات تتقافز، متدخلة بعضها ببعض، معلقة اليوم فوق مدفأة الجدار.

كانت مدفونة تحت مستوى سطح الأرض، فى كيس تفتت إلى لا شىء، حالما لامسته. وعثرت أيضا على مخبأ لقطع خشبية رفيعـــة مرسومة عليها أشكال بحروف لم أر لها مثيلا. كنا قد وجدنـــا قطعـــاً مـــثل هـــذه من قبل، متفرقة كخرق قماش فى لخـــرائب. ولكـــن معظمها كانت مطموسة الألوان بفعل تأثير الرمال، بحيث إن الكتابة عليها تبدو عصية على الفهم. الأشكال عـــلى الشـــرائح الخشبية الجديدة واضحة وضوح يوم كتابتها. واليـــوم، أملاً فى حل رموز الكتابة، بدأت أجمع كل ما يمكننى مـــنها، وألـــزمت الأطفـــال الذيـــن يلعبون هنا أن يعرفوا، أن عثورهم على واحد منها يعادل دائماً الحصول على بنس واحد.

القطـــع الخشـــبية الكـــبيرة الـــتى نزيل عنها الرمال، جافة ومنسحقة، والكثيرة منها لم تكن متماسكة إلا بفعل كونها محاطة بالـــرمال، وهى حالمـــا يكشف عنها، تتفتت. وما يتبقى منها، يتكســـر بفعل ضغط قليل. كم يبلغ عمر هذه الأخشاب؟ ذلك ما لا أعرفه. البرابرة الذين هم بدو رعويون، يسكنون الخيام، لا يشـــيرون فى أساطيرهم إلى استقرار دائم بالقرب من البحيرة. ولا توجد بين الخرائب، بقايا بشرية. وإن كانت هناك مقبرة ما، فإننـــا لـــم نعثر عليها. البيوت لا تحوى أثاثا . ولقد عثرت فى كومة من رماد على شظايا فخار طينى و شىء ما بنى اللون، ربمـــا كـــان فى يوم ما حذاء من الجلد أو قبعة، وقد تناثر إلى قطـــع أمـــام عيـــنى. لا أعرف من أين جاء الخشب لبناء هذه

البيوت. ربما في الزمن الغابر، شق مجرمون أو عبيد أو جنود، طريقهم عبر الأميال الاثني عشر باتجاه النفر، وقطعوا أشجار الزان التي نشرت وسويت، ثم قاموا بنقلها في عربات إلى هذا المكان المقفر، وبنوا البيوت وبنوا حصنا أيضا ، قياسا لكل ما أعرفه، في سياق الزمن الذي انقضى، كي يتاح لأسيادهم وأوليائهم وللحكام والقادة البارزين، تسلق الأسطح والأبراج صبحا ومساء، ليمسحوا العالم من أفق إلى أفق بحثا عن علامات تشير إلى البرابرة. وفي حفرياتي، ربما قمت بخدش سطح الأرض فقط. وربما، على عمق عشرة أقدام منه، تقع خرائب قلعة أخرى، دمرت تماما من قبل البرابرة، كانت مأهولة بالهياكل العالمية للقوم، الذين ظنوا أنهم سيجدون الأمان خلف الجدران العالية. ربما، إنني عندما أقف على أرضية مبنى المحكمة، إن كان الأمر كما أعتقد، فإنني أقف على رأس قاض مثلي، خادم آخر للإمبراطورية، ذي شعر رمادي، سقط في حلبة سلطته، في آخر الأمر، وجها لوجه مع البرابرة. كيف يمكنني أبدا أن أعرف؟ أبواسطة الحفر مثل أرنب؟ هل هذه الأشكال، ستحدثني يوماً؟ كانت هناك مائتان وخمسة وستون قطعة شريحة في الجراب. هل الأمر مصادفة، أن تكون الأعداد تامة؟ بعد أن عددتها للمرة الأولى، وأدركت هذا الاكتشاف، قمت بتنظيف أرضية مكتبي، ونشرتها عليه، أولاً في مربع كبير واحد، ثم في ستة عشر مربعاً أصغر، ثم في

مجموعـــات ُخــرى، مفكراً فيما اعتقدتها، حتى الآن، أحرف كتابة ضمن مقاطع لفظية، قد تكون فى الحقيقة، صورة ستقفز خطوطهــا الخارجيـــة نحوى، إن حققت الترتيب الصحيح لها: خارطـــة لأرض لـــبرابرة فى لزمن لغابر، أو صورة لهيكل آلهـــة مفقـــود. بل إننى وجدت نفسى أقرأ، أفسر الشرائح من خلال مر ّة، ُو أتتبعها بوضع شريحة أعلى شريحة أخرى، ُو ادمج نصف قطعة مع نصف قطعة أخرى.

فى إحـــدى الأمســيات، تخلفت بين الخرائب، بعد أن هرع الأطفال إلى بيوتهم لتناول العشاء، فى وقت الغسق الأرجوانى، وعـــند ظهور ُولى النجوم، الساعة لتى تصحو فيها الأشباح، تـــبيعا للمعـــتقدات التقـــليدية. وضعت ُذنى على الأرض، كما علمـــنى الأطفـــال، لســـماع ما يسمعونه: طرقات وأنين تحت الأرض، والضـــرب الخفيض غير المنتظم على لطبول. على صفعة خدى، أحسست بدمدمة الرمال تتحرك من لا مكان إلى لا مكان عبر أراض بور. تلاشى آخر خيوط لضياء، الأسوار بـــدت أكثر قتامة قبالة السماء، ثم تلاشت فى العتمة. انتظرت ساعة من الزمن، ملتفا بمعطفى لفضفاض، مسنداً ظهرى إلى عمود زاوية بيت من البيوت التى لابد أن أناساً قد تحدثوا فيها يوما وأكلوا وعزفوا الموسيقى. كنت أرقب طلوع القمر، مهيئاً حواســـى لليل منتظراً إشارة تدل على أن ما يهجع أمامى، ما يهجـــع تحت قدمى، لم يكن مجرد رمال، غبار عظام، رقاقات

صداً، كسر أثرية، رماد. الإشارة لم ترد. لم أحس بأى رعشة خــوف مــن روح شريرة. موضعى فى الرمال كان دافئاً. لم يمض وقت طويل حتى وجدت نفسى أطأطئ من النعاس.

وقفت ومددت قامتى، ثم سرت مجهداً إلى البيت عبر الظلمة المســكتة، مســتدلاً على اتجاهى بفعل التوهج الباهت للسماء المــنعكس عن نيران المنازل. أمر يثير السخرية، خطرِ ببالى، رجل بلحية رمادية يجلس فى العتمة، فى انتظار أرواح تَرِدُ من طــرق مجهولة من التاريخ، كى تتحدث معه قبل ان يعود إلى منزلـــه، إلى اليخنة العسكرية وإلى فراشه المريح. الفضاء من حولنا، هنا، مجرد فضاء، ليس أحقر أو أرفع من الفضاء الذى فــوق الأكــواخ والــبيوت الفقيرة والمعابد ودوائر العمل فى العاصمة. الفضاء هو الفضاء، الحياة هى الحياة، هى نفسها فى كــل مكــان. أما بالنسبة لى، المتحمل مشاق الآخرين، المفتقر لــرذائل مــتمدنة تملأ وقت فراغى، فإننى أدلل كآبتى وأحاول العثور فى فراغ الصحراء على إثارة تاريخية من نوع خاص. فارغ، منبطل، مضلل. كم أنا محظوظ، لأن أحداً لم يرنى.

* * *

ليوم، بعد مرور أربعة أيام فقط على مغادرة الحملة، تصل أول وجــبة مــن ســجناء العميد. أشاهدهم، من خلال نافذتى، يعبرون الساحة بين حراسهم الممتطين جياداً، مغبرين، مذللين

تـــواً مـــن قـــبل المـــتفرجين الذين احتشدوا حولهم، الأطفال المـــتقافزون، الكـــلاب الناتجة. فى الثكنات، ينزل الجنود عن جيـــادهم، وفى الحـــال يجلس السجناء القرفصاء على الأرض لـــلراحة، ما عدا الصبى، الذى يقف على ساق واحدة، ذراعه على كتف والدته، يتطلع بفضول إلى المتفرجين. يجلب أحدهم جردلاً من الماء ومغرفة. يحتسون الماء بعطش شديد، فى حين يـــزداد الحشـــد ويضغط بقوة من حولهم، بحيث يحجب الرؤية عـــنى، فلا أرى شيئاً. بصبر نافذ أنتظر مجىء الحارس، الذى يشق طريقه الآن عبر المتجمهرين، ويجتاز ساحة الثكنات.

كيـــف تشرح هذا؟ أصيح فى وجهه. يحنى رأسه، يتلمس جيوبه. وأضيف: إنهم قوم صيادون، كيف تجلبهم إلى هنا؟ .

يقدم لى رسالة. أمزق الختم وأقرأ: أرجو أن تحتجز هؤلاء والمعتقـــلين القـــادمين فى سجن انفرادى لحين عودتى . تحت توقيعه، يتكرر الختم، ختم المكتب الثالث، الذى حمله معه إلى الصـــحراء والذى إن هلك سأضطر، بلا شك، إلى إرسال بعثة أخرى لاسترداده.

أصيح: الرجل مضحك! أدور فى أرجاء الغرفة والغضب يعصف بى. يتحتم على المرء أن لا يحط من قدر الضباط أمام الـــرجال قـــط، أو الآباء أمام أبنائهم، ولكننى اكتشفت أننى لا أحمـــل ولاء فى قلـــبى تجاه هذا الرجل. ألم يقل له أحد ما إن

هؤلاء قوم صيادون؟ الأمر مضيعة للوقت فى جلبهم إلى هنا! كـــان مـــن المفـــروض أن تساعده فى تتبع اللصوص، قطاع لطرق، غزاة الإمبر طورية! هل هؤلاء الناس يبدون خطرين على الإمبراطورية؟ . أقذف بالرسالة عند النافذة.

الحشـــد يتفرق أمامى، حتى أقف فى الوسط مواجهاً الاثنى عشـــر ســـجينا المثيرين للشفقة. يجفلون إزاء غضبى، وينزلق لصبى الصغير بين ذراعى والدته. ُومئ إلى الحارس: أخلوا المكـــان و جلـــبوا هـــؤلاء الناس إلى باحة الثكنات . يقودون الأســـرى لِى الأمام، وتغلق بو بة الثكنات خلفنا. أقول، والآن اشـــرحوا ما حدث، ألم يقل له أحدكم إن هؤلاء الأسرى عديمو الفائدة! ألم يحدثه واحد عن الفرق بين صيادين يحملون الشباك وبيـــن بدو رحل يركبون لخيول ويحملون السهام؟ ألم يَقل له أحد إنهم لا يتكلمون حتى اللغة نفسها؟

يـــبدأ ُحد الجنود بالشرح: لقد حاولوا الاختفاء فى الدغل، عـــندما أبصـــرونا قـــادمين. رأوا فرساننا مقبلين ولهذا حاولوا الاخـــتفاء، وهكـــذا، أمرنا الضابط، صاحب السعادة، بأخذهم، لأنهم كانو يختبئون .

كان بإمكانى أن ألعن بغيظ. شرطى، استنتاج شرطى! هل قال صاحب السعادة لماذا أراد جلبهم إلى هنا؟ هل قال لماذا لم يتمكن من سؤالهم عما يريد هناك؟

لم يتمكن أحد من التحدث بلغتهم، سيدى .

بالـتأكيد لـم يتمكنوا! سكان النهر هؤلاء قوم ذوو أصول بدائيـة قديمـة، إنهـم أقـدم حتى من البدو الرحل ويسكنون مستوطنات، تضم كل واحدة منها عائلتين أو ثلاثا، على طول ضفتي النهر، يمضون غالبية العام فى الصيد أو نصب الشراك للحيوانات. وهم يجدفون نحو أقصى جنوب شواطئ البحيرة فى الخـريف للإمسـاك بالأفاعى الدودية الحمراء وتجفيفها، بناء واقيـات ركيكـة مـن القصـب، يتأوهون بردا خلال الشتاء، ملابسـهم الجـلود، يعيشون فى خوف من كل إنسان، يتسللون خلسـة بيـن عيدان القصب، فما الذى يحتمل أن يعرفوه عن مغامرة كبيرة للبرابرة ضد الإمبراطورية؟

أرسل أحد الرجال إلى المطبخ من أجل الطعام. يعود بخبز متـبق من يوم أمس، ويقدمه للسجين الأكبر سناً. يتقبل الرجل العجوز رغيف الخبز بكلتا يديه بتبجيل، يشمه، يكسره، ويوزع القطـع عـلى من حوله. يحشون أفواههم بهذا المن، يمضغون بسـرعة، دون أن يرفعوا أعينهم. تبصق امرأة لقمة ممضوغة فى راحة يدها وتطعم رضيعها. أومئ لجلب المزيد من الخبز. نقـف نرقـبهم وهـم يأكـلون وكأنهم حيوانات غريبة. أقول للحراس، دعوهم يمكثون فى الساحة. لن يكون مناسباً بالنسبة إليـنا، ولكـن ليـس هناك مكان آخر. إن برد الجو فى الليل، سأتخذ ترتيباً آخر. راقبوا تزويدهم بالطعام. أعطوهم شيئا كى

يفعلوه، لأننى لا أريد عاطلين يأتون من أجل التحديق بهم.

وهكــذا أكــبح غيظى وأتصرف كما أمر العميد: أحتجز له سـجناءه الذيــن لا فائدة منهم فى سجن انفرادى. ويبدو فى خلال يوم أو يومين أن هؤلاء البدائيين قد نسوا أنه كان لهم فى يــوم مــن الأيام، مقر آخر. تم إغواؤهم كليا بالطعام المجانى الوفيــر والخبز بالدرجة الأولى، انهم يرتاحون ويبتسمون لكل واحــد، يتجولون فى ساحة الثكنات من رقعة ظل إلى أخرى، يغفون ويستيقظون، يتهيجون كلما حان ميعاد لوجبات. عاداتهم واضحة وقذرة. تحولت إحدى زوايا الساحة إلى مرحاض حيث يقرفص الرجال والنساء أمام الآخرين وحيث سحابة من الذباب تطــن طوال اليوم. (أعطوهم معولاً أقول للحراس، ولكنهم لا يستعملونه.) الخوف قد زال عن الصبى الصغير، يتردد بكثرة عــلى المطــبخ، مســتجديا السكر من الخادمات. وفضلا عن الخــبز، فــإن السكر والشاى، هما من الأمور الجديدة بالنسبة إليهم. إنهم يحصلون فى كل صباح على قطعة من ورق الشاى المضــغوط، يغــلونها فى دلو سعة أربعة غالونات على حامل ثــلاثى القوائــم. إنهــم سعداء هنا. وبالتأكيد، إن لم نطردهم خارجــاً، فــإنهم قد يبقون معنا إلى الأبد. لقد تطلب إغواؤهم للتخــلى عــن حياتهم الطبيعية، كما يبدو، شيئا ضئيل القيمة. أمضــى ســاعات أراقبهم عبر نافذة الطابق العلوى (كان على العاطلين الآخرين مراقبتهم عبر البوابة). أراقب النسوة يلتقطن

القمـــل، يمشـــطن، يضـــفرن بعضهن بعضهن شعور بعض، السوداء الطويلة. تعانى بعضهن من نوبات سعال جافة وحادة. ما يثير الدهشة عدم وجود أطفال فى المجموعة ما عدا الطفل الرضيع. هل بعض سريعى الحركة، المتيقظين منهم، قد نجحوا بعد كل شىء فى الهرب من الجنود؟ آمل ذلك. آمل، عندما نعيدهم إلى بيوتهـــم، ســـتكون لديهـــم قصـــص من أماكن بعيدة يحكونها لجيرانهم. آمل أن يدخل تاريخ أسرهم فى أساطيرهم، ما ينتقل مـــن الجد إلى الحفيد. ولكننى فى الوقت نفسه آمل أن لا تكون ذكـــريات البـــلدة بحياتها السهلة وطعامها الدخيل، بالقوة التى ســـتغريهم بـــالعودة. أنـــا لا أريد سلالة من المتسولين، أتولى الإشراف عليهم.

يغـــدو قوم الصيادين لبضعة أيام تغييراً، بثرثرتهم الغريبة، وشـــهيتهم الهائلة، وعدم إحساسهم بالحياء، ومزاحهم وطباعهم ســـريعة الـــتأثر. يتلكأ الجنود حول مداخل الأبواب لمراقبتهم، يطـــلقون تعليقات داعرة حولهم فيتقبلونها ضاحكين لعدم فهمهم إياهـــا، وهـــناك عـــلى الدوام أطفال يضغطون وجوههم على قضبان البوابة. ومن نافذتى، أتطلع إلى الأسفل، غير منظور، خلف الزجاج.

لكننى بعد ذلك، وبمجموعنا، نفقد التعاطف معهم. إذ ازدادت وبشـــدة القذارة والرائحة الكريهة وأصوات مشاجراتهم، وهناك حـــادث عرضـــى مزعج، ذلك عندما حاول أحد الجنود سحب

إحـــدى نســـائهم إلى الغرف، ويتعرض للرشق بالحجارة، أمر ربمـــا لا يحـــدث إلا فى مسرحية ما، ولا أعرف من الذى قام بذلـــك. وتبدأ إشاعة بالسريان، إنهم مصابون بالمرض، وإنهم ســـيجلبون وباء إلى البلدة. وعلى الرغم من أننى أرغمهم على حفـــر ركـــن فى زاويـــة الساحة ورمى نفايات الليل فيه، فإن العاملين فى المطبخ يرفضون إعطاءهم الأوانى ويبدأون برمى الطعـــام إليهـــم من مدخل الباب وكأنهم حيوانات فعلا. الجنود يغـــلقون لـــباب المـــؤدى إلى قاعـــة الثكنات، لم يعد الأطفال يقـــتربون من لبوابة. يقذف أحدهم بقطة ميتة فوق السور فى خـــلال الليل ويثير جلبة. إنهم فى خلال الأيام الحارة الطويلة، يـــتجولون فى الســـاحة الحاليـــة. الطفـــل يبكى ويسعل، يبكى ويسعل، حتى أضطر الالتجاء إلى أبعد زاوية فى شقتى. أكتب رســـالة غاضبة إلى المكتب الثالث، الحارس اليقظ الذى لا ينام للإمبراطورية، أشجب فيها عدم أهلية وكلائها، أكتب: لماذا لا ترســـلون أناســـا ذوى خبرة بالحدود للتحقيق فى اضطرابات الحدود؟ بحكمة أمزق الرسالة. أسائل نفسى، هل إن قمت بفتح البوابة فى هدأة الليل، سيتسللون خارجاً؟ ولكننى لا أفعل شيئاً. وجـــاء بعدئذ يوم، لاحظت فيه أن الطفل قد توقف عن البكاء. وعندما تطلعت من لنافذة، لم أجد له أثراً فى أى مكان. أبعث حارساً للبحث ويعثر على جثة الصغير تحت ملابس أمه. إنها لا تتخلى عنه وكان علينا نتزاعه منها. تجلس القرفصاء وحيدة

طوال النهار، بعد ذلك، مغطية وجهها رافضة الطعام. ويظهر أن قومهـا يـنأون بأنفسهم عنها. أتساءل، هل تجاوزنا بعض تقـاليدهم، بأخذ الطفل ودفنه؟ ألعن العميد جول لكافة المشاكل التي جلبها علينا، وأيضاً بسبب الإحساس بالعار.

فيمـا بعـد، وفي منتصف الليل يعود. تفض رقدتي نداءات بوق آتية من الأسوار. تنفجر قاعة الثكنات هياجا، بسبب تزاحم الجـنود لأخذ أسلحتهم. يختلي تفكيري، أرتدي ملابسي ببطء، وفي الوقت الذي أصل فيه إلى الساحة، أجد طابور الجند قد بدأ للـتو، باجـتياز البوابة، بعضهم يمتطي الخيول، بعضهم يقود دابـة. أقف في المؤخرة، بينما يتزاحم المتفرجون في المكان، يتلمسـون الجـنود ويحتضـنونهم، يضحكون منفعلين (كلهم سـالمون بعضـهم يصـيح)، ولم أر ما كنت أخشاه، إلا بعد وصـولي إلى منتصف الطابور: العربة السوداء، ثم مجموعة مـن الأسرى، يسيرون بتثاقل مربوطين بالحبال معاً، رقبة إلى رقـبة. شخوص لا شكل معين لهم، تحت ضوء القمر الفضي، في معاطفهم المصنوعة من جلود الخراف، ثم يأتي خلفهم آخر الجنود، وهو يقود العربات ومجموعة من الخيول. وكلما ازداد وازداد عدد الناس القادمين هرولة، ازدادت البلبلة. أدير ظهري نحـو انتصار العميد وأشق طريقي عائداً إلى غرفتي. من هذه الـنقطة، أبدأ بإدراك عدم جدوى العيش، كما اخترت أن أفعل، في الشـقة غير المنتظمة، فوق غرف المخزن والمطبخ، التي

خصصت لآمر الموقع الذى لم يعين منذ أعوام، وذلك بدلا من المنزل الجذاب ذى النوافذ التى يعرش عليها الجيرانيوم والتى يخفــق الحكــام المدنيــون فى الحصول عليها. أود أن يكون بمقــدورى صــد أذنى عن الأصوات القادمة من الساحة أسفل الشــقة، والــتى أصبحت الآن، كما يبدو، تتحول بوضوح إلى ساحة سجن. ينتابنى إحساس بالتعب والكبر وبرغبة فى النوم. أنــام فى هــذه الأيام أينما أقدر، وعندما أصحو، استيقظ على مضــض. لــم يعد النوم مغطساً شافياً، من أجل استعادة القوى الحيويـــة، بــل وسيلة للنسيان، مناوشة قصيرة مع الإبادة. غدا العيــش فى الشقة مؤذياً لى. ولكن، ليس ذلك فحسب، فلو أننى كــنت أقمت فى منزل القاضى، فى أهدأ شارع فى البلدة، أعقد جلســات المحكمــة كــل اثنين وثلاثاء، أذهب إلى الصيد كل صــباح، أشــغل أمســياتى بالآثار الكلاسيكية، أغلق أذنى عن فعاليــات هــذا الشرطى حديث النعمة، إن كنت قررت امتطاء الــزمن الــردىء، محتفظاً بمشورتى لنفسى، لربما كففت عن الإحســاس كرجل واقع فى قبضة تيار مضاد قوى، يتخلى عن المقاومــة، يــتوقف عــن الســباحة، ويدير وجهه نحو البحر المكشوف والموت. إلا أن الأمر هو معرفة مدى استمرار حالة عــدم الاستقرار التى أنا فيها، كم هو متوقف على نحيب طفل تحــت نافذتى فى يوم ما وتوقفه عن ذلك فى اليوم التالى، ذلك يجــلب لى أســوأ أحاســيس الخزى، كبر لا مبالاة للفناء. أنا

أعرف الكثير إلى حد ما، ومن هذه المعارف، أن المرء ما إن يصاب بالعدوى فلا شفاء، كما يبدو، له. ما كان على قط تناول فانوسى لرؤية ما كان يجرى فى الكوخ بجوار مخزن الحبوب. مـــن جهة أخرى، لم يكن هناك خيار آخر، ما دمت قد التقطت الفـــانوس، تقـــع علىّ مهمة وضعه ثانية على الأرض. تتعقد الأنشوطة حول نفسها، لا أستطيع العثور على النهاية.

يمضى العميد، اليوم التالى بأكمله، فى النوم، فى غرفته فى الفـــندق، ويكـــون عـــلى العاملين السير على أطراف أصابع أقدامهـــم، فى خـــلال إنجـــاز واجباتهم. أحاول عدم الاهتمام بالحزمة الجديدة من السجناء فى الباحة. ومن المؤسف أن كافة أبـــواب مبنى الثكنات فضلاً عن باب السلم المؤدى إلى شقتى تنفـــتح على الساحة. أهرع خارجا فى الضياء الأول للصباح، أشـــغل نفسى بإيجارات البلدية، أتعشى مساء مع أصدقاء. فى طـــريق العـــودة إلى المـــنزل أقابل الملازم الشاب الذى رافق العميـــد جول إلى الصحراء وأهنؤه على سلامة العودة، ولكن لمـــاذا لم تشرح للعميد أن الصيادين قد لا يكونون قادرين على مســـاعدته فى تحقيقاته؟ يبدو مرتبكاً، ويقول لى، لقد تحدثت ولكن كل ما قاله كان، السجناء هم السجناء . وقررت أنه ليس بإمكانى النقاش معه .

يـــبدأ العميد تحقيقه فى اليوم التالى. فيما مضى اعتقدت أنه

كســول، إلى حــد أبعد من رجل بيروقراطى ذى ميول فاسدة، اليوم أدرك كم كنت مخطئا. لا يتعب فى بحثه عن الحقيقة. يبدأ الاســتجواب فى ساعة مبكرة من الصباح، ولا يزال مستمراً، لحين عودتى بعد هبوط الظلام. لقد جند مساعدة صياد أمضى حياته فى إطلاق النار على الخنازير على طول النهر، ويعرف مائــة كــلمة مــن لغة قوم الصيادين. واحداً بعد آخر، يؤخذ الصــيادون إلى الغرفة التى كان العميد قد استقر فيها ، ليسألوا ان كــانوا قــد شــاهدوا حركات خيالة غرباء. الطفل أيضاً تم اســتجوابه، هــل قــام غرباء بزيارة والدك فى خلال الليل؟ (أخمــن بطــبيعة الحــال، ما يدور فى الغرفة، أخمن الخوف والارتــباك والشــرود.) لا يعود السجناء إلى الساحة، بل إلى قاعــة الثكنات الرئيسة: الجنود قد تفرقوا ، وزعوا على جهات البلدة الأربع. أجلس فى غرفتى، نوافذى مغلقة، أحاول القراءة، فى ســخونة الجــو المضغوط لمساء بلا ريح، اجهد نفسى أن أســمع أو لا أسمع أصوات العنف، وأخيراً، فى منتصف الليل، يــتوقف التحقيق، وتخمد فرقعة الأبواب ووقع الخطى، الساحة ساكنة تحت ضوء القمر، عند ذلك يؤذن لى بالنوم.

لقد غادر الفرح حياتى. أقضى النهار فى التعامل مع بيانات وأعــداد، متوســعاً فى أعمالى البسيطة عن أجل ملء الفراغ. أتــناول الطعــام فى الفندق مساء ثم أعود مرغما إلى البيت. أصــعد إلى الطــابق العــلوى، إلى الجزء المخصص للغرف

المنفصلة، المكعبة الشكل، حيث ينام سُواس الخيول وحيث تُسَرِّى الفتيات عن أصدقائهن من الرجال.

أنام مثل رجل ميت. عندما أصحو أجد فى الضوء الشاحب لساعات الصباح الأولى، البنت متمددة، منطوية على نفسها، على أرضية الغرفة. ألمس ذراعها: لمازا تنامين هنا؟ . تبتسم لى. كل شىء على ما يرام، أنا فى وضع مريح. (ذلك صحيح: مستلقية على جلد خروف ناعم، تتمطى وتتثاءب، جسدها الدقيق لا يكاد يملؤه.) كنت تهذر فى نرمك، طلبت عنى الانصراف، وهكذا قررت انه من الأفضل لى النوم هنا.

طلبت أنا منك الانصراف؟

نعم، فى خلال نومك، لا تنزعج . تصعد إلى جوارى فى السرير، احتضنها بامتنان، وبلا رغبة.

أقول: أود النوم هنا ثانية ته الليلة . تمرغ انفها فى صدرى. يخطر ببالى ان كل ما أريد ان أقوله لها، سيسمح بمشاركة وجدانية، بحنان. ولكن ماذا باستطاعتى القول؟ أمور مخيفة تجرى فى الليل، بينما نكون انت وأنا نائمين ؟ الثعلب يسرق أحشاء الأرنب، ولكن العالم يستمر فى الدوران.

امضى نهاراً آخر وليلة أخرى بعيداً عن سلطة الألم. أغلى فى النوم بين ذراعى الفتاة. ثانية، تكون مستلقية على أرضية الغرفة فى الصباح. تضحك عند فزعى: لقد دفعتنى خارج

الســرير، ليديك وقدميك. أرجو ان لا ترتبك، نحن لا نستطيع التحكم بأحلامنا أو ما نفعله فى خلال النوم . أتأوه وأدير وجهى عــنها. أنــا اعرفها منذ عام. أقوم بزيارتها أحياناً مرتين فى الأســبوع، فى هــذه الغــرفة. أحس بمشاعر هادئة تجاهها قد تكــنون أفضــل ما يأمله المرء من علاقة بين رجل متقدم فى الســن وفــتاة فى العشرين، أفضل بالتأكيد من هوى متملك لقد ناورت مع فكرة الطلب منها للعيش معى. أحاول ان أتذكر أى كابوس تملكنى عندما دفعتها بعيداً عنى، لكننى ُخفق. أقول لها، ان فعلتها ثانية يوما ما، عليك ان تعدى بإيقاظى .

فى مكتــبى فى دار المحكمة، بعدئذ، يعلن عن قدوم زائر. العميــد جول مرتدياً، فى داخل الغرفة، غطائى عينيه، يجلس ليعد دخوله فى مواجهتى. ُقدم الشاى إليه، مندهشاً لمدى ثبات يــدى. يقــول انه على وشك الرحيل، هل يتوجب على إضفاء فرحتى؟ يحتسى شايه، جالساً بعناية، منتصباً، متفحصا الغرفة، صــفوف هــن أوراق فــوق صفوف مرزومة معا ومشدودة بــرباط، ســجلات لعقــود مــن الإدارة المملة، حافظة كتب للنصوص القانونية، المكتب المركوم بغير انتظام. يقول، انه قد أنــهى استقصــاءاته، فى الوقــت الحاضــر، وانه مسرع إلى العاصمة لكتابة تقريره. تبدو عليه سيماء انتصار يسيطر عليها بقــوة. أحنى رأسى متفهما. أقول له: ماذا يمكننى أن أفعل من اجــل تسهيل مهمتك...؟ تمر برهة من السكون بيننا. ثم إلى

الصمت، اقذف بسؤالى، مثل حصاة ترمى فى بركة: هل كانت تحقيقاتك أيها العميد بين أقوام البدو والبدائيين ناجحة كما كنت تأمل؟

يقرب يديه، رأس أصابع يدٍ إلى رأس أصابع الأخرى، قبل أن يجيــب. امتــلك إحساســاً من معرفته إلى أى درجة كبيرة تــثيرنى عواطفه. نعم، أيها القاضى، أستطيع أن أقول: إننا قد حققنا بعض النجاح. وخاصة أن تضع فى الاعتبار أن تحقيقات مماثــلة، تجــرى فى أماكن أخرى على طول الحدود، وبشكل متناسق .

ذلك أمر حسن. هل يمكنك أن تخبرنا فيما إذا كان هناك ما نخشاه؟ هل بإمكاننا النوم بأمان فى الليل؟ .

تــتجعد زاويــة فمه فى ابتسامة ضيقة. يقف بعدئذ، ينحنى، يستدير ويغادر. فى ساعة مبكرةٍ من صباح اليوم التالى يرحلٍ بــرفقة حارسه الضئيل، متخذاً الطريق الشرقى الطويل، عائداً إلى العاصمة.

لقد تدبرنا طوال مدة مرهقة، أن يتصرف كل واحد منا نحو الآخــر، كأنــاس متحضرين. لقد آمنت طوال حياتى بالسلوك المتحضــر، وفى هذه المناسبة، لا أستطيع أن أنكر، ان الذاكرة تتركنى مشمئزاً من نفسى.

كــان عملى الأول زيارة السجناء. افتح أقفال قاعة الثكنات،

الـــتى أصبحت سجناً لهم، تتقزز حواسى بسبب الرائحة النتنة لـــلعرق والـــروائح الكـــريهة الأخـــرى. أفـــتح الأبواب على مصـــراعيها. أخـــرجوهم مـــن هنا! أصيح بوجه الجنود - المـــرتدين نصـــف ملابســـهم الواقفين حولنا، يراقبوننى وهم يتناولون حساءهم. من خلال العتمة فى الداخل، يحدق السجناء بلا مبالاة بالمقابل. أصرخ، اذهبوا إلى الداخل ونظفوا المكان تمامـــاً. أريد أن يبدو كل شىء نظيفاً! صابون وماء! أريد أن يعـــود كل شىء إلى ما كان عليه من قبل! يسرع الجنود لتلبية الأوامر، لابد أنهم يتساءلون، لماذا أوجه غضبى نحوهم. يخرج الســـجناء إلى ضوء النهار، تطرف أعينهم، يقومون بتغطيتها. إحـــدى النسوة فى حالة تستدعى المساعدة. إنها ترتعش طوال الوقـــت مثل شخص عجوز، على الرغم من كونها شابة. هناك آخرون مرضى أيضاً، لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم.

مضـــت خمســـة أيام على رؤيتى إياهم (ان كنت أقدر على الادعـــاء قـــط من رؤيتى لهم، ان فعلت قط أكثر من المرور ببصرى على وجوههم بغير انتباه ومع نفور...). لا أعرف ما الـــذى عـــانوه فى خلال هذه الأيام الخمسة. الآن وبعد أن تم اقتيادهم من قبل الحراس، يقفون فى حزمة صغيرة يائسة، فى زاويـــة مـــن الساحة، البدر والصيادون معا، مرضى، جوعى، متضـــررون، فـــزعون. سيكون من الأفضل، لو ينهى وعلى الفـــور هـــذا الفصـــل الغريب من تاريخ العالم، أن تمت إزالة

هــؤلاء القوم من على وجه الأرض وأقسمنا نحن على أن نبدأ مــن جديد من أجل إدارة إمبراطورية لا يوجد فيها المزيد من الظلم، لمزيد من الألم. سيكلف الأمر قليلاً، أن نقودهم خارجا فى مسيرة إلى الصحراء (بعد أن نضع فى جوفهم وجبة طعام، ربمــا كى نجعل المسيرة ممكنة)، أن ندفعهم كى يحفروا بآخر قــوة فيهم، حفرة يكون حجمها كافيا (أو ربما نحفرها لهم!)، وندعهــم مدفونين، هناك إلى أبد الآبدين، وأن نعود إلى البلدة المسورة ممتلئين بنوايا جديدة، وقرارات جديدة. ولكن ذلك لن يكــون طــريقى. رجال إمبراطورية جديدة هم الذين يؤمنون بــبدايات جديدة، فصول جديدة، صفحات نظيفة. أناضل أنا مع القصة القديمة، آملاً أنها قبل أن تنتهى ستكشف لى عن السبب الــذى جعلنى أظن أنها جديرة بالعناء. وهكذا يكون الأمر. بعد أن عــادت إلى اليــوم مهمــة إدارة القــانون والنظام فى هذه الأرجــاء، آمــر أن يطعم السجناء، وأن يستدعى الطبيب إليهم لعمل ما فى وسعه، أن تعود الثكنات إلى كونها ثكنات، أن تتخذ الترتيبات لإعادة السجناء إلى حياتهم بأسرع وقت ممكن، والى أبعد حد ممكن.

* * *

٢

تجــثو فى ظــل جدار الثكنات على مسافة عدة ياردات عن الــبوابة، ملــتفة فى معطف جد واسع عليها، قبعة من الفراء أمامهــا عــلى الأرض. لديها الحاجبان المستقيمان الأسودان، الشــعر الأســود الــلماع للــبرابرة. ما شأن امرأة بربرية فى الاســتجداء بالبــلدة؟ لا يوجــد فى قبعتها غير عدد ضئيل من القروش.

أمر بها مرتين تقريبا فى خلال النهار. تمنحنى فى كل مرة نظــرة غريبة، محدقة باستقامة إلى الإمام، حتى أقترب منها، عــندئذ تديــر رأسها عنى ببطء شديد. فى المرة الثانية أسقط قطعــة نقود فى القبعة. أقول، الجو بارد و لوقت متأخر للبقاء خارج البيوت . تومئ برأسها. الشمس تغيب خلف شريط طويل وضيق من غيوم سوداء. الريح القادمة من الشرق، بدأت الآن تحمل ذرات من الثلج. الساحة خالية، أمضى إلى الأمام.

لــم تكــن هناك فى اليوم التالى، أتحدث مع حارس البوابة، كانت امرأة تجلس هناك طوال يوم أمس، تتسول. من أين آتية هى؟ . يجيــب لأن المرأة عمياء. إنها واحدة من البرابرة التى جاء بهم العميد إلى هنا. لقد تركت وراءهم بعد رحيلهم.

أراها، بعد بضعة أيام، تجتاز الساحة، تسير ببطء وبارتباك

بعكازين، أطراف معطفها المصنوع من جلد الخراف، تتجرجر خـلفها فى الـتراب. أصـدر أوامرى: بأن تستدعى إلى حيث أسـكن، حيث تقف أمامى متوكئة على عكازين. أقول انزعى – قبعـتك ، يقـوم الجندى الذى كان قد جلبها إلى بنزع القبعة عنها. إنها عين الفتاة، الشعر الأسود نفسه بقصة على الجبين، الفم الواسع نفسه، العينين السوداوين اللتين تتطلعان مباشرة ثم تتجاوزاننى.

'يقولون لى: انك عمياء .

تقول، 'أستطيع أن أرى تتحرك عيناها مبتعدتين عن وجهى وتستقران فى مكان ما خلفى من جهة اليمين.

مـن أيـن قدمت؟ . ألقى بلا تفكير نظرة خاطفة من فوق كتفى. أنها لا تحدق فى شىء غير جدار خال. أصبحت نظرتها أكـثر صـراحة. عارفاً، بالتو، الجواب، أعيد سؤالى، تواجهه بالصمت.

أصرف الجندى. نبقى وحدنا.

أقول: اعرف من تكونين. هل تسمحين بالجلوس؟ . أتناول عكازيها أساعد فى إجلاسها علي مقعد بلا مسند. تحت معطفها تـرتدى سروالاً تحتانياً عريضاً من الكتان، أدخلت أطرافه فى حـذاء ذى ساق طويلة (جزمة) وبنعل ثقيل. تفوح منها روائح دخان، ملابس بالية، وسمك. يداها خشنتان.

أسأل: هل تكسبين رزقك بالتسول؟ ليس من المفروض، كما تعـلمين ، أن تكـونى فى البلدة. بإمكاننا طردك فى أى وقت وإعادتك إلى قومك .

تجلس محدقة إلى الأمام بشكل غريب.

أقول: انظرى إلى .

أنا انظر. هكذا أبدو .

أحـرك يداً أمام عينيها. تطرف عيناها. أقرب وجهى منها وأتفرس فى عينيها. تدير نظرتها من الجدار نحوى. القزحيتان، عوضـتا بـبياض كالحليب، صافيتان كعيون الأطفال. ألمس خدها. تجفل.

سألت كيف تكسبين رزقك؟

تهز كتفيها، اغسل الملابس .

أين تقيمين؟

أعيش .

نحـن لا نسمح بالمتسولين فى البلدة. الشتاء على الأبواب. لابـد ان يكـون لديك مكان ما للسكن، والا فعليك أن تمضى عائدة إلى قومك .

تجلس بشكل فظ. أدرك أننى أحوم حول الموضوع.

بإمكـــانى توفير عمل لك. أريد أحداً يعتنى بترتيب الغرف وبـــتدبير أمـــر الغسيل. المرأة التى تقوم بهذه الأعمال حالياً، ليست مناسبة .

تدرك ما أعرضه عليها. تجلس متصلبة، يداها فى حضنها.

هل أنت وحيدة؟ أرجو الإجابة؟

نعم ، يأتى صوتها هامسا. تنظف حنجرتها، نعم .

قدمـــت عرضـــاً بوجـــوب قدومـــك للعمل هنا. لا يمكنك الاســـتجداء فى الشـــوارع. لا أستطيع السماح بذلك. ولابد من مكـــان للإقامة فيه. بإمكانك، إن عملت هنا، مشاركة الطباخة غرفتها .

إنك لا تفهم. أنت لست فى حاجة إلى واحدة مثلى. تتلمس الطريق إلى عكازيها. أدرك أنها غير قادرة على الإبصار.

أنـــا... ، تمسك بسبابتها، تقبض عليها، تلويها. لا امتلك أنا فكـــرة عما تعنيه الحركة. هل بإمكانى الذهاب؟ . تجد بنفسها الطـــريق نحـــو رأس السلم، وبعد ذلك، كان عليها الوقوف فى انتظارى لمساعدتها على النزول.

يـــوم يمر. أحدق فى الساحة ملياً، حيث الريح تطارد هبات الـــتراب. ولدان صغيران يلعبان بطوق. انهما يطلقانه للريح ، الطوق يتدحرج إلى الأمام، يتباطأ، يتأرجح، يعود إلى الوراء،

يسـقط. يرفع لولدان وجهيهما ويركضان خلفه، الشعر يتطاير عن جبينيهما الأملس.

أَجـد الفـتاة وأقف أمامها. تجلس وظهرها مسند إلى جذع إحـدى أشجار الجوز الضخمة. من الصعب ملاحظة إن كانت مسـتيقظة. أقـول، تعـالى، وألمـس! قبعتها وأناولها إياها، أساعدها في الوقوف على قدميها، أسير ببطء إلى جوارها عبر السـاحة الخالية الآن إلا من حارس البو بة، الذى يظلل عينيه، للتحديق بنا.

النار موقدة. أسدل الستائر، أشعل المصباح. ترفض الجلوس عـلى لمقعد، ولكنها تستسلم وتتخلى عن عكازيها وتجثو على السجادة.

أقـول: الأمـر ليـس مـا تعتقدينه'. الكلمات تخرج على مضـض. هل أنا حقاً على وشك تبرير نفسى؟ شفتاها مطبقتان بشـدة، أذناهـا بـلا شـك أيضاً. إنها لا تريد شيئا من رجال مـتقدمين في السـن وضـمائرهم التى تنطق بالشكوى. أدور حولهـا، مـتحدثاً عن قانون البلدة المحلى، مشمئزاً من نفسى. بشرتها تبدأ بالتوهج من دفء الغرفة لمغلقة، تسحب معطفها، تعـرض رقبـتها للـنار. البعد بينى وبينها معذب، وهو جدير بالإهمال. يقشعر بدنى.

أريـنى قدميـك، أَقول بالصوت الجديد الذى يبدو أنه لى.

'أرينى ما فعلوه بقدميك .

إنهـــا لا تســـاعدنى ولا تمنعنى. أحل الأشرطة الجلدية عن ثقـــوب المعطف، افتحه اخلع عنها الحذائين. انه حذاء (جزمة) مـــن نـــوع الأحذيـــة الرجالية، جد واسع عليها. وقدماها، فى داخلهما ملفوفتان، لا شكل لهما. أقول، دعينى أر .

تـــبدأ فى فك الأربطة القذرة. أغادر الغرفة، أنزل تحت إلى المطـــبخ. أعود بطست وإبريق ماء دافئ. تجلس منتظرة على السجادة. قدماها عاريتان. إنهما عريضتان، والأصابع غليظة، الأظافر مكسوة بطبقة من القذارة.

تمرر إصبعاً عبر طرف كاحلها، هنا، المكان الذى انكسر، الآخر أيضاً . تميل إلى الخلف مستندة على يديها وتمد قدميها.

أقـــول: هـــل يؤلمك؟ . أمرر إصبعى على الخط، دون أن أحس بشىء.

لم يعد كذلك، لقد اندمل. ولكن ربما عندما يبرد الجو .

أقـــول: عليك بالجلوس . أساعدها فى خلع معطفها، أجلسها عـــلى المقعد. أصب الماء فى الطست، وأبدأ فى غسل قدميها. تـــبقى قدماهـــا متصـــلبتان لوهلة، ثم تسترخيان. مكوناً رغوة صـــابون، أغســـل على مهل، قابضاً على ربلة الساق بلحمها المتماسك، معالجاً عظام قدميها وعروقهما، ممرراً أصابعى بين

أصابعها. أغير موضعى لأجثو، ليس أمامها، بل إلى جوارها، إذ إننى بالإمساك بالساق بين المرفق والجنب، أكون قادراً على تدليك القدم بكلتا يدى.

أفقد صوابى فى إيقاع ما أفعله. أفقد الإحساس بوجود الفتاة نفسها. هناك فاصلة من الزمن خالية بالنسبة لى، ربما حتى أنا غيـــر موجـــود فيها. عندما أعود إلى نفسى، أصابعى تكون قد ارتخت، القدم ترتاح فى الطست، رأسى يتدلى.

أجفــف القــدم اليمنى، أتحول إلى الجهة الأخرى، أرفع ساق الســروال العريض حتى الركبة، أقاوم النعاس، أبدأ بغسل الساق اليســرى. قُــول، تغدو هذه الغرفة، أحياناً، حارة جداً . لا يقل ضغط ساقها على جنبى. أواصل حديثى، سأبحث عن ضمادات نظيفــة لقدمــك، ولكــن ليس الآن . أدفع الطست جانباً وأجفف القدم. أحس أن الفتاة تجهد نفسها للوقوف، ولكنى أفكر ان عليها الآن أن تعتــنى بنفســها. عيناى مغلقتان. يصبح الاحتفاظ بهما مغلقتين سعادة بالغة، أن أستمتع بدوار منتهى البهجة.

أتمدد على السجادة. وفى لحظة أستغرق فى النوم. أستيقظ فى منتصف الليل، مقروراً ومتصلباً. النار انطفأت، الفتاة رحلت.

* * *

أرقــبها تــأكل، إنها تأكل كشخص أعمى، محدقة فى لقطة

بعيــدة، تتــلمس طريقها، تمتلك شهية جيدة، شهية امرأة ريفية قوية.

أقول: ألا أصدق أنك قادرة على الإبصار .

نعم، بإمكانى الإبصار. عندما أنظر باستقامة ، لا أجد شيئاً، هناك... (تدعك الهواء أمامها، مثل شخص ينظف نافذة).

أقول: لطخة .

هــناك لطخـــة، لكننى أستطيع الرؤية عبر زاويتى عينى. العين اليسرى افضل من اليمنى. كيف يمكننى إيجاد طريقى إن لم أكن قادرة على الرؤية.

هل فعلوا هذا بك؟

نعم .

ماذا فعلوا؟

تهــز كــتفيها وتصمت. صحنها فارغ. أصب لها المزيد من يخـــنة الفاصـــولياء التى يبدو أنها أعجبتها كثيراً. تأكل بسرعة كبيرة. تتجشأ خلف يد كأسية الشكل ثم تبتسم. تقول، الفاصولياء تولـــد الغـــازات . الغرفة دافئة، معلق معطفها فى زاوية وتحته حذاؤهـــا، إنها ترتدى القميص الأبيض فقط والسراويل الطويلة. عـــندما لا تكـــون ناظرة نحوى فأنا كلب صيد من كثرة التحرك حواليهـــا. غيـــر قـــادر على تحديد محيط دائرة بصرها. عندما

تتطــلع نحــوى، أكون لطخة، صوتاً، رائحة، مركز طاقة تسقط فى الــنوم وهى تغســل قدميهــا وفى اليــوم الــتالى، تطعمها الفاصولياء، وفى ليوم التالى- إنها لا تعرف.

أجلسها، ملأ الطست، ألف أطراف السراويل حتى ركبتيها. والآن وبعد أن تصبح قدماها معاً فى الماء، أستطيع أن أرى أن اليسرى ملتوية أكثر إلى الداخل من اليمنى. وأنها عندما تقف، يــتوجب عليها الوقوف على الحافة الخارجية لقدمها. كاحلاها ممتلئان، لا شكل لهما، البشرة ذات ندوب أرجوانية.

أبدأ بغسلها. ترفع قدميها لى بالتتابع. أدلك وأدعك الأصابع الــرخوة بواســطة الصــابون اللبنى الناعم. سرعان ما تنغلق عيناى، يتخاذل رأسى. إنها نشوة من نوع ما.

بعــد الانــتهاء من غسل قدميها أبدأ بغسل ساقيها. من أجل هــذا، عــليها الوقــوف فى الطست والاستناد إلى كتفى. يداى تتحركان أعلى وأسفل ساقيها من لكاحلين حتى لركبتين، خلفا وأمامــا، معتصراً، ملاطفاً ومربتاً. ساقاها قصيرتان وقويتان، قويــة الربلــتين. تتحرك أحياناً أصابعى خلف ركبتيها، متتبعة العــروق، ضــاغطة على الفراغات بينهما، خفيفة كريشة تتيه صاعدة نحو فخذيها.

أساعدها فى الذهاب إلى السرير، وأجففها بمنشفة دافئة. أبدأ بتشــذيب وتــنظيف أظافــر قدميها. ولكن أمواج النوم، تكون

آنذاك، متدفقة في. أفاجأ برأسي منحنيا، جسدي متهالكاً إلى أمام في غيبوبة. أضع المقص بعناية جانباً، ثم أنام، بكامل ملابسي، علـى السـرير بجوارها، بشكل متعاكس، رأسي نحو قدميها. أطـوي سـاقيها بين ذراعي، أضع رأسي عليهما، وفي لحظة أكون نائماً.

أصـحو في الظلام. ضوء المصباح منطفئ، ورائحة ذبالة محـترقة في المكان. أنهض وأفتح الستائر. تنام الفتاة مجتمعة علـى نفسـها، ركبتاها مشدودتان نحو صدرها. تتأوه، عندما ألمسها، وتجمع نفسها بشدة أكثر.

أقـول، إنك تتعرضين للبرد . ولكنها لا تسمع شيئاً. أفرش بطانية فوقها ثم بطانية ثانية.

* * *

تـأتي أولاً طقوس الاغتسال، وهي عارية من أجلها، أغسل قدميهـا، كمـا في السـابق، ساقيها وردفيها. يداي المصوّبتان تـرحلان، من دون اهتمام كما أحس إلى ما بين فخذيها. ترفع ذراعيها وأنا أغسل إبطيها. أغسل بطنها، صدرها، أدفع شعرها جانباً وأغسل رقبتها، حنجرتها. إنها صبور. أنشطفها وأجففها.

تستلقي على السرير، أدعك جسدها بزيت اللوز. اغلق عيني وأفقد صوابي في إيقاع الدعك، بينما النار، مغذوّة بكومة عالية، تهدر في الموقد.

لا أمتــلك أى رغـبة فى دخول هذا الجسد القوى الممتلئ القــوى الصــغير المتلألئ الآن فى ضوء النار. مضى أسبوع على تبادلنا الكلام. أطعمها، آويها، استعمل بدنها، إن كان الأمر كذلــك كهذه الطريقة الغريبة. كانت هناك لحظات تتصلب فيها لمداعبات حميمة معينة، ولكن جسدها الآن يستسلم عندما أفرك رأســى ببطــنها أو أمسك بقدميها بين فخذى. إنها تستسلم لأى شــىء. تتســلل أحياناً إلى النوم قبل أن أنتهى. بعمق تنام كما الأطفال.

بالنســبة لى، أقدر، تحت بصرها الأعمى، على نزع ثيابى، فى الدفء الشديد للغرفة، دون ارتباك، معرّيًا، ساقىّ النحيفتين، أعضــائى لتناسلية المسترخية، بطنى، والصدر المتهدل لرجل عجــوز مثــلى، وحنجرتى ذات الجلد الشبيه بجلد ديك رومى. أجــد نفسى متجولاً فى المكان، دون تفكير بهذا العرى، وابقى أحيانـــاً، متدفئاً عند النار، بعد أن تخلد الفتاة إلى النوم، أو أقرأ جالساً على كرسى.

ولكنــنى فى الغــالب، فى تمام فعل ملاطفتها، يتغلب على النوم، مثل فأس جزار، أسقط فى لا وعى وأنبطح على جسدها بغيــر انتظام، وأصحو بعد ساعة أو ساعتين، دائخاً، مرتبكا، عطشــاناً. هذه النوبات الخالية من الأحلام أشبه بموت بالنسبة لى أو سحر، فراغ مطلق خارج الجسد.

ذات أمســية، ماســحا جلدة رأسها بالزيت، مدلكا صدغيها وجبيــنها، ألاحظ فى زاوية إحدى عينيها تجعيدة بلون ضارب إلى الرمادى وكأنما يرقة فراشة تستلقى هناك، ترعى، ورأسها تحت جفن الفتاة. أسأل متتبعا اليرقة بإصبعى، ما هذا؟

ذلك حيث لمسونى، تقول وهى تدفع يدى بعيداً.

أيؤلمك؟

تهز رأسها.

دعينى أر

الأمر قد بدا يتضح لى أكثر وأكثر. إنه ما لم تُكتشف وتُفهم معــنى العلامــات على جسد هذه الفتاة. فإننى غير قادر على الســماح لها بالذهاب. بين السبابة والإبهام، أفصل بين جفنيها. اليــرقة تصــل نهايتها، حيث ينقطع رأسها، عند حافة الزاوية الوردية للجفن. لا توجد علامات أخرى. العين لم تمس.

أنظر فى العين. هل أصدق أن نظراتها المستجيبة، لا ترى شيئاً – ربما قدمى، أجزاء من الغرفة، دائرة مضببة من ضياء. وأمــا فى الوســط، حيث أنا، فلا شىء غير الضباب، الفراغ؟ أمرر يدى ببطء أمام وجهها، مراقباً بؤبؤها. لا أميز حركة ما. انها لا تطرف. لكنها تبتسم: لماذا تفعل هذا؟ هل تعتقد أننى لا أبصر ؟

عينان بنيتان، بنيتان جداً، وكأنهما سوداو ن.

ألمس بشفتى جبينها. أدمدم، ماذا فعلوا بك؟ لسانى يطىء، أتأرجح جهداً. لماذا لا تريدين إخبارى؟

تهز رأسها. أتذكر و نُا على حافة اللاوعى، أن أصابعى فى مرورها على وركيها، أحسست بشبح خطوط متشابكة مرتفعة تحت الجلد. أغمغم، لا شىء أسو ء مما نتخبله . لا يبدو عليها علامـــة مـــا عـــلى أنها حتى قد سمعتنى. أستلقى متهالكا على المضـــجع، ســـاحباً إياها إلى جوارى، متثائباً. أريد أن أقول، احـــكى لى، لا تجعـــلى من الأمر سراً. الألم هو الألم . ولكن الكـــلمات تنفـــلت منى. تلتف ذراعاى حولها، شفتاى فى فراغ أذنها، ُجهد نفسى كى أتحدث، ثم تسقط العتمة.

* * *

لقـــد خلصـــتها من عار التسول، وعينتها خادمة فى حجرة غســـل الأطباق والأوانى. من المطبخ إلى سرير القاضى فى ســـت عشـــرة درجـــة سهلة هكذا يتحدث الجنود عن خادمات المطـــبخ. مـــن أقوالهم الأخرى، ما هو آخر ما يفعله القاضى عندما يغادر صباحاً؟ - إنه يحجز أحدث فتياته فى الفرن. كلما كـــانت البـــلدة أصغر، اغتنت همهمات القيل والقال. لا توجد مسائل شخصية هنا. القيل والقال هو الهواء الذى نتنفسه.

انهـــا، في جــزء مــن الــنهار ، تغســل الأواني، تقشــر الخضــراوات، تساعد في إعداد الخبز وتهيئ الأعمال الرتيبة المتعـلقة بالعصيدة والحساء واليخنة، التي تقدم للجنود. وهناك إلى جوارها، السيدة العجوز التي سيطرت على المطبخ طوال المــدة الــتي أمضيتها كقاض، تقريبا، وأيضاً فتاتان، الصغرى مــنهن صعدت الدرجات الست عشرة مرة أو مرتين في العام الماضـــي. أشــعر، في بــادئ الأمر، بالخوف من أن الاثنتين ســتتحدان ضــدها، ولكــن لا، يــبدو أنهن وبسرعة أصبحن صــديقات. مجــتازاً باب المطبخ في طريقي للخروج، أسمع، مختــلطا لــدفء الــبخار، أصواتاً، ناعمة، تثرثر، وتضحك. استمتع بتتبع أثر باهت للغيرة في داخلي.

أسألها، أأنت راغبة في العمل؟

أحب الفتيات الأخريات. إنهن لطيفات.

انه على الأقل، افضل من الاستجداء. أليس كذلك؟

نعم .

الفــتيات الــثلاث ينمن معاً في غرفة صغيرة، على مبعدة أبــواب عــن المطبخ، إن لم يكن نائمات في مكان آخر. إنها الغرفة التي تجد هي طريقها إليها في الليل أو في ساعة مبكرة في الصــباح. لا شــك ان صديقاتها قد ثرثرن حول مواعيدها هذه، والتفاصيل كلها في طول ساحة السوق وعرضها.

كـــلما كـــان الـــرجل متقدما فى السن كثر، اعتبر ارتباطه بجنس آخر أكثر غرابة. مثل تشنجات حيوان ميت. فأنا لا اقدر أن ألعب دور رجل حديدى أو أرمل قديس.

ضـــحكات نصـــف مكـــبوتة، دعابات، نظرات تقول بأنها تعرف، هى جزء من ثمن قررت دفعه..

أسألها بحذر، هل تحبين العيش فى البلدة؟

أحـــب ذلـــك فى أغـــلب الأحيان. هناك أمور أكثر يفعلها المرء.

هل هناك أشياء تفتقدينها؟

أفتقد شقيقتى .

أقول، إن كنت حقاً تريدين العودة، سأعمل لتؤخذين .

تقـــول، أؤخـــذ إلى أيـــن؟ . تتمدد على ظهرها وذراعاها موضوعتان على صدرها. أستلقى إلى جوارها، متحدثاً بنعومة. هـــذا هو الموضع الذى يحدث فيه القطع دائماً. هنا حيث يدى تداعـــب بطـــنها، تبدو فيه خرقاء تماماً كسرطان بحر. الدافع الحسي، إن كان هذا ما قد يكون يرتخى، وباندهاش أجد نفسى، متعلقاً بهذه الفتاة البليدة، غير قادر على تذكر أى شيء رغبت به فيها قط، غاضبا على نفسى، لأننى أريدها ولا أريدها.

هى شخصـــيا غافـــلة عن تأرجح مزاجى، لقد بدأت أيامها

تستقر فى سياق رتيب، تبدو فيه مقتنعة. فهى فى الصباح وبعد مغــادرتى، تـــأتى لكنس وتنظيف الشقة. ثم تساعد فى المطبخ لإعــداد طعـــام منتصـــف النهار، ساعات الظهيرة فى الغالب تخصـــها وحدهـــا. بعـــد وجـــبة المساء، وبعد أن تكون كافة الصـــحون والقدور قد كلت والأرضية غسلت والنار أخمدت، تترك رفيفاتها وتأخذ طريقها صاعدة السلم إلى. تخلع ملابسها وتســتلقى على الفراش، فى انتظار ملاطفاتي الغامضة. ربما أجلس بجوارها، مطبطبا على جسدها، منتظراً فورة دم، قد لا تأتى قط بشكل حقيقى. ربما أطفئ المصباح ببساطة وأستقر فى لفــراش بجوارهـــا. فى الظـــلمة، سرعان ما تنسى وجودى وتســتغرق فى الـــنوم. وهكـــذا أتمدد جنب هذا الجسد الشاب الموفــور الصـــحة، بينما يكون فى خلال ذلك، ينسج نفسه فى خلال النوم للحصول على مزيد من القوة، يعمل بصمت، حتى عـــند درجات الضرر الذى لا ينصلح، العينان، القدمان، ليكون سليماً ثانية.

أرمى بذاكـــرتى إلى الوراء، محاولاً استعادة صورة لها كما كـــانت مـــن قبل. على أن أقتنع بأننى لا بد قد رأيتها فى اليوم الذى جلبت فيه من قبل الجنود مربوطة الرقبة إلى رقبة سجين بربرى آخر. أعلم أن نظرتى لابد أن تكون قد مرت عليهـــا، عـــندما جلست مع جمع الأسرى فى ساحة الثكنات، فى انتظار الذى سيحدث فى الخطوة التالية. عيناى عبرتا عليها، ولكننى لا

أحمـــل أى ذكـــرى لذلك العبور. فى ذلك اليوم، كانت ما تزال خاليـــة مـــن العلامـــات. ولكـــن على أن أقتنع بأنها كانت بلا علامـــات، كمـــا على أن أقتنع بأنها ذات يوم كانت طفلة، فتاة صـــغيرة ذات ضفيرة تتدلى من مؤخرة رأسها، تركض خلف حَمَلها المدلل فى عالم حيث أمضيت فى مكان بعيد عنها بخطى واســـعة ريعان حياتى. مجهداً نفسى كما أرغب، تبقى الصورة الأولى التى أتذكرها هى الفتاة الجاثية المستجدية.

لـــم أدخل بها بعد. لم تجرفنى الرغبة ومنذ البداية إلى ذلك الاتجـــاه. إيـــواء عضـــوى الذابـــل لرجل مسن فى ذلك الغمد الساخن، يجعلنى أفكر بمادة حمضية فى حليب، رماد فى عسل، طباشـــير فى خـــبز. عـــندما أتطلع إلى جسدها العارى وإلى جســـدى، أدرك أنـــه من المستحيل أن أعتقد بأننى فى يوم من الأيـــام قد تخيلت الشكل البشرى على شكل وردة تشع من نواة فى منطقة العانة. هذان الجسدان، لها ولى، مسهبان واهيان لا مركز لهما، يبرمان فى لحظة ما حول دوامة هنا، وعند التالية يتخـــثران يثخـــنان فى مكان آخر، ولكنهما فى الغالب راكدان وغيـــر مـــثمرين. لا أعرف ماذا أفعل معها، أكثر مما تعرف سحابة فى السماء أن تفعله مع أخرى.

أرقـــبها وهى تخلع ملابسها. محاولاً أن أعثر فى حركاتها عـــلى إشـــارة مـــا لحالة حرة قديمة. ولكن حتى الحركة التى

تسحب بها ثوبها من أعلى رأسها وترميه جانباً، مبهمة، دفاعية، مفيدة، وكأنما كانت خائفة من الارتطام بعائق غير مرئى. وجهها يحمل نظرة من يعرف أنه مراقب.

من صياد يضع الشراك، اشتريت ثعلباً فضياً صغيراً، لا يتجاوز عمره بضعة شهور، فطم منذ أمد قريب، له أسنان مثل منشار جيد. أخذته هى معها فى اليوم الأول إلى المطبخ، لكنه ذعر من النار والأصوات، وأنا، لهذا السبب أبقيه الآن فى الطابق العلوى، حيث يربض تحت قطع الأثاث. أسمع، فى خلال الليل، أحياناً صوت طقطقة مخالبه على الأرضية الخشبية، حيث يتجول. إنه يلعق من إناء حليب ويأكل فضلات اللحم المطهو. لا يمكن تربيته فى البيوت، فسرعان ما بدأت رائحة فضلاته تنتشر فى الغرف. ولكن الوقت ما زال مبكراً جداً على تسريحه ليتجول فى الساحة. وبين كل بضعة أيام، أنادى حفيد الطباخة ليزحف خلف الخزانة وتحت الكراسى من اجل تنظيف القاذورات.

أقول، إنه مخلوق جميل جداً.

تهز كتفيها، الحيوانات تنتمى إلى العراء.

هل تريدين أن آخذه إلى البحيرة وأطلقه هناك؟

إنك لا تقدر على القيام بذلك، إنه صغير جداً، وهو سينفق جوعاً أو تصيده الكلاب.

وهكــذا يبقى الثعلب الصغير معنا. أرى أحياناً خطمه الحاد يتسلل من خارج زاوية مظلمة. وما عدا ذلك فهو مجرد صوت في الليل، ورائحة نفاذة للبول، منتظراً أن يكبر إلى درجة كافية للتخـــلص منه. سيقول لناس إننى أحتفظ بحيوانين بريين في مسكني، ثعلب وفتاة .

لا تفهم الدعابة، أو أنها لا تعجبها. شفتاها مطبقتان، نظراتها مركزة بقوة على الجدار، أدرك أنها تبذل أقصى ما في وسعها للـــنظر نحـــوى. يميل قلبى إليها، ولكن ماذا بإمكانى أن أفعل؟ فســواء كـــنت مـــرتدياً أرواب عملى المزخرفة، أو كنت أقف عارياً أمامها، أو أمزق صدرى وأفتحه لها، فإننى الرجل نفسه. أقــول، أنـــا آسف ، أبسط خمسة أصابع مجندة وأمسد شعرها بالتأكيد، انه مختلف .

واحد بعد آخر، أقابل أولئك الرجال الذين كانوا في الواجب عـــندما كان لتحقيق يجرى مع السجناء. أحصل من كل و حد منهم على المعلومات نفسها. إنهم نادرا ما تحدثوا مع السجناء، لم يسمح لهم بدخول الغرفة التى كان التحقيق يجرى فيها، وهم غيـــر قادرين على معرفة ما كان يدور هناك. ولكننى أحصل مـــن المـــرأة المسؤولة عن الكنس، على وصف للغرفة نفسها: مجـــرد مـــائدة صـــغيرة، وكرسى بلا مساند، ثلاثة كراسى، وحصـــيرة في الزاوية، وما عدا ذلك، كانت الغرفة عارية من

الأثـــاث... لا، لا نيران، مجرد مجمرة. اعتدت أن أفرغها من الرماد .

والآن والحياة قد عادت إلى طبيعتها، أصبحت الغرفة تحت الاســتعمال مجــدداً. وبناء على طلبى، يسحب الجنود الأربعة الذين كانوا استقروا هناك، خزاناتهم خارجا إلى الرواق، كوموا أمامهم فراشهم، أوانيهم وأكوابهم وفككوا حبال ملابسهم. أوصد الباب وأقف فى الغرفة الخالية. الهواء جامد وبارد. بدأت الآن ميـــاه البحيرة فى التجمد من جهة إلى أخرى. الثلوج الأولى قد تســـاقطت، من بعيد أسمع أجراس عربة حصان. أغلق عينى وأبذل جهداً فى تخيل الغرفة كما لا بد أنها كانت قبل شهرين، فى خلال زيارة العميد. وأجد صعوبة فى الاستغراق مع وجود الشبان الأربعة فى الخارج، يتسكعون، يفركون أياديهم ببعضها، يدقون الأرض بأقدامهم، يدمدمون، وقد نفد صبرهم، فى انتظار خروجى، وأنفاسهم الدافئة تشكل هبات دخان فى الهواء.

أجـــثو على الأرض، لأتفحص أرضية الغرفة. انها نظيفة، وهى تكـــنس يومياً، وهى مثل أرضية أى غرفة أخرى. أرى ســـخاماً فـــوق المصـــطلى، على الجدار والسقف. هناك أيضاً علامــــة بحجـــم كفى حيث تم فرك السخام من على الجدار. ما عدا ذلك فالجدران نظيفة من أى أثر.

أيــــة علامات، باستطاعتى البحث عنها؟ أفتح الباب وأشير

إلى الرجال أن يعيدوا حاجياتهم إلى الغرفة.

في مـــرة ثانية، أستجوب الحارسين اللذين كانا في الو جب في الســـاحة. حدثـــاني بما جرى تماماً عندما تم التحقيق مع السجناء. احكيا ما شاهدتماه شخصياً .

الأطـــول يجيـــب، غلام ذو فك طويل و ذو مظهر متلهف للعمل وقد استحسنته، باستمر ر، لضابط...

ضابط لشرطة؟

نعـــم، كان ضابط الشرطة عتاد لمجيء إلى القاعة حيث احـــتجز السجناء. وكان يشير. وكان علينا جلب لسجناء الذين ُرادهـــم وأخذهـــم إلى الخـــارج للتحقيق معهم. وكان بعد ذلك يعيدهم إلى أماكنهم .

سجين في كل مرة؟

ليس د ئماء أحياناً اثنان .

هـــل تـــدري أن أحد السجناء توفي لاحقا. هل تتذكر ذلك لسجين؟ هل تعرف ماذا فعلوا به؟

سمعنا أنه اهتاج بشدة وهاجمهم .

نعم؟

هذا ما سمعناه. ساعدت في إعادته إلى القاعة، حيث كانو

نـــائمين جميعاً. كان يتنفس بغرابة. بعمق شديد وبسرعة. كان ذلك آخر ما شاهدته منه. فى اليوم التالى كان ميتاً.

واصــــل حديــثك. أنا مصغ. أريد منك أن تحدثنى عن كل شىء يمكنك تذكره .

يـــبدو الإعيـــاء على وجه الغلام. أنا واثق من أنه قد نصح بعدم الكلام. تم التحقيق مع ذلك الرجل مدة أطول من أى واحد آخـــر. رأيته جالساً وحده، في أحد الزوايا، على غرار ما كان عليه فى المرة الأولى، ممسكاً برأسه . ترف عيناه نحو رفيقه. لم يشأ أكل أى شىء. لم يكن جوعانا. كانت معه ابنته. حاولت هى أن تجعله يتناول الطعام ولكنه رفض .

ماذا حدث لابنته؟

استجوبت هى أيضاً. ولكن ليس طويلاً .

استمر .

ولكن لم يكن لديه المزيد لإخبارى.

أقول، اسمع. كلانا يعرف من تكون الابنة. إنها الفتاة التى تقيـــم معى. الأمر ليس سراً. والآن واصل كلامك. احك لى ما حدث .

أنا لا أعرف، سيدى! لم أكن هنا فى معظم الأوقات . يناشد رفيقـــه، ولكـــن رفيقه أبكم أخرس. كانت هناك صرخات فى بعـــض الأوقـــات. أعـــتقد أنهم قاموا بضربها. ولكننى لم أكن

هناك. فأنا أغادر لمكان، حال انتهاء واجبى .

أنت تعلم بأنها الآن لا تقدر على السير. لقد كسروا قدمها. هل فعلوا هذه الأمور أمام الرجال الآخرين، والدها؟

نعم، أعتقد ذلك .

وهـــل تعلم أنها لم تعد قادرة على الرؤية جيداً. متى فعلوا ذلك ؟

سيدى، كان هنالك العديد من السجناء فى حاجة إلى العناية بهم. بعضهم كان مريضاً! علمت أن قدميها كسرتا، ولكننى لم أعـــلم شيئاً عن كونها عمياء إلا بعد وقت طويل. لم يكن هناك مـــا أقـــدر على فعله. أنا لم أشأ أن أكون متدخلا فى مسألة لا أفهمها .

لـــم يكـــن لدى رفيقه ما يضيف. أصرفهما. أقول، لا تخافا لأنكما قد تحدثتما إلى .

يعاودنى الحلم فى الليل. أنا أسير مجهداً عبر سهل ثلجى لا نهاية له متوجهاً نحو شخوص بشرية ضئيلة تلعب حول قصر مـــن الثـــلج. وبينما أقترب منهم، يبتعدون جانباً أو يذوبون فى الهواء. شخص واحد يبقى فى المكان. طفلة ذات معطف بقبعة، تجـــلس مديـــرة ظهرها لى. أحوم حول الفتاة، التى تستمر فى التربيت على الثلج، على جوانب القصر، حتى أقدر على التطلع إلى مـــا تحت القبعة. لوجه – الذى أراه – فارغ، بلا ملامح،

إنـــه جنينٌ، أو حوت صغير جداً، إنه ليس بوجه على الإطلاق ولكـــنه جزء من جسم إنسان، ذلك الذى يبرز من تحت الجلد، انـــه أبيض اللون، إنه الثلج نفسه. أقدّم، من بين أصابع خدرة، قطعة من نقود.

* * *

الشـــتاء ترسـخ فى البلدة. تهب الريح من الشمال، وستبقى تهب دون انقطاع فى الأشهر الأربعة القادمة. واقفاً أمام النافذة وجبهـتى عـلى الـزجاج البارد، أسمعها تصفر فوق أفاريز الأسـطح، رافعة ومسقطة آجرة مقلقة. تتعاقب هبات من تراب عبر الساحة، يضرب التراب بسرعة وتكرار جوانب الأشياء. السـماء ممتلـئة بـتراب ناعم، الشمس تنزلق عالياً فى سماء بـرتقالية وتغيب فى أحمر- نحاسى. هناك بين آونة وأخرى، هبات من الثلج ترقش الأرض - فى وقت قصير - بالبياض. حصـــار الشـــتاء مستمر. الحقول خالية، لا أحد يمتلك مبرراً لـــلذهاب خارج أسوار البلدة، ما عدا قلة من الذين يعتمدون فى معيشـــتهم عـــلى الصيد. عُلق استعراض الحامية، مرتين فى الأســبوع. مُـــنح الجنود إجازة لمغادرة الثكنات، إن رغبوا فى ذلـــك، والعيـــش فى البلدة، لأن هناك القليل مما يعملونه غير الشـــرب والـــنوم. عندما أذرع الأسوار، فى ساعة مبكرة من الصباح، أجد أن نصف مواقع الحراسة خالية والحراس نائمون

فى خلال و جبهم، ملتفون بالفراء، يجهدون أنفسهم لرفع أيديهم بالـتحية. وسـواء بالنسـبة لهم، ان مكثوا فى فراشهم. إذ إن الإمـبراطورية تكـون آمنة خلال الشتاء. وخارج نطاق أعين الـبرابرة أيضـاً، المزدحمون حول مواقدهم، يصرون أسنانهم تجاه البرد.

لـم يكـن هـناك زوار بربريون خلال هذا العام. كان من المعتاد أن تقوم مجموعات من البدو الرحل بزيارة المستوطنة فى الشـتاء وأن تقيـم خيامهـا خارج الأسوار وترتبط بالبيع والشـراء، مقايضـين الصـوت، الجلود، اللباد، المصنوعات الجـلدية مقابل بضائع قطنية، شاى، سكر، فاصولياء، طحين. نحـن نثمن المصنوعات الجلدية للبرابرة وعلى الأخص الحذاء (المـتين) بالسـاق الطويـلة. الذى يخيطونه. شجعت أنا فى الماضى التجارة، ولكننى منعت الدفع نقدا. كما حاولت أن أبقى الحانـات والخانات مغلقة بالنسبة لهم. وفوق كل شىء لا أريد أن أرى مسـتوطنة طفيلية تنمو فى أطراف البلدة، يعيش فيها المتسولون والضالون مستعبدين لمشروبات قوية... كان يؤلمنى فى الزمن السالف، رؤية هؤلاء لناس وهم يقعون ضحايا لمكر الباعة من أصحاب الدكاكين، يقايضون بضائعهم بأشياء تافهة، يستلقون. سكارى فى أقنية البالوعات، معززين بذلك ابتهالات المستوطنين المتحاملة عليهم، عن أن البرابرة كسالى، فاسدون، قـذرون، بليدون. حيث إن الحضارة كانت خلف إفساد فضائل

البرابرة وخلق أناس من الطفيليين، قررت مقاومة الحضارة، وعلى هذا القرار، اعتمدت فى قيادة إدارتى. (أقول هذا، أنا الذى يحتفظ بفتاة بربرية فى سريرى الآن).

ولكن ستاراً سقط. فى هذا العام على طول الحدود. نحدق إلى الخلف من وراء متاريسنا، نحو الأراضى القفر. لأن كل ما نعرفه أن عيوناً أمضى من عيوننا تتطلع بالمقابل. التجارة وصلت إلى نهايتها. ومنذ أن وصلت الأنباء من العاصمة عن أن أى إجراء، مهما كان، يجب اتخاذه، من أجل حماية الإمبراطورية، دون أى اعتبار للثمن، عدنا إلى عهد الغزوات والاحتراس المسلح. ليس هناك شىء نفعله غير الاحتفاظ بسيوفنا لامعة، نراقب وننتظر.

أمضى وقتى فى وسيلتى القديمة للاستجمام، أقرأ الأعمال لكلاسيكية. أواصل تصنيف مجموعاتى المتعددة. أقارن بين ما عندنا من خرائط إقليم الصحراء الجنوبية. وفى الأيام التى لا تكون فيها الريح قارسةٍ بشدة، آخذ مجموعة من الحفارين إلى العراء لتنظيف الحُفَر فى الكثبان الرملية، وأسافر، مرة أو مرتين، وحدى، وفى ساعة مبكرة من الصباح لصيد الظباء على طول الخط الموازى للبحيرة.

كانت هناك، قبل جيل مضى، أعداد غفيرة من الظباء والأرانب الوحشية بحيث كان يتعين على عدد من الحراس

وكلابهم حرسة الحقول فى دوريات أثناء الليل، من أجل حماية الحـنطة فى بدء موسم نموها. ولكن وتحت ضغط المستوطنة؟ بــالأخص من كلاب برية والصيد بوفرة، تراجعت الظباء إلى الخـلف، نحو الشرق والشمال، نحو منحدرت النهر والشاطئ البعيد. وعلى الصياد ليوم أن يكون مستعدا للسفر راكباً مسافة ساعة على الأقل قبلى أن يتمكن من مطاردة فريسته.

فى بعــض الأحيــان، وفى صباح مناسب، يتاح لى أن أستعيد كــل طاقــة وخفــة وحركة مرحلة شبابى. مثل طيف، نحدر من أجمــة إلى أجمة. منتعلاً حذائى طويل الرقبة المزيت بزيت عمره ثلاثــون عامــاً. أخوض عبر مياه متجمدة. أرتدى فوق معطفى، ردائى الكــبير من جلد الدب. تتشكل قشرة من الجليد على لحيتى، ولكــن أصابعى تكون دافئة داخل قفازيها. عيناى هادئتان، سمعى قوى، أُشم لهواء مثل كلب صيد، أحس بمتعة خالصة.

اترك حصانى اليوم مقيداً حيث ينتهى حد حشائش المستنقع عــند الســاحل الجنوبى الغربى الأجرد، وأبدأ فى شق طريقى عبر حُزَم أدغال القصب. الريح تهب قارسة وجافة عمودية فى عيــنى، الشــمس معــلقة مثل برتقالة فى أفق مخطط بالأسود والأرجوانى. وفى الحال تقريباً، وبحظ جيد غير معقول، أفاجأ بظــبى ماء، كبش بقرون ثقيلة ملتوية، أشعث بردائه الشتوى، واقــف على طريق جانبىّ، يتأرجح وهو يمدد جسده للقفز فوق

أعـــالى القصـــب، ومـــن مسافة تقل عن ثلاثين خطوة، أرى اســتكانة حركة شدقيه الدائرية، أسمع طرطشة حوافره، وأميز حول مفاصله دوائر من حبات الجليد.

أنـــا بالكاد تناغمتُ الآن مع ما يحيط بى، ومع ذلك ، وبينما لكبش يرفع نفسه، طاوياً قائمتيه الأماميتين تحت صدره، أستل البـــندقية عالياً وأوجه خلف كتفه. الحركة هادئة وثابتة، ولكن ربمـــا الشمس ومضت على ماسورة البندقية، لأنه فى ارتفاعه، يدير رأسه ويرانى. حوافره تلامس الجليد بتكتكة، يتوقف شدقاه فى منتصف حركتهما، نتطلع إلى بعضنا البعض.

لا يتســـارع نبضى: بوضوح، موت الكبش، أمر غير مهم بالنسبة لى.

يمضـــغ ثانيـــة بمنجل واحد فى إحدى فكيه، ويتوثب. فى هدوء الصباح التام، أكتشف عاطفة غريبة متوارية خلف حافة وعيى. والظبى أمامى معلق فى جموده، يبدو ان هناك وقتاً لكل الأشـــياء. وقتا كافيا لإدارة نظرتى المحدقة إلى داخلى لأفهم ما هـــو الشيء الذى سلب القنص لذته: الإحساس بأن هذا لم يعد قنصـــاً صباحيا، ولكنها مناسبة إما أن يكون الظبى المتغطرس فيهـــا نازفـــاً حـــتى الموت على الجليد، وإما أن يخسر الرجل العجـــوز هدفـــه. ذلك أنه بسبب امتداد هذه اللحظة المتجمدة، انحبســـت الـــنجوم فى ترتيب تصبح فيه الحوادث ليست نفسها

ولكــنها ترمز لأشياء أخرى. تحت ستارى التافه أقف محاولاً نفى هذأ الإحساس المثير والخارق للطبيعة، حتى يستدير الظبى وبخفقة من ذيله، وطرطشة قصيرة بحوافره يختفى بين القصب العالى.

أسير مجهداً بلا هدف لمدة ساعة قبل أن أعود راجعاً.

لـــم يتملكنى من قبل قط إحساس بعدم عيش حياتى الخاصة بحسب شروطى لخاصة .

أقول للفتاة جاهداً فى شرح ما حدث. إنها مضطربة بحديث مـــثل هــذا، أبــدو كأنـــنى بذلك المطلب، أريد إكراهها على الاستجابة. تقول، أنا لا أفهم ، تهز رأسها.

ألم ترد إطلاق النار على الظبى؟

يمتد الصمت بيننا مدة طويلة.

تقول بثبات، إن كنت تريد أن تفعل شيئاً، افعله ، إنها تبذل جهداً كى تكون واضحة. ولكنها ربما تعنى إن كنت قررت أن تفعلـــه، كـــان عـــليك أن تفعله . فى اللغة البديلة المؤقتة التى نتقاسمها، لا توجد فوارق دقيقة فى المعنى. ألاحظ ان لها ميلاً لـــلحقائق، للأقـــوال العملية، لا تحب الخيال ، الأسئلة، التأمل، نحن زوجان غير منسجمين. ربما أنها الطريقة التى ينشأ عليها أطفـــال البرابرة: استظهار من غير فهم، بواسطة الحكمة التى تعود إلى الآباء والتى تسلم للأبناء.

أقول، أنت، هل تفعلين كل ما تريدين؟ لدى إحساس بأننى قد أطلقت العنان لنفسى، منسحباً بالكلمات إلى مسافة خطرة.

هل أنت هنا فى لفراش معى لأنه الشيء الذى تريدينه؟

تستلقى عارية، بشرتها المزينة تتقد ذهباً نباتياً تحت وهج النار. هناك لحظات – أشعر ببداية واحدة منها الآن– عندما تكون الرغبة التى أحس تجاهها، غامضة عادة، تترجرج فى شكل أقدر على إدراكه. تهتاج يدى، تركت عليها، تكيف نفسها مع محيط ثديها.

إنها لا تجيب عن سؤالى، ولكنى أغوص فيه، محتضنا إياها بشدة، متحدثا بصوت أجش ومكتوم فى أذنها: تعالى، اخبرينى لماذا أنت هنا .

لانه لا يوجد مكان آخر أذهب إليه .

ولماذا أريدك أنا هنا ؟

تتلوى فى قبضتى، تطبق يدها بين صدرها وصدرى. أنت تريد أن تتكلم طوال الوقت ، تتذمر. بساطة اللحظة تنقضى، نفترق ونستلقى بصمت جنباً إلى جنب. أى طير يمتلك قلبا ليغنى فى أيكة من أشواك؟ عليك بعدم الذهاب إلى الصيد إن كنت لا تستمتع به .

أهز رأسى، ذلك ليس مغزى الرواية، ولكن ما فائدة النقاش؟

أنـــا مـــثل مدير مدرسة غير كفء، أتصيد بكلاب التسالى(*)، بينما يتوجب على أن املأها بالحقيقة..

تتكلم، إنك باستمرار تسألنى ذلك السؤ ل،، لهذا سأحكى لك الآن. كـــانت شوكة، شوكة من ذلك النوع الذى له سِنان. كانت هناك عقد صغيرة فوق السن كى تجعلها مثلومة. يضعونها فى الفحـــم حـــتى تحـــمى. ثم يلمسونك بها، ليحرقوك، لقد رأيت العلامات فى المكان الذى قاموا فيه بحرق الناس .

هـــل هـــذا هو السؤال الذى وجهته؟ أريد أن أحتج ولكننى عوضًا أستمر فى الإصغاء، مقشعراً.

انهم لم يحرقونى، لكنهم قالوا بأنهم سيحرقون عينى، لكنهم لـــم يفعلوا. قربها الرجل جدا من وجهى وأرغمنى على لنظر إليها. أمسكوا بجفنى مفتوحين ولكن لم يكن لدى ما أخبرهم به. كان ذلك كل شىء.

كـــان ذلـــك عندما حدث لضرر. بعدها لم أعد قادرة على الإبصار جيداً. كانت هناك لطخة فى منتصف أى شىء أتطلع إليه. بإمكانى رؤية ما حول الحافات. إنه أمر يصعب شرحه.

(*) لتســـالى: خـــاص بالطـــريقة لسقراطية القائمة على توجيه الأسئلة لمتعاقبة أو شبيه بهذه الطريقة.

ولكـــنها تتحسن الآن. العين ليسرى أصبحت أفضل. ذلك كل شيء.

أتناول وجهها بين يدى وأتفرس فى مركزى عينيها الميتتين، اللـــتين تـــنعكس عـــنهما صـــورتين مماثلتين لى تتطلعان بكآبة بالمقابل. وهذا؟ أقول، متلمساً الأثر الدودى الشكل فى الزاوية.

ذلـــك لا شـــىء. ذلـــك حيـــث مسنى الحديد. أحدث حرقة صغيرة . انه غير مؤلم . تبعد يدى جانباً.

ماذا تحسين تجاه الرجال الذين فعلوا هذه؟

تســتلقى مفكــرة مــدة طويلة. ثم تقول: أنا قد سئمت من الكلام .

* * *

هـــنالك أوقـــات أخرى عندما أعانى من نوبات غيظ تجاه عبوديـــتى لطقوس التزييت والدلك، النعاس، السقوط فجأة في اللاوعى. أتوقف عن إدراك أى سعادة استطعت اكتشافها يوماً فى عـــنادها، وفى فتور جسدها، بل اكتشفت فى داخلى دوافع لـــلازدراء. أصبحت منطوياً على نفسى، سريع الغضب. تدير الفتاة ظهرها وتستغرق فى النوم.

فى الحالة النفسية هذه، أقوم فى إحدى الأمسيات، بزيارة إلى غرف الطابق الثانى من الفندق،

وبينما أنا أصعد السلم الخارجى الواهن، يمر بى رجل مسرعا وهو يوارى وجهه. أطرق على الباب الثانى فى الممر وأدخل. الغرفة هى نفسها، كما أتذكرها: السرير مرتب بإتقان، الرف الذى فوقه، مرصوصة عليه الألعاب والدمى، شمعتان مضيئتان. وهج من الدفء منبعث من مسرب أنبوب الهواء الساخن الممتد على طول الجدار، رائحة زهر البرتقال فى الجو. الفتاة نفسها مشغولة أمام المرآة. تجفل لدخولى، لكنها تنهض مبتسمة مرحبة بى ثم تدير رتاج الباب. لا شىء يبدو أكثر طبيعيا من إجلاسها على السرير والبدء بخلع ملابسها. تساعدنى هى فى تعرية جسدها الرشيق، مع قليل من حركات اللامبالاة والتلوى. تتنهد، كم اشتقت إليك! وأهمس، يا لها من بهجة أن أعود! ويالها من بهجة أن يكذب عليك بمثل هذا الإطراء! أحتضنها، أدفن رأسى فيها. أتيه فى تهيجها الناعم كعصفورة. جسد الفتاة الأخرى، مغلق، ثقيل، نائم فى سريرى فى مكان بعيد، يبدو عصيا على الفهم. لا أقدر أن أتصور الآن ما الذى جذبنى إلى ذلك الجسد الغريب، وأنا منشغل بهذه المتع الرقيقة. ترتعش الفتاة بين يدى، تلهث، تصرخ عند وصولها إلى الذروة. مبتسما بجذل، منزلقا إلى نوم جزئى متراخ، يخطر لى أننى لا أتمكن حتى من تذكر وجه الأخرى. أقول لنفسى، انها ناقصة! على الرغم من أن الفكرة تبدأ بالعوم بعيداً، فإننى أتشبث بها. تراودنى صورتها مغلقة العينين ووجهها المتكتم

المغـــطى بطـــبقة رقيقة من الجلد. فارغ مثل قبضة تحت شعر مســـتعار أسود. يبرز الوجه خارجا عن الرقبة وخارج الجسد الفـــارغ تحـــته، ارتعد فجأة من ردة فعل قوية وأنا بين ذراعى أنثاى – العصفورة الصغيرة. أضمها إلى.

فى وقـــت متأخر من منتصف الليل، عندما أحرر نفسى من ذراعيها، تتذمر ولكنها لا تستيقظ. أرتدى ملابسى فى الظلمة، أغـــلق لباب ورائى، أتلمس طريقى هابطاً السلم، أعود مسرعاً إلى الـــبيت و لثـــلج ينسحق تحت قدمى بقرقشة وريح زمهرير تحفر فى ظهرى.

أشعل شمعة وأنحنى فوق الشكل الذى ، أنا كما يبدو مستعبد منه بدرجة ما. أتحسس بخفة خطوط وجهها بأطراف أصابعى. أتلمس جفنيها، فكيها الواضحين، عظمتى وجنتيها المرتفعتين، لفم الواسع. أتلمس برقة جفنيها. أنا واثق من كونها مستيقظة، على الرغم من أنها لا تشى بعلامة ما.

أغـــلق عيـــنى. أتنفس بعمق لتهدئة تهيجى، وأحصر ذهنى تمامـــاً فى رؤيتها عبر أصابعى المعتمة. هل هى جميلة؟ الفتاة التى فارقتها قبل قليل، الفتاة التى ربما (أدرك فجأة) أنها ستتشم رائحـــتها منى، جميلة جداً، لا جدال فى ذلك: حدة نشوتى معها ازدادت بـــتأثير قوامها الدقيق، أسلوبها، حركتها. وأما بالنسبة لهـــذه الفتاة فلا يوجد شىء أقوله عنها بكل ثقة. لا توجد صلة

يمكن أن ُحددها بين أنوثتها ورغبتى. لا أستطيع حتى أن أقول متأكداً إننى أرغب فيها. كل هذه التصرفات الحسية الخاصة بى غيـــر مباشرة: أجوس حولها، متلمساً وجهها، مد عباً جسدها، دون أن أدخل بها، أو أجد لحظة و حدة لاستنطاق شهوتى: إن أر غـــب فيهـــا كـــان يعنى احتضانها و لدخول بها، أن أخترق ســـطحها وأهز هدوءها لداخلى فى عاصفة من لنشوة. ثم إن أنسحب، أن ُخمد فى انتظار أن تشكل لرغبة نفسها من جديد. ولكـــن بالنســـبة لهذه المرأة وكما يبدو، فلا مدخل لها، مجرد سطح أجوس فيه ذهابا و يابا باحثاً عن مدخل. هل هذا ما شعر بـــه مـــن قـــاموا بتعذيبها صيداً لإسرارهم، أيا كان ذلك الذى يعـــتقدونه؟ أحس وللمرة لأولى بشفقة متحفظة تجاههم، كم هو خطـــأ فطـــرى أن تصدق أنك تقدر أن تحرق أو تمزق أو أن تفرض سبيلك إلى داخل الجسد المتكتم لآخر! الفتاة مستلقية فى فراشـــى، ولكن لا يوجد سبب مقنع لماذا يتوجب أن يكون هذا فر شـــا . أتصـــرف أنا فى بعض لحالات مثل عاشق – أخلع عـــنها ملابســـها، أحممهـــا، امسدها، أنام بجوارها – ولكننى بالدرجـــة نفسها تماما، ُقدر على ربطها إلى كرسى وضربها، ولن يكون ذلك الأمر أقل حميمية.

الأمـــر ليـــس ُن شـــيئاً ما حاصل فى مجرى ما يحدث لى و لـــذى يحدث لبعض الرجال فى سن معينة. تطور عكسى من فســـق إلى أفعـــال انتقامية لتوق عقيم. ِن كان تغيير ما قد بدأ

يحـــدث فى السلوك الأخلاقى لكينونتى، فإننى كنت سأحس به. ولا كـــنت قد خضت تجربة هذا المساء المجددة للطمأنينة. أنا الرجل عينه الذى كنته دائما، ولكن الزمن قد تهشم، شىء ما قد سـقط مـــن الســماء فوقى، بشكل عشوائى، من لا مكان: هذا الجســد فى فراشـــى، الذى أتحمل مسئوليته أنا، أو هكذا يبدو الأمـــر، وإلا فلماذا أقوم بالاحتفاظ به؟ أنا ببساطة مرتبك، فى الـــزمن الراهن وربما إلى الأبد. يبدو الأمر سواء إن استلقيت عـــلى الفراش بجانبها واستغرقت فى النوم، أو إن طويتها فى داخل ملاءة ودفنتها فى الثلج. ومع ذلك، منحنياً عليها، متلمساً جبهتها بأطراف أصابعى، أكون حذراً أن لا أدلق نوبة غضبى.

* * *

ســـواء أتحزر هى أين كنت أنا، فذلك شىء لا أقدر أنا البت فيـــه، ولكـــن فى الليلة التالية، عندما استكنت للنوم تقريباً عبر تـــناغم مع التزييت والتدليك، أحس أن يدى أبقيت وأحتفظ بها، ووجهت إلى تحت بين ساقيها. تستقر برهة على أنوثتها، أرج بعدئذ المزيد من الزيت الدافئ على أصابعى وأبدأ فى مداعبتها. يـــتجمع الـــتوتر فى جسدها، تتقوس وترتعد وتدفع يدى بعيداً. أستمر فى تدليك جسدها حتى أسترخى أنا أيضاً ويستولى على النوم.

لا أجـــد أى إثارة فى هذا العمل الأكثر تعاوناً الذى قمنا به

حتى الآن. إنه لا يقربنى منها أكثر ويبدو أنه يؤثر فيها بعض الشـــىء. ستكشـــف وجهها فى الصباح التالى: إنه بلا تعبير. تـــرتدى ملابســـها وتمشى مرتبكة نازلة إلى عملها اليومى فى المطبخ.

ُنا قلق. ماذا يتوجب على ن أفعله من ُجل إثارتها؟ هذه هى لكـــلمات التى ُسمعها فى أذنى فى دمدمات خفية و لتى قد بـــدأت تـــأخذ مكان المحادثة بيننا. ألن يثيرك أحد؟ وبانتفالة رعـــب أرى لجواب الذى كان منتظرا طوال الوقت يقدم نفسه لى فى صورة لوجه مستتر بواسطة عينين سوداوين زجاجيتين حشـــريتين، لا تـــجىء مـــنها نظـــرة متبادلة، ولكن صورتى المتضاعفة فقط مرتدة نحوى.

أهز رأسى بضراوة لإنكار. لا! لا! لا! ُصرخ لنفسى. إنه أنـــا الـــذى أضـــلل نفســـى، بدافـــع لفراغ. نحو هذه المعانى والتطابقات. أى فساد هذا الذى يزحف على. أبحث عن أسرار وإجابات مهما تكن غرابتها، مثل امرأة عجوز تقرأ فى أوراق الشاى. لا يوجد شىء يربطنى بأولئك الذين يمارسون التعذيب. أنـــاس يقـــبعون منتظرين مثل خنافس فى ُقبية مظلمة. كيف يمكننى ُن ُعتقد أن الفراش هو أى شىء ما عدا فراش، جسد امرأة هو ُى شىء ما عدا موضع للابتهاج؟ يجب على أن أؤكد على بعدى عن العميد-جول! لن أعانى أنا بسبب جرائمه!

* * *

أبدأ بزيارة الفتاة في الفندق بانتظام. هناك لحظات في خلال الـــنهار، في مكتـــبي خـــلف قاعة المحكمة، يهيم فيها انتباهي وأنجـــرف مـــع أحلام يقظة حسية، أزداد سخونة وانتفاخاً بل باهـــتياج، أتريث فوق جسدها مثل شاب حالم شهواني، ثم على مضض يتوجب على استعادة نفسي إلى ضجر أوراق العمل أو أســـير نحو النافذة وأحدق في الشارع، أتذكر كيف أنني اعتدت في لأعـــوام الأولى لتعيينـــي هنا، التجوال في الأحياء الغريبة للبـــلدة وقت الغسق، مظللا وجهي بمعطفي الواسع. وكيف في بعـــض الأحـــايين، إن زوجـــة قلقة، تميل على الباب المفتوح جـــزئياً، ونيران الموقد يلتمع من خلفها، تستجيب لنظرتي دون أن تحجم، وكيف كنت أشرع في محادثة مع فتيات شابات يقمن بنزهة اثنتين.. اثنتين أو ثلاث، اشترى لهن (الشربت)(*)، وقد أقـــود بعدئـــذ واحدة بعيداً في الظلام إلى مخزن الحبوب القديم وفراشي من الأكياس. إن كان هناك شيء يمكن إن يحسد عليه في وظيفـــة عـــلى الحـــدود، أخـــبرني أصدقائي، فهو السلوك الأخـــلاقي العفوي للواحات. أمسيات الصيف العطرة الطويلة، ليـــن جـــانب نسائهن فريدات الأعين. لبست لعدة أعوام مظهر خنزير بري وافر الصحة جدير للفوز بجائزة ما. بعدئذ تعدلت تـــلك الاتصـــالات غير الشرعية إلى علاقات أكثر تحفظاً مع

(*) شربت (Sherbet): شراب مثلج يعد من عصير الفاكهة المحلي.

مدبرات منازل وفتيات أقمن أحياناً فى مكان إقامتى فى الطابق العــلوى، ولكــن فى الغــالب، فى الطابق الأرضى بمساعدة المطبخ، والى علاقات مع فتيات يقمن في الفندق. اكتشفت أننى احــتجت إلى لنساء بصورة قل تكراراً عن ذى قبل. أمضيت وقــتا أطــول مهــتما بعملى، هواياتى، جمع الآثار، ورسمى للخرائط.

ليس ذلك فحسب: كانت هناك مناسبات غير مستقرة، عندما، فى منتصف لفعل الجنسى، كنت أحس بأننى أضل طريقى مثل راوى قصــة يضــيع مــنه طرف خيط قصته. تذكرت برجفة شخوص الفكاهة أولئك، رجال سمان مسنون تتوقف عن النبض قلوبهم المثقلة بأكثر مما تتحمل، الذين يفارقون الحياة بين أذرع حبيــباتهم مع اعتذار على شفاههم ويتم نقلهم إلى الخارج كى يــلقوا فى زقــاق معتم من أجل انقاذ سمعة الدار. ذروة الفعل نفسها غدت نائية، ضئيلة، شيئاً غريباً. في بعض الأحيان كنت أســاق إلى وقفة، وأحياناً كنت أمضى آلياً حتى النهاية. وكنت لمــدة أســابيع وشــهر أتقاعد متبتلا. البهجة القديمة فى دفء أجساد النساء وجمالها لم تخذلنى، ولكن كان هنائى لغز جديد. هــل أريــد أنا حقا أن أدخل وأن أدعى امتلاك هذه المخلوقات الجميــلة؟ الرغبة كما تراءت تجلب معها شجن البعد والفراق والذى كان من العبث إنكاره. ولا أستطيع أن افهم دائماً السبب الــذى بجعــل مــن جزء وحد من جسدى، بتوقه غير المبرر

ووعـوده المزيفة، يتوجب الاهتمام به أكثر من أى جزء آخر كمجـرى للرغبة. يتراءى لى فى بعض الأحيان، أن ذكورتى هى كـائن آخر تماما، حيران غبى يعيشٍ متطفلاً علىّ، ينتفخ ويتضاءل بحسب شهيته لمستقلة، مرتكزا إلى جسدى بمخالب لا أسـتطيع فكها. لماذا يتحتم على حملك هنا وهناك من امرأة إلى امـرأة، سألت أنا: أببساطة لأنك قد ولدت من غير ساقين؟ هل يعنى لأمر أىٍ اختلاف بالنسبة إليك ان كنت قد زرعت فى قطة أو كلب بدلاً من فىّ؟

هـنالك مـع ذلـك أوقات أخرى، وعلى الأخص فى العام الماضـى مـع فتاة تكنى كببا فى لفندق باسم النجمة، ولكننى فكـرت فيها على الدوام كأنها عصفورة، وقتها أحسست مجدداً بـالقوة المألوفـة للسـحر الحسى، انزلقت بعيداً فى جسدها، وانتقلت إلى الحدود السابقة للمتعة. وهكذا فكرت: إن الأمر لا يعـدو كونه مسألة عمر، دورات الرغبة وفتورٍ الإحساس فى جسد والتى تبرد وتموت بتباطؤ. عندما كنت شاباً، كانت مجرد رائحـة امرأة تثيرنى، واليوم وبوضوح، لا تمتلك تلك القوة إلا جملهن وأصغرهن وأحدثهن، وسوف يكون الأمر فى يوم من هـذه الأيـام أولاداً صـغاراً. نظرت ببعض النفور قدما إلى أعوامى الأخيرة فى هذه الواحات المعطاء.

الآن ولـثلاث ليال متتاليات، أزورها فى غرفتها الصغيرة،

حــاملاً هدايــا مــن زيت كانانغا، حلوى، وجرة من البطارخ المدخــنة، الــتى أعرف أنها تحب التهامها علي نفراد. تغلق عيــنيها عندما أحتضنها: مرتعشة لما يبدو فرحاً يجتاح كيانها. تحــدث لصديق الذى زكاها لى قائلاً عن مواهبها: الأمر كله تمثيل بطبيعة لحال، ولكن الاختلافات فى حالتها هو أنها تؤمن بــالدور الــذى تقوم به. بالنسبة لى، اكتشفت أننى غير مهتم. مأســورا بأدائهــا، فُــتح عيــنى فى منتصــف كل الاهتياج والارتعاش و لتأوه، ثم أغرق فى النهر لمظلم لمتعتى لخاصة. أمضيت ثلاثة أيام فى تراخ حسى، مثقل الجفنين، مستغرقاً فى أحلام اليقظة. أعود إلى مكان إقامتى بعد منتصف لليل وأنزلق إلى لفــراش، غير مبد أى اهتمام بالشكل المسترسل فى عناده والــراقد بجــوارى. وفى الصــباح، إن استيقظت على صوت استعداداتها، فإنى أتظاهر بالنوم حتى تكون قد ذهبت.

حــدث ذات مرة و نا أجتاز باب المطبخ المفتوح، أن ألقيت نظرة إلى الداخل. ومن خلال أعمدة الدخان، والبخار، أرى فتاة قصــيرة ممتلئة الجسم جالسة عند مائدة تهيئ الأكل. أفكر فى نفســى بدهشــة، أنــا أعرف من تكون تلك ، ومع ذلك، فإن الصــورة الــتى بقيت تلح فى ذكرتى وأنا أعبر لساحة، هى مــنظر كومة القرع الأخضر ُمامها على المائدة. أحاول وبتأن أن أنقل النظرة التى تكونت فى الذكرة من القرع ثم إلى اليدين اللــتين تقطعانــه ومن ليدين إلى الوجه. أعثر فى نفسى على

نفور ومقاومة. يبقى اهتمامى منحصراً بانبهار فى القرع، وفى ومضـــة النور على قشرتها المبللة. لا تتحرك الصورة وكأنما بـــإرادة مـــنها. وهكذا أبدأ فى مواجهة حقيقة ما أنا أحاول أن أفعلـــه، أدرك أننى إن تناولت قلما لتخطيط وجهها فلن أعرف من أين أبدأ، هل هى حقاً بلا ملامح إلى هذا الحد؟ أركز بجهد تفكيـــرى فيها. أرى شكلا يرتدى قبعة ومعطفاً ثقيلاً لا شكل له واقـــف بشـــكل مقلقل، منحن نحو الأمام، مباعد الساقين، يسند نفســـه بعكـــازين. كم هو قبيح، أقول لنفسى بشكل فمى الكلمة البشعة. أنا مندهش للأمر، ولكننى لا أقاوم: إنها قبيحة، قبيحة.

أعـــود فى الليـــلة الرابعة بمزاج سيئ، أضرب فى أرجاء شقتى بصوت عال، غير مهتم بمن هو صاح كان المساء فشلاً فتيار الرغبة المتجدد قد توقف. أرمى حذائى العالى الرقبة على الأرض وأصـــعد إلى الفراش، راغباً فى شجار، أتوق إلى من ألومه، خجلاً أيضا من صبيانيتى. غير قادر على فهم ما الذى تفعلـــه هذه المرأة التى تجاورنى فى حياتى. فكرة لمتعة التى وصـــلت إليهـــا عبر جسدها الناقص، تملؤنى باشمئزاز متحفظ ســـاخر، وكأنـــنى أمضيت ليلى أجامع دمية من قش وجلد. أى شـــيء رأيته منها فى أى وقت مضى؟ أحاول أن أتذكرها كما كـــانت مـــن قـــبل أن يـــبدأ معالجو الألم تقديم خدمتهم. الأمر مســـتحيل لأن نظرتى لم تعبر فوقها وهى جالسة مع البرابرة الآخرين، فى اليوم الذى جلبوا فيه إلى المكان. أنا مقتنع أنه فى

مكان ما فى دماغى الملىء بالثقوب، شىء مودع، ولكننى غير قـادر عـلى استعادته. أقدر على تذكر المرأة مع الطفل، بلى وحـتى الطفـل نفسه. أقدر على تذكر كل التفاصيل: الحاشية الـبالية للشـال الصوفى، غشاء العرق تحت خصلات الشعر الجميـل لـلطفل. أقدر على تذكر الأيدى الناتئة العظام للرجل الـذى مـات، أعتقد أننى حتى قُدر، بجهد، على إعادة تشكيل وجهـه. ولكـن هناك إلى جانبه حيث يتوجب أن تكون الفتاة، فراغ، فسحة خالية.

أصـحو فى الليل والفتاة تهزنى وصدى أنين خافت ما زال عالقـاً فى الجـو. تقـول، كنت تصرخ فى خلال نومك. لقد أيقظتنى .

بماذا كنت أصرخ؟

تدمدم بشىء ما، تدير ظهرها نحوى.

فى ساعة متأخرة من الليل، توقظنى ثانية: كنت تصرخ .

أحـاول، وأنـا مـثقل الـرأس، مرتبكا وغاضباً أيضا، أن استكشـف ما فى داخلى، ولكننى لا أبصر غير دوامة فى قلب دوامة النسيان.

تقول: أهو حلم؟'

لا أستطيع أن أتذكر أى حلم .

هل الأمر أن حلم الطفلة ذات القبعة التى تبنى قصر الثلج قد بـــدأ يعاودنى؟ إن كان الأمر كذلك، فلابد أن نكهة أو رائحة أو انعكاسات منه ستتخلف معى.

أقول، هناك شيء أريد أن أسألك. هل تتذكرين اليوم الذى جلــبت فيـــه إلى هنا، إلى ساحة الثكنات؟ لقد أرغمكم الحراس عـــلى الجـــلوس عـــلى الأرض. أيـــن جلست؟ أى جهة كنت تواجهين؟

أتمكن عبر النافذة من أن أرى خطوطاً من غيوم تعبر وجه القمـــر، مـــن خلال الظلمة وهى بجوارى، تقول، لقد جعلونا نجلس سوياً فى الظل. كنت إلى جوار والدى .

أســتجمع صـــورة والدها. أحاول فى صمت أن أعيد خلق الحـــر الشـــديد، الغبار، رائحة كل تلك الأجساد المتعبة. أجلس الســجناء فى ظـــل جدار الثكنات، واحداً بعد واحد، أقدر على تذكـــر كـــل شـــىء. أضع المرأة مع الطفل، شالها الصوفى، صدرها العارى. الطفل يبكى، أسمع النحيب، إنه متعب جداً إلى حـــد أنه غير قادر على الشرب. الأم متسخة بالوحل، عطشى، تـــنظر إلى، حائرة فيما إن كنت قادراً على تقديم مساعدة لها. يليها شكلان ضبابيان. ضبابيان، لكنهما حاضران: أعرف ذلك مـــن خـــلال جهـــد نصف ذاكرة، نصف خيال، بإمكانى ملء الفـــراغين. ثـــم يـــأتى والد الفتاة، يداه الناتئتا العظام مطويتان

أمامــه. طــرف قبعــته على عينيه، إنه لا يتطلع إلى الأعلى. والآن أستدير نحو الفراغ بجوره.

على أية جهة من والدك كنت تجلسين؟

جلست إلى يمينه .

الفســحة على بمين الرجل تبقى خالية. بتركيز مؤلم، أبصر حتى كل حصاة على الأرض بجواره وتركيب الجدار خلفه.

حدثيني عما كنت تفعلين .

لا شيء. كنا جميعاً منهكين. كنا قد بدأنا السير قبل الفجر .

هل رأيتني؟

نعم، لقد رأيناك جميعاً.

أشبك يدى حول ركبتى مفكراً بتركيز. الفسحة بجوار الرجل تبقى خالية ولكن هناك إحساس ضئيل بوجود الفتاة، أو هالة ما فى الجــو، تبدأ فى الظهور الآن! ألح على نفسى: الآن سأفتح عينى، وستكون الفتاة هناك. أفتح عينى. فى النور المعتم أميز حجمهــا إلى جوارى. باندفاعة من أحاسيس أبسط يدى لألمس شــعرها، وجهها. لا توجد أى استجابة حية. الأمر مثل مداعبة جرو أو كرة، شيء كله سطح.

قُــول، كنت أحاول أن أتذكرك كما كنت قبل كل ما حدث، أجــد الأمر صعباً. من المؤسف أنك غير قادرة على إخبارى .

لا أتوقع استنكاراً، وهو لم يصدر.

* * *

وصلت كتيبة من المجندين الإلزاميين لتسلم أماكن الرجال الذين أنهوا أعوامهم الثلاثة التى سفحت على الحدود، والمستعدون للرحيل إلى منازلهم. كانت الكتيبة بقيادة شاب، سينضم إلى مجموع مساعديه.

أدعوه مع اثنين من زملائه، لتناول العشاء معى فى الفندق. تمضى الأمسية بشكل مرض: الطعام جيد، الشراب وفير، وضيفى لديه العديد من القصص عن رحلته، التى تمت فى طقس قاس وفى إقليم غريب عنه تماماً لقد فقد ثلاثة رجال فى الطريق، يقول: غادر أحدهم خيمته فى الليل استجابة لنداء الطبيعة ولم يعد مطلقاً، اثنان آخران هربا على مرأى من الواحات تقريباً، انسابا خارجاً للاختفاء بين القصب. صانعو مشاكل، ينعتهم، وهو لم يتأسف لأنه تخلص منهم. ومع ذلك، لا أعتقد أن قرارهم حماقة؟ أجيب، حماقة كبيرة، وأسأل إن كانت لديه فكرة عن السبب الذى جعلهم يهربون؟ يقول، لا، كانوا يعاملون بشكل جيد، كل واحد عومل بشكل جيد، ولكن هناك بعد ذلك مجندون... يهز كتفيه. اقترح، كان من الأفضل لهم الفرار فى وقت مبكر، الريف من حول المكان لا يساعد على العيش، إنهم رجال أموات إن لم يكونوا قد عثروا على ملجأ حتى الآن.

نــتحدث عن البرابرة. يقول، إنه مقتنع بأنه كان، فى جزء مــن طريقه، متبوعاً عن بعد من قبل البرابرة. أسأل، هل أنت مــتأكد مــن انهم كانوا برابرة؟ يجيب، ومن غيرهم يقدر على ذلك؟ يتفق زملاؤه معه.

أعجــب بحيويــة هذا الشاب، اهتمامه بالمشاهد الجديدة فى إقــليم الحدود، وإنجازه فى جلب رجاله إلى هنا فى هذا الموسم الميت، أمر حميد. عندما يلتمس رفاقنا الانصراف بسبب تأخر الوقــت، أضــغط عــليه للبقاء. نجلس معاً بعد منتصف الليل لــلحديث والشــراب. أستمع إلى أحدث الأخبار عن العاصمة، التى لم أرها منذ زمن طويل. أحكى له عن بعض المناطق التى أتذكــرها بحــنين: ســرادق الحدائق حيث يعزف الموسيقيون لــلزوار المتجولين، وكيف أن قدم المرء تخشخش عبر أوراق الكســتناء المتساقطة فى الخريف. أتذكر جسراً يستطيع المرء وهو فوقه أن يرى انعكاس القمر على الماء الذى يتموج حول مثلثات على هيئة زهرة البارادايس(*).

يقــول، تسرى الأقاويل فى مركز قيادة الفرقة أنه سيكون هــناك هجــوم عام ضد البرابرة فى الربيع لدفعهم عن الحدود نحو الجبال .

أنــا آســف لقطع قطار الذكريات. لا أريد أن أنهى الأمسية

(*) Paradise: لجنة، لفردوس.

بمشــاحنة. مع ذلك أستجيب. أنا واثق من أنها مجرد إشاعة: إنهم غير قادرين على القيام بذلك، الناس الذين تنعتهم بالبرابرة هــم مــن الــبدو، إنهــم يرتحلون كل عام ما بين الأراضى المنخفضـــة والمــرتفعة، تلك هى طريقتهم فى الحياة. إنهم لن يسمحوا لأنفسهم قط بأن يُحجزوا فى الجبال .

يتطـــلع إلى بغرابة. أحس للمرة الأولى فى هذه الأمسية أن حاجــزاً ينزل. الحاجز ما بين العسكرى والمدنى، يقول، لكن بالــتأكيد، إن كنا نريد الصراحة، ذلك هو معنى الحرب. إكراه أحــد ما على خيار لن يفعله عن طريق آخر . يعايننى بعجرفة شاب متخرج فى الكلية الحربية. أنا متأكد من أنه يتذكر القصة، الــتى انتشرت الآن حتماً فى الأرجاء، كيف إننى امتنعت عن التعاون مع ضابط من المكتب الثالث. اعتقدت أننى أعرف ماذا يــرى أمامــه: موظفاً إدارياً ثانوياً غطس، بعد أعوام، فى هذا الموضـــع الخلفى المنعزل، فى أساليب فطرية، كسولاً، متأخراً فى تفكيــره، مستعداً للمقامرة على أمن الإمبراطورية فى سبيل بديل مؤقت، سلام متزعزع.

يميل إلى الأمام، متظاهراً بحيرة صبى يراعى الآخرين: أنا مقتنع أكثر فأكثر بأنه يتلاعب بى. يقول، قل لى، سيدى سراً، ما هى الأمور التى يستاء منها البرابرة؟ ماذا يريدون منا ؟

يتوجب على أن أكون حذراً، ولكنى لا أكون. يتوجب على

أن أتـــثاءب متملصاً من سؤاله، أن أنهى الأمسية، ولكننى أجد نفسى أصعد إلى الطعم (متى سأتعلم أن أمسك بلسان ماكر؟).

إنهـــم يـــريدون وضـــع نهايـــة لانتشار المستوطنات عبر أراضـــيهم. إنهـــم يـــريدون عودة أراضيهم، فى النهاية. إنهم يريدون أن يكونون أحراراً فى التجوال مع قطعانهم من مرعى إلى مـــرعى، كمـــا اعتادوا . لم يفت الأوان بعد لوضع نهاية للمحاضـــرة. بدلاً أسمع صوتى ترتفع نبرته وأتنازل عن نفسى آسفا لثمالة الغضب. لن أقول شيئاً عن لغزوات الأخيرة التى شنت عليهم، بلا أىّ مبرر تماماً، تبعتها أعمال غاية فى القسوة، مـــا دام أمـــن الإمبراطورية فى خطر، أو هذا ما أخبرت به، سيتطلب الأمر أعواماً من أجل ترقيع الخراب الذى حصل فى تلك الأيام المعدودات، ولكن دع ذلك يمر، دعنى على الأصح، أخـــبرك عن الذى أجده مثبطاً لهمتى كموظف إدارى حتى فى أوقـــات الســـلم، حتى عندما تكون علاقات الحدود جيدة. هناك وقـــت فى الســـنة، أنـــت تعرف، عندما يزورنا البدو للتجارة. حســـناً: اذهـــب إلى أى كشك لبيع البضاعة وابصر بنفسك من الـــذى يستخف به ويغش ويتعرض لصراخ ويخدع. شاهد من الذى يرغم على ترك أهله من النساء خلفه فى الخيمة خوفاً من أن يتعرضـــن للإهانـــة من قبل الجنود. اشهد بنفسك من الذى يستلقى ثملاً فى قنوات البالوعات، واشهد من الذى يرفسه حيث هـــو متمدد. إنه هذا الاحتقار للبرابرة، احتقار يبدو ظاهرا من

قــبل أبسط عامل إلى فلاح فى مزرعة، ذلك أننى كقاض كان عــلى أن أجادل ضد ذلك لعشرين عاما. كيف يمكنك استئصال الاحتقار، خاصة عندما يكون الاحتقار مبنياً على أمر جوهرى لا يعدو كونه اختلافات فى آداب المائدة، اختلافات فى تركيب جفــن العيــن؟ هل أخبرك ما الذى أتمناه أحياناً؟ أتمنى لو أن هــؤلاء الــبرابرة يثورون ويعلموننا درساً، من أجل أن نتعلم احــترامهم. نحــن نفكــر فى هذا البلد وكأنه ملكنا، جزء من إمبراطوريتنا - قاعدتنا الأمامية، مستوطنتنا، مركزنا التجارى. ولكــن هــؤلاء الناس، هؤلاء البرابرة لا يفكرون إطلاقاً بنفس الطــريقة. لقد مضى على وجودنا هنا أكثر من مائة عام، لقد استصــلحنا أراضــى مــن الصــحراء وأنشأنا مشاريع إرواء وزرعــنا حقولاً وبنينا منازل ثابتة ووضعنا سوراً حول بلدتنا، ولكــنهم ما يزالون يفكرون بنا كزوار عابرين. هناك أناس من كبار السن بينهم يتذكرون آباءهم وأمهاتهم يحكون لهم عن هذه الواحــات كما كانت فى يوم من الأيام: مكاناً ظليلاً على ضفة البحيرة فيها وفرة من المراعى حتى فى الشتاء. تلك هى الكيفية التى ما زالوا يتحدثون بها، ربما الكيفية التى ما زالوا يرونها، وكأنما لم يقلب ملء مسحاة واحدة من الأرض ولم توضع أجرة واحدة فرق أخرى. الشك لا يساورهم من أننا فى يوم من هذه الأيــام سنحمل عرباتنا ونرحل إلى حيثما جئنا منه، وأن كافة مبانينا ستصبح بيوتاً للفئران والسحالى، وأن حيواناتهم سترعى

في هذه الحقول التي قمنا بزراعتها. أتبتسم أنت؟ هل أقول لك شيئاً؟ البحيرة تزداد مياهها ملوحة سنوياً. هناك تفسير بسيط – لا تبال قط به – البرابرة يعرفون هذه الحقيقة. انهم في هذه اللحظة بالذات يقولون لأنفسهم، كن صبوراً، في يوم من هذه الأيام، ستبدأ محاصيلهم بالذبول جراء الملوحة، لن يكونوا قادرين على إطعام أنفسهم، سيكون لزاماً عليهم الرحيل. ذلك ما يفكرون به. ذلك أنهم يفوقوننا قدرة على الاستمرار .

ولكننا غير مغادرين . يقول الشاب في هدوء.

هل أنت واثق؟

نحن غير راحلين. ولهذا فإنهم يرتكبون خطأ. لن نذهب حتى إن أصبح ضرورياً تزويد المستوطنة بقوة عسكرية للحماية، لأن هذه المستوطنات هي خط الدفاع الأول للإمبراطورية. كلما فهم البرابرة هذا عاجلاً كان أفضل .

على الرغم من مظهره الخارجي الجذاب فهناك صرامة في تفكيره لابد أنها مستمدة من دراسته العسكرية. أتنهد. لم أحصل أنا على شيء جراء إطلاق نفسي في الكلام. لقد تأكدت أسوأ ظنونه بلا شك: ذلك أنني معتل عقلياً، كما أنني من طراز محافظ. وهل أنا حقاً، بعد كل شيء، أؤمن بما كنت أقوله؟ هل أتطلع بلهفة إلى انتصار وجهة نظر البرابرة: خمول ذهني، قذارة تامة، تسامح تجاه المرض والموت؟ إن قدر لنا أن نختفي

فهـل الــبرابرة سيمضون أمسياتهم فى الكشف عن آثارنا فى خرائبــنا؟ هــل ســيحافظون عــلى وثائقنا الرسمية للإحصاء الســكانى ودفاتــر تجار حبوبنا فى صناديق زجاجية، أم أنهم سيكرســون أنفسهم لحل نصوص رسائل الحب العائدة لنا؟ هل ســخطى تجاه السلوك الذى تنتهجه الإمبراطورية فى أى حال مــن الأحــوال والى حد بعيد ضجر رجل عجوز لا يريد أن تــتعكر طمأنيــنة أيامه الأخيرة على الحدود؟ أحاول أن أوجه المحادثــة إلى موضوعات أكثر ملاءمة، إلى الخيول، الصيد، الجو، ولكن الوقت يصبح متأخرا، وصديقى الشاب يرغب فى المغادرة وعلى أن أسدد حساب ضيافة الأمسية.

* * *

الأطفال يلعبون فى الثلج ثانية، فى وسطهم، والظهر نحوى، هو الشكل ذو القبعة للفتاة. وبينما أنا أجهد نفسى نحوها، تكون فى لحظــات اخــتفت عن النظر خلف ستارة من ثلج متساقط. تغــوص قدمــاى عميقاً إلى حد أنى لا أقدر على رفعهما. كل خطــوة تســتغرق دهراً. إنها أسوأ ثلوج تساقطت فى أحلامى. وعــندما أجــرى مــتقلا باتجاههم، يتخلى الأطفال عن لعبهم ليتطــلعوا إلى. يديرون نحوى وجوههم الرزينة المتألقة، تتدفع أنفاســهم البيضاء منهم بنفثات. أحاول ان أبتسم وألمسهم عندما أمــر وأنا فى طريقى إلى الفتاة، ولكن تقاطيع وجهى متجمدة،

الابتسامة لا تظهر، وهناك كما يبدو طبقة من جليد تغطى فمى. أرفـــع يــداً لأزيلها: أجد ان الهد ترتدى قفازاً ثقيلاً، الأصابع مـــتجمدة فى داخل القفاز، لا أحسن بشىء عندما ألمس وجهى بالقفـــاز. لا أحسن بأى شئ. أشق طريقى بخطوات ثقيلة ماراً بالأطفال.

الآن يمكننى أن أرى ما تفعله الفتاة، إنها تبنى قلعة من ثلج، بـــلدة مســـورة أعـــرفها بكل تفاصيلها: جدار الحصن وأبراج الحراسة الأربعة فيه، البوابة وكوخ البواب بجوارها، الشوارع والبيوت، الساحة الكبيرة ومجمع الثكنات فى أحد الزوايا. وها هى الـــبقعة عينها التى أقف عليها! ولكن الساحة خالية، البلدة بأكمـــلها بيضـــاء وخرســـاء صماء وخالية! أشير إلى مركز الساحة. أريد أن أقول، لابد أن تضعى أناساً هناك! ، لا صوت يخرج من فمى، حيث يرقد لسانى متجمداً مثل سمكة. مع ذلك تستجيب هى. تجلس على ركبتيها وتدير رأسها المغطى بقبعة نحوى. فى هذه اللحظة الأخيرة، أخاف أن تكون خيبة أمل، أن يكون الوجه الذى ستقدمه لى بليداً، زلقاً، مثل عضو داخلى، لم يعد للعيش فى الضياء. ولكن لا، إنها نفسها، نفسها بالرغم من أنـــنى لم أرها مطلقا، طفلة باسمة، يتلألأ الضوء على أسنانها، وتـــلقى نظرة سريعة من عينيها اللتين بلون الكهرمان الأسود. أقـــول لنفســـى، إذن هذا هو الشىء الذى يتعين على إدراكه. أريـــد إن أتحدث إليها من خلال فمى المتجمد. أريد ان أقول،

كيف تصنعين كل ذلك العمل الجميل ويداك فى القفاز؟ تبتسم بلطف لدمدمتى. ثم تستدير عائدة إلى قلعتها فى الثلج. أبزغ من الحــلم مقروراً ومتصلباً. إنه الوقت الذى يسبق الضياء الأول بســاعة، النار منطفئة، جلدة رأسى تحس بالخدر والبرد. الفتاة إلى جــوارى، نائمــة مــتجمعة حــول نفسها فى كرة. أغادر الفــراش، وبمعطفى الواسع ملفوفا حولى، أبدأ فى إذكاء النار ثانية.

الحلم متجذر، أعود، ليلة بعد ليلة إلى رقعة الساحة المترامية الأطــراف المكتســحة بالثــلج، مجهداً السير نحو الشكل فى مركزها، مؤكداً فى كل مرة، أن البلدة التى تقوم ببنائها الفتاة، خالية من الحياة.

أســأل الفــتاة عن شقيقاتها. لديها شقيقتان. الصغرى، كما تقول، جميلة جداً، ولكنها مشتتة الذهن. أسأل ، ألا تودين رؤية شقيقتيك مجدداً؟ الاضطراب يتدل بشكلى منفر فى الجو بيننا. يبتسم كلانا تقول، بالطبع .

أســأل أيضا عن المدة التى أعقبت سجنها، عندما، مجهولة مــن قبلى، عاشت فى هذه البلدة تحت نطاق سلطتى القضائية. كــان الــناس رحماء بى عندما أدركوا أننى قد تركت وحيدة. اعــتدت النوم فى الفندق حيناً من الزمن فى الوقت الذى بدأت فيــه قدمــاى بالتحسن. كان هناك رجل تولى الاعتناء بى. لقد

ذهــب الآن. كــان يقتنى الخيول. كما أنها تتذكر الرجل الذى أعطاهــا زوجى الأحذيــة بالرقبة العالية التى كانت ترتديهما عــندما التقيت بها فى المرة الأولى. أسأل عن رجال آخرين. نعــم، كان هناك رجال آخرون. لم يكن لدى خيار. كان ذلك كيف وجب أن يكون الأمر .

بعد هذه المحادثة ازدادت العلاقات مع عامة الجنود توتراً. مغــادراً فى الصــباح شقتى إلى دار العدالة، أمرُ بأحد مواكب التفــتيش العسكرية النادرة. أنا متأكد أن من بين هؤلاء الرجال الواقفين فى استعداد، وتجهيزاتهم فى رزمة عند أقدامهم، بعضا ممن نام مع الفتاة. ليس ذلك اننى أتخيلهم بضحكون بتهكم من خــلف أيديهــم. لــم أرهــم قط واقفين برزانة أكثر فى الريح المتجمدة التى تضرب عبر الساحة. ولم تكن قط ملامحهم أكثر احــتراما. أعــرف أن بإمكانهم أن يقولوا لى إن تمكنوا، نحن رجال جميعاً، وإن بإمكان أى رجل أن يفقد عقله بسبب امرأة. ومــع ذلــك، أحــاول المجىء إلى البيت متأخرا فى الأمسيات لتفادى صف الرجال عند باب المطبخ.

هــناك أخبار ترد عن جنديى الملازم الهاربين. واضع أفخاخ عــثر عليهما متجمدين حتى الموت فى مخبأ بدائى لا يبعد غير ثلاثين ميلاً شرق مستوطنتنا. وعلى الرغم من أن الملازم ميال إلى تركهم هناك (ثلاثون ميلاً للوصول وثلاثون ميلا للعودة فى

هـذا الجو، أمر بالغ الصعوبة بالنسبة لرجال لم يعودوا رجالاً، ألا تعـتقد ذلك؟)، أقنعه بإرسال بعثة إلى هناك. أقول، يجب أن تجرى لهم الشعائر، فضلاً من كونه أمراً جيداً بالنسبة لمعنويات رفـاقهم. عـليهم أن لا يتصـوروا بـأنهم أيضا سيموتون فى الصحراء ويرقدون منسيين. ما نقدر على عمله من أجل تخفيف رهبـتهم من حتمية مغادرة هذه الأرض الجميلة، يجب أن نفعله. وبعـد كل شيء، فنحن الذين نقودهم إلى هذه المخاطر . وهكذا تغـادر البعثة، وتعود بعد يومين بالجثتين الملتويتين المتصلبتين انجمـاداً فى عربة. ما زلت أجد الأمر غريباً إن رجالاً يتوجب عـليهم ترك منازلهم إلى مسافة مئات الأميال وعلى بعد مسيرة يـوم واحد من الطعام والدفء، ولكننى لا أتتبع الموضوع أبعد مـن ذلـك. واقفا عند حافة المقبرة المتصلبة أرضها جليداً بينما تجـرى آخـر الشـعائر ورفـاق المتوفى الأسعد حظاً يراقبون حاسـرى الـرءوس، أكـرر لنفسى إننى بالتأكيد على المعاملة الصـحيحة لـلعظام، أحاول أن أبين لهؤلاء الرجال الشباب أن المـوت غيـر فـان، واننا نبقى أحياء مثل فروع فى ذاكرة من عرفـناهم. مـع ذلـك هل أنا حقا ومن أجل فائدتهم وحدها أقيم المراسـم؟ ألا أواســى نفسى أيضا؟ أبدى استعداداً لتولى المهمة الروتيـنية الشـاقة فى الكتابة إلى الوالدين لإعلامهما بمصابهما الشخصى. أقول، إنها أخف وقعاً على رجل مسن .

* * *

تسأل، ألا تحب أن تفعل شيئاً آخر؟

قدماهـــا تســـتريحان فى حضنى. أنا منذهل، تائه فى إيقاع دعك الكاحل المتورم ودلكه. سؤالها يباغتنى. إنها المرة الأولى الـــتى تحدثـــت فيها بوضوح تام. لا أبالى بالسؤال، أحاول أن أنـــزلق عـــائداً إلى غيبوبـــتى، غير بعيد عن النوم متمنع عن الانحراف عنه.

تـــتحرك القـــدم فى قبضتى، تسرى فيها الحياة، تخز بلطف منـــبت فخـــذى. افـــتح عيـــنى على الجسد الذهبى العارى فى الفراش. تستلقى هى ورأسها بين يديها، تراقبنى بالطريقة غير المباشـــرة التى اعتدتها الآن، مبدية صدرها المتماسك وبطنها الملســـاء، تطفـــح بصحة جسد شاب. تستمر أصابع قدميها فى الجـــس، ولكنها فى هذا السيد العجوز المتراخى الجاثى أمامها بردائه المنزلى الأرجوانى الداكن لا تجد استجابة.

فى مـــرة ثانية . أقول ولسانى يلتوى ببلادة حول الكلمات. إنهـــا كذبة على قدر ما أعرف، ولكننى أتلفظها. ربما فى مرة ثانيـــة . ثـــم أرفـــع قدمهـــا جانبا، وأستلقى بجوارها. الرجال المـــتقدمون فى السن، لا يمتلكون عفة كى يحافظوا عليها، ماذا أستطيع أن أقول إذن؟ إنها كذبة عرجاء على نحو هزيل، وهى لا تفهمها. تنزلق تفتح ردائى وتبدأ بمداعبتى، بعد وقت قصير أدفع يدها بعيداً.

تهمـس، 'أنـت تـزور فتيات أخريات، هل تعتقد بأننى لا أعرف؟

أشير إليها بشكل قاطع أن تصمت.

تهمس، هل تعاملهن أيضا هكذا؟ وتبدأ فى النشيج.

على الرغم من أن قلبى يتمزق من أجلها، لا يوجد شىء أنا قـادر على القيام به. ومع ذلك أى إذلال لها! أنها لا تقدر حتى مغـادرة الشـقة دون ترنح أو تحسس وهى تقوم وتجلس. إنها سـجينة الآن بقدرٍ ما كانت قبلاً. أربت على يدها وأغرق فى كآبة عميقة.

إنهـا الليـلة الأخيـرة التى ننام فيها فى فراش واحد. أنقل سـريراً نقـالاً إلى غرفة الاستقبال وأنام هناك. الألفة الجسدية تنتهى بيننا. أقول، فى الزمن الراهن. حتى نهاية الشتاء، هكذا أفضل'. تتقبل العذر دون كلمة ما. عندما أعود إلى المنزل فى الأمسـيات تجلب لى الشاى وتجثم عند الصينية لخدمتى. تعود بعدئـذ إلى المطـبخ. بعـد ساعة من الوقت تضرب طريقها صاعدة السلم خلف الفتاة التى تحمل صينية العشاء. نأكل معاً. بعـد الوجـبة أخلد إلى مكتبى أو أخرج مساء، مجدداً جولاتى الاجتماعية التى أهملتها: شطرنج فى بيوت الأصدقاء، ورق مع الضـباط فى الفـندق. كما أننى أقوم بزيارة أو اثنتين للطابق الـثانى مـن الفندق ولكن مع إحساس بالذنب مما يفسد المتعة.

ولدى عودتى أجد على الدوام، الفتاة نائمة، وأضطر إلى السير على أطراف أصابعى كزوج خاطئ.

تتقبل الفتاة الأسلوب الجديد دون تذمر. أقول لنفسى إنها تخضع بسبب من تربيتها البربرية. ولكن ما الذى أعرفه أنا عن التربية البربرية؟ ما أسميه أنا استسلاما قد لا يكون غير عدم مبالاة. ما الذى يهم متسولة، فتاة بلا أب ما إذا نمت منفرداً أم غير ذلك ما دامت تمتلك سقفا فوق رأسها وطعاماً فى بطنها؟ لقد أحببت حتى الآن أن افكر فى أنها لا تقدر الكف عن رؤيتى رجلا فى قبضة الرغبة. كيفما كانت الرغبة منحرفة وغريبة الأطوار، ذلك أنها فى الصمت الملىء بالتوتر والقلق والذى يشكل الجزء الكبير من اتصالات، لا تقدر إلا الإحساس بنظرتى المتفرسة تضغط عليها بثقل جسد. أنا أفضل عدم الخوض من أن الإمكانية التى تعلمها التربية البربرية لفتاة قد لا تؤهلها للتكيف مع كل نزوات الرجل، ومن ضمنها نزوة الإهمال، بل أن تنظر إلى الرغبة الجنسية سواء فى حصان أو ماعز أو رجل أو امرأة كحقيقة حياتية مجردة بأوضح وسائلها وأوضح نهاياتها. ولهذا فإن التصرفات المرتبكة لغريب متقدم فى السن يلتقطها من الشوارع ويجلسها فى شقته كى يقدر تارة أن يقبل قدميها، تارة يرهبها بالصياح والعبوس، تارة يدهنها بزيوت غريبة، تارة يتجاهلها، تارة ينام بين ذراعيها طوال الليل، والآن ينام منفردا متقلب المزاج، قد لا تدل إلا على علامات عجز، تردد، انسلاخ، عن رغباته الشخصية. وفى

الوقـــت الذى لم أكف عن النظر إليها كجسد معطل، متضرر، يحمـــل ندبات، ربما إنها فى هذا الوقت قد نضجت وأصبحت ذلك الجسد الناقص الجديد، غير حاسة بتشوهها أكثر مما تحسه قطة بالتشوه أن امتلكت مخالب بدلاً من الأصابع. سأفعل حسناً إن أخذت هذه الأفكار بجدية. أن أكون اعتيادياً بدرجة أكبر مما أحب أن أعتقد، قد تكون لها وسائلها كى تجدنى اعتيادياً أيضاً.

* * *

٣

الهــواء ممتــلئ فى كــل صــباح يخفق أجنحة بينما تطير العصـــافير قادمة من الجنوب محومة فى حلفات فوق البحيرة قــبل استقرارها فى الأطراف الناتئة المالحة للمستنقعات. عند الهــدوء لمؤقــت للرياح، تصل إلينا تنافر نغماتهم، طبطبات، قوقــأة، صيحات حادة، مثل صوت مدينة مزاحمة على الماء: أنواع من سمك نهرى، طيور، بط بأنواع وألوان مختلفة.

يؤكــد وصــول الوجــبة الأولى من طيور الماء المهاجرة العلامات الأولى، الأثر الباهت لدفــء جديد فى الريح، الشفافية الــزجاجية لجــليد البحيرة. الربيع فى طريقه، فى يوم من هذه الأيام يكون الوقت مناسباً للزرع.

الوقت الحاضر هو موسم نصب الأفخاخ. قبل الفجر، تغادر فــرق مــن رجــال إلى البحيرة لوضع شباكها. يعودون عند منتصــف النهار بصيد وفير: طيور ملوية الرقاب تتدلى معلقة مــن أرجلها على أعمدة صفاً بعد صف، أو حشرت وهى حية فى أقفــاص خشــبية، تصرخ تغضب، يدوس بعضها بعضاً، وأوزة ضــخمة تجثم بينها فى صمت شديد. خصب الطبيعة.: فى الأسابيع المقبلة سيأكل كل واحد منا جيداً.

قــبل أن أسافر، هناك وثيقتان على تهيأتهما: الأولى معنونة إلى الحــاكم الإقليمى. أكتب، 'من اجل إصلاح بعض الأضرار الــتى نــتجت عن غزوات المكتب الثالث، ومن أجل استعادة بعــض النوايا الحسنة التى كانت سابقاً، سأقوم بزيارة قصيرة للبرابرة . أوقع وأختم الرسالة.

لا أعرف حتى الآن شيئاً عن مضمون الرسالة الثانية. شهادة؟ ســيرة ذاتيــة، اعــتراف؟ تاريخ ثلاثين عاما على الحدود؟ أجلس طــوال ذلــك الــنهار فى غيــبوبة على مكتبى محدقاً فى الورقة البيضاء الخالية، منتظراً، أن تأتى الكلمات. يمر يوم ثان بالطريقة نفســها. أستســلم فى اليوم الثالث، أعيد الورقة إلى الدرج وأتهيأ لــبعض الاســتعدادات للسفر. يبدو الأمر متناسبا فى ان رجلاً لا يعرف ماذا يفعل بامرأة فى فراشه، لا يعرف ماذا يكتب.

اخــترت ثلاثة رجال لمرافقتى. اثنان شابان مجندان إلزامياً أنا مسؤول عن عملهما الإضافى. الثالث رجل أكبر منهما ولد فى هذه الأطراف، صياد وتاجر خيول، سأتولى دفع أجوره من جيبى الخاص. أدعوهم معاً إلى فى الظهيرة التى تسبق سفرنا. أقــول لهــم، أنا أعرف أن الوقت غير ملائم للسفر. إنه وقت غدار، نهاية ذيل شتاء، ربيع لم يبدأ بعد هنا، ولكن إن انتظرنا أكــثر فــلن نجــد الــبدو قبل أن يبدأوا الشروع بهجرتهم ، لا يطرحون أى سؤال.

للفـــتاة أقول ببساطة، سآخذك إلى أهلك، أو إلى أقرب نقطة أتمكن من الوصول إليها. مدركاً أنهم قد تفرقوا الآن . لا تبدى علامـــة فرح ما. أضع إلى جوارها الفراء الثقيل الذى اشتريته لهـــا لتســـافر بـــه، مع قبعة من جلد الأرنب مزخرفة بحسب الطريقة المحلية وزوجا من الأحذية طويلة الساق وقفازين.

الآن وقد أعددت نفسي لوجهة معينة، أنام بسهولة أكثر، بل حتى أتتبع فى داخلى شيئاً كالسعادة.

نغـــادر فى الثالث من آذار، ترافقنا عبر البوابة ومنحدرين إلى الطريق ثم إلى طرف البحيرة، مجموعة غوغاء من أطفال وكلاب. بعد اجتيازنا سور الإرواء منحرفين عن طريق النهر، مـــتخذين الطـــريق إلى اليمين الذى لا يستعمله غير الصيادين وصـــائدى الطيـــور، يـــبدأ عدد مرافقينا بالتضاؤل حتى يبقى صـــبيان عـــنيدان يهرولان خلفنا، قد قرر كل واحد منهما أن يتفوق على الآخر.

الشمس قد أشرقت ولكنها لا تبعث دفئاً. الريح تضربنا آتية عـــبر الـــبحيرة إلى حد تشرق أعيننا بالدمع. سائرين فى رتل الواحـــد خلف الآخر، أربعة رجال وامرأة، أربع دواب محملة، تـــتحمل الخيول بعناد قسوة الريح مع الحاجة إلى توزعها هنا وهـــناك، نلـــتف مبتعدين عن البلد المسورة، الحقول الظاهرة للعيان وبعيدا أيضا عن الصبيين اللاهثين.

٢

خطــتى هى تتبع هذا الطريق حتى نلتف حول البحيرة إلى الجــنوب، ثــم نندفع جهة الشمال الشرقى عبر الصحراء نحو وديان المراعى حيث يشتى بدو الشمال. انه طريق يسلك نادرا. مــنذ أن بــدأ البدو، فى خلال هجرتهم مع قطعانهم، فى تتبع مجــرى النهر القديم فى اجتياح واسع شرقاً وجنوباً. على أى حــال، هذا الطريق يقلل الرحلة من ستة أسابيع إلى أسبوع أو اثنين.

وهكــذا، نكدح فى السير ثلاثة أيام جنوباً ثم باتجاه الشرق. تمتد إلى يميننا أرض شبه مستوية من صلصال نحتتها الرياح، مندمجة فى أقصى أطرافها مع ركام من سحابة غبار أحمر. ثم مع السماء الصفراء المكفهرة. على يسارنا مستنقعات منبسطة، حلقات من القصب والبحيرة حيث طبقة من جليد فى الوسط لم تــذب حــتى الآن. الريح الهابة فوق الجليد تجمد أنفاسنا، إننا نفضــل الســير فى الغــالب أوقاتا طويلة، بدلاً من الركوب، محتمين بخيولنا. تلف الفتاة شالاً حول وجهها عدداً من اللفات، وهى جاثمة على سرجها، تتبع على نحو أعمى من يقودها.

اثــنان مــن الــدواب محملان بحطب الوقود، ولكننا علينا الاحــتفاظ به للصحراء. مرة، ونحن نصف مغمورين فى كتل رمــلية مــندفعة، نفاجــأ بشجرة طرفاء ممتدة مثل أكمة، نقوم بــتقطيعها إربــاً من أجل الوقود. فى الأيام المتبقية كان علينا

الاكـــتفاء بحزم من قصب يابس. الفتاة وأنا ننام جنباً إلى جنب في خيمة واحدة، كل واحد منا محشور في فرائه تجنباً للبرد.

في هذه الأيام الأولى من الرحلة، نأكل بشكل جيد. لقد جلبنا لحمـــاً ممـــلحاً، فضــــلاً عن الطحين، الفاصوليا، فواكه مجففة وهـــناك طـــرائد كـــثيرة للصيد. ولكن كان علينا الاقتصاد في المـــاء. ميـــاه المستنقع الضحلة في الأطراف الجنوبية الناتئة، مالحة جداً لا تصلح للشرب. كان على أحد رجالنا أن يخوض عشـــرين أو ثلاثين خطوة فيها، إلى عمق ربلة ساقيه، من أجل ان يمـــلأ القـــرب، أو الأفضل، لكسر كتل الجليد. ولكن، حتى الميـــاه الجليدية المذابة، مرة جداً ومالحة، بحيث إنها لا تصلح للشـــرب إلا مـــع شاي قوي أحمر. في كل عام تزداد البحيرة ملوحة بينما يقرض النهر من ضفافها ويكنس الملح والشب إلى البحيرة. وبسبب من عدم تدفق المياه في البحيرة، فإن نسبة ما تتضـــمنه مـــن عناصر معدنية، يبقى في ارتفاع، وخاصة في الجنوب، حيث تعزل كمية من المياه سنوياً بفعل حواجز رملية. ويجـــد الصيادون، بعد فيضان الصيف، أسماك شبوط عائمة، بطـــنها إلى أعلى في المياه الضحلة. يقولون إن أسماك الفرخ الـــنهرية لـــم تعد ترى فيها. وما الذي سيحدث للمستوطنة إن تحولت البحيرة إلى بحر ميت؟

بعد يوم من شاي مالح، يبدأ كل واحد منا، ما عدا الفتاة، في

المعانـــاة مـــن الإســـهال. كنت الأسوأ ممن ابتلى. أحس بشدة بمشـــاعر الإذلال للتوقفات المتكررة، خلع الملابس وارتداؤها بأصـــابع متجمدة محتميا بحصان بينما ينتظر الآخرون. أحاول ان أشرب أقل كمية ممكنة من الماء، إلى الدرجة التى يبدأ فيها عقـــلى، وأنـــا راكـــب بطرح صور تعذبنى للماء مقترباً منى ومبـــتعداً. بـــرميل ممتـــلئ عند طرف بئر والماء يتناثر عن المغرفة، نظيف أبيض كالثلج. قيامى أحياناً بصيد البط مستعيناً بصـــقر، معاشـــراتى العابـــرة للنساء (دون هدف)، ممارسات رجولـــتى، قـــد حجـــبت عنى، مدى النعومة التى صار إليها جسدى. عظامى تؤلمنى بعد سير مسافات طويلة، ومع مجىء الـــليل، أحـــس بـــتعب شديد يجعلنى بلا شهية. أمشى مسافات طويـــلة مجهـــداً حتى لا أقدر أن أضع قدما أمام الأخرى، ثم أتســـلق بجهـــد فـــوق السرج، ألف نفسى بمعطفى الفضفاض، وألـــوح لأحد الرجال بالتقدم ليتولى مهمة العثور على الطريق الـــباهت. لا تتركـــنا الـــريح أبداً، إنها تنبح علينا عبر الجليد، تعصـــف من لا مكان إلى لا مكان، مغطية السماء بسحابة من تـــراب أحمـــر. لا مجال للاختفاء من التراب: إنه يتسلل إلى ثيابـــنا، يغلف وجوهنا، يتغلغل فى أمتعتنا، نأكل بأفواه مغلقة، نبصق غالباً، تصر أسناننا، يصبح التراب لا الهواء هو الوسط الذى نعيش فيه. نعوم عبر التراب مثل سمك عبر ماء.

لا تشـــكو الفتاة، تأكل جيداً، لا تمرض، تنام بعمق متكورة

مــثل كــرة فى جــو بارد أتمنى فيه أن أحتضن كلباً من أجل الراحة. تسير راكبة طوال النهار دون تذمر. مرة، ملقيا نظرة نحوها، أراها راكبة وهى نائمة، وجهها هادئ كوجه طفلة.

فى اليوم الثالث تبدأ أطراف المستنقعات بالالتواء إلى الخلف نحو الشمال، ونعلم عندئذ أننا قد

درنــا حــول البحيرة. نقيم مخيماً فى ساعة مبكرة ونمضى ســاعات الضــياء الأخيرة فى جمع أى فضلة ممكنة من قطع الوقــود، بيــنما تــرعى الخيــول للمرة الأخيرة فى حشائش المســتنقعات الهزيــلة. وفى فجر اليوم الرابع، نبدأ بقطع قاع المجــرى القديــم للــبحيرة الممتد أربعين كيلومترا آخر خلف المستنقعات.

أرض الــبادية أكثر قفرا من أى شئ آخر رأيناه حتى الآن. لا شئ ينبت فى قاع هذه البحيرة الملحية. التى تتبعج فى بعض مناطقها وتندفع إلى الأعلى فى انشقاقات بلورية مثلومة سداسية الأضلاع بعرض قدم واحدة. هناك مخاطر أيضا. الجواد الأول يغوص فجأة فى قشرة الأرض خلال عبوره رقعة ناعمة بشكل غير اعتيادى، ويغطس حتى الصدر فى وحل كدر معشوشب. يقف الرجل الذى يقوده مصعوقاً فى فراغ واه قبل أن يسقط هو أيضا متلوثا برشاش من قذارة. نكافح من أجل سحبهما خارجا، تتشــظى القشــرة الملحية تحت حوافر الجواد، تتوسع الحفرة،

تنتشــر الروائح الكريهة للماء الآسن فى كل مكان. ندرك الآن أنــنا لــم نترك البحيرة خلفنا: انها تمتد هنا تحتنا، تحت غطاء يمتد أحياناً عدة أقدام عمقا، وفى أحيان أخرى تحت قشرة رقيقة مــن ملح هش. كم من زمن قد مضى منذ أن أشرقت الشمس آخــر مــرة على هذه المياه الميتة؟ نوقد نارا على أرض أكثر صــلابة، لتدفئة الرجل المرتعش وتجفيف ملابسه. يهز رأسه ويقــول، سمعت على الدوام، احذروا البقع الخضر، ولكننى لم أر مــثل مــا حدث من قبل . إنه دليلنا، الرجل الوحيد الذى قد ســافر عبر شرق البحيرة. ندفع خيولنا، بعد ما حدث، بضغط أشــد، وبسرعة أكبر من لأجل الخلاص من هذه البحيرة الميتة، خشــية أن نــتيه فى مادة مائعة أشد برداً من الجليد، معدنية، خفيــة، بــلا هواء. نحنى رؤوسنا ونندفع فى العاصفة، تنتفخ معاطفــنا مثل بالونات خلفنا، ملتقطين دربا فوق القطع الملحية المتكسرة المثلومة، متجنبين الأرض الناعمة. تشع الشمس مثل برتقالة من خلال نهر الغبار الذى يتقدم بمهابة عبر السماء، لا تــدفئ شيئا. عندما يسقط الظلام، ندق أوتاد الخيمة فى شقوق الملح المتصلبة كالحجارة، نوقد نارنا بثمن باهظ، ومثل البحارة نصلى من أجل أرض.

فى اليوم الخامس، نترك، قاع البحيرة خلفنا ونمر عبر حزام مــن الأمــلاح المتبلورة الناعمة التى سرعان ما تستسلم أمام الرمال والحجارة. تشتد عزائمنا جميعاً، حتى الخيول، التى فى

خـــلال عـــبورها الأرض المالحـــة، لم تتناول شيئا غير بضع حفنات من بذرِ الكتان ودلو من ماء آسن أجاج. حالتها بوضوح متدهورة جداً.

أمـــا بالنسبة للرجال، فإنهم لا يتذمرون. اللحم الطازج ينفد ولكـــن يتبقى لدينا اللحم المملح والفاصوليا المجففة ووفرة من طحين وشاى وهى قوام الطريق الأساسية، نغلى الشاى فى كل اســـتراحة وقـــوف ونقـــلى (كتلة متراصة من السمن)، كعكة ضخمة، لقمة لذيذة بالنسبة للجائع. يقوم الرجال بالطبخ: كونهم خجلين من الفتاة، غير واثقين من موقفها، غير واثقين أكثر من أى شـــئ آخـــر، مـــا نفعلـــه فى أخذهـــا للبرابرة، هم بالكاد يخاطبونها، يتجنبون النظر إليها، ولا يسألون، بالتأكيد مساعدةً مـــنها فى الطبخ. أنا لا أقوم بالضغط عليها للتقدم نحوهم، آملاً أن تتـــبدد قيـــود الكـــبح فى خلال الطريق. لقد اخترت هؤلاء الـــرجال لأنهـــم شديدو القدرة على التحمل وأمناء، ومستعدون للعمل. انهم يتبعونني بأقصى ما يقدرون من خلو البال فى مثل هذه الظروف، على الرغم من أن الدرع الممتاز الصقيل الذى ارتـــداه كـــل واحـــد من الجنديين الشابين عند اجتيازنا البوابة الكـــثيرة، مربوط الآن علي ظهر الدواب فى حزم بين الأمتعة وغمـــد سيفه ممتلئان رملاً. تبدأ المسطحات الرملية تتغير إلى كثـــبان رملية. يتباطأ تقدمنا ونحن نصعد بكد جوانب الكثبان. إنهـــا أسوأ تضاريس أرضية بالنسبة للخيول والتى تسير بتثاقل

وبطء، بضعة انجات فى كل مرة، منغرزة حوافرها عميقاً فى الـــرمل. أتطلع إلى دليلنا ولكن كل ما يقدر عليه هو هز كتفيه: سيســتمر الأمـــر هكـــذا أميالاً، علينا اجتيازها، لا سبيل آخر أمامـــنا'. واقفاً فى أعلى كثيب رملى، مغطياً عينية متطلعاً إلى الأمام، لا أستطيع ان أرى غير دوامة من رمال.

فى تلك الليلة، لا يتناول أحد الخيول ما نقدمه له من طعام. وفى الصـــباح، وتحـــت أقسى السياط، يرفض النهوض. نقوم بإعادة توزيع الأحمال ونتخلى عن قسم من حطب الوقود. أبقى خـــلفهم، فيمـــا يســـير الآخرون. بإمكانى أن أقسم أن الحيوان يعـــرف ما سيحدث له. أمام مرأى السكين، تتقلب عيناه، ومع تفجـــر الدم من رقبته، يندفع طليقاً من الرمل ويترنح خطوة أو اثنـــتين باتجـــاه الريح قبل أن يسقط. سمعت أن البرابرة، فى حـــالات الشـــدة المهلكة، يفرغون عروق خيولهم من الدم. هل سنبقى على قيد الحياة كى نتأسف على هذا الدم المراق بإسراف على الرمل؟

فى اليـــوم الســـابع، والكثبان قد أصبحت خلفنا أخيراً، نميز قـــبالة المـــنظر الطـــبيعى الخالى الممل بلونه الرمادى البنى، شـــريطا مـــن الرمادى الغامق. من مسافة أقرب نجد أنه يمتد شرقاً وغرباً عدة أميال. بل هناك أيضاً أشكال سوداء لأشجار. يقول دليلنا، نحن سعداء، من المؤكد وجود ماء هنا.

مـــا تعـــثرنا به هو قاع مجرى قديم لمستنقع. قصب أبيض وهش عند الملمس، يحدد ما كان ضفافه. الأشجار هى الحور، وهى أيضا ميتة منذ زمن طويل. لقد ماتت منذ أن تراجع الماء الموجـــود تحـــت الأرض إلى مسافة أبعد مما يمكن لجذورها الوصول إليه قبل أعوام وأعوام.

نـــنزل حمولـــة الحيوانـــات ونبدأ بالحفر. نصل عند مسافة قدميـــن عمقاً إلى طبقة سميكة من صلصال كثيف أزرق. تحت هـــذه الطـــبقة رمال أيضاً، ثم طبقة أخرى من صلصال ظاهر الـــلزوجة. عـــند عمق سبعة أقدام، وقلبى يخفق بشدة وأذناى تطـــنان، اضطر إلى رفض دورى مع المعول. يستمر الرجال الـــثلاثة فى الكدح، رافعين التراب المخلخل من الحفرة بقطعة من قماش خيمة بعد ربط زواياها.

على عمق عشر أقدام، يبدأ الماء بالتجمع حول أقدامهم. إنه حـــلو، لا يوجد أثر للملوحة فيه، نبتسم بفرح لبعضنا البعض، ولكـــنه يـــتجمع ببطء شديد كما أن جوانب الحفرة تحتاج إلى اســـتخراج مـــا يتقوض منها باستمرار. فى ساعة متأخرة من العصـــر فقـــط، ننتهى من إفراغ آخر ما لدينا من ماء البحيرة الآســـن الأجاج ونملأ القرب الجلدية ثانية. وقبل حلول الظلمة تماماً، ندلى البرميل إلى بئرنا ونسمح للخيول بشرب الماء.

فى ذلـــك الوقـــت نفسه، وبعد توفر خشب الحور لدينا، قام

الـــرجال بحفـــر فـــرنين صـــغيرين فى الصلصال، ملتصقين بظهريهما وعززوا ناراً مزمجرة على قمة كل واحد منهما من أجل طبخ الصلصال وتجفيفه. عندما تتضاءل النيران، سيكون بإمكـــانهم جرف الفحم وإعادته إلى الفرن والبدء بأعداد الخبز. تـــرقب الفـــتاة واقفة كل ما يحدث، مستندة إلى عكازيها اللذين قمـــت بتثبيت قرصين خشبيين عليهما من أجل مساعدتها على الوقوف. ويتدفق الكلام فى غمرة هذه العلاقة الحميمة والسهلة مـــع راحـــة موعودة. مازحين معها، يبدأ الرجال بإبداء أولى عـــروض الصـــداقة: تعـــالى وأجلسى معنا وتذوقى ما يخبزه الـــرجال! تبتسم مستجيبة لهم، رافعة ذقنها فى حركة ربما أنا وحـــدى أعـــرف أنها محاولة منها للنظر. بحذر تجلس وتتخذ لنفسها مكانا على الأرض بجوارهم لتنغمر فى وهج الفرنين.

أنـــا نفســـى أجلس فى مكان أبعد، محتمياً من الريح بفتحة مقدمـــة خيمـــتى، أحـــد القناديل الزيتية يومض بقربى. أدون يوميـــات العمـــل فى السجل الخاص، مصغياً أيضاً فى الوقت نفسه. يتواصل المزاح والهزل بلغة الحدود المبسطة المفهومة، وهى تتحدث دون ارتباك. أندهش لطلاقة لسانها، خفتها، ثقتها بنفسها. بل إننى أنتبه لنفسى، متوهجاً بالفخر: إنها ليست مجرد أنـــثى الرجل العجوز، إنها ذكية، امرأة شابة جذابة! لو أننى قد عـــرفت كيفيـــة استعمال لغة المزاح التى تبعث السعادة لكانت علاقة بعضنا ببعض قد غدت أكثر صميمية ودفئاً. ولكننى مثل

مغفل، بدلاً من منحها وقتاً طيباً، ضغطت عليها بالهموم. حقاً، إن العالم يجب أن يخص المغنين والراقصين! مرارة غير ذات جـدوى، كآبـة لا قيمة لها، ندم أجوف! أطفئ القنديل، أجلس مرتفقي على قبضتي محدقاً في النار، أصغي إلى قرقرة معدتي.

* * *

أنـام نوم الانهماك المطلق. وعندما أكاد أبزغ إلى الصحو، تـرفع طـرف فـراء الدب الكبير وتدنو مني التماساً للدفء. "الطفـل يستبرد في الليل" - هذا ما أفكر فيه وأنا في حالة من التشوش عقب الصحو، أشدها نحو انحناءة ذراعي، متسللاً إلى نعـاس. ربمـا أسـتغرق مدة من زمن في النوم ثانية. بعدئذ، صاحياً تماماً، أحس بيدها متحسسة تحت ملابسي، لسانها يلحس أذني، موجة من بهجة حسية صياح كل كياني، أتثاءب، أتمطى، وأبتسم في الظلمة. تعثر يداها على ما تبحث عنه، ماذا بشأنه؟ أفكـر. ماذا إن فنينا في منتصف اللامكان؟ دعنا على الأقل لا نمـوت محرومين تعساء! . كانت عارية تحت قميصها، بدفعة كـنت فوقها، إنها دافئة، مفعمة بعاطفة قوية، مستعدة لي، وفي دقيقـة، يزول تردد فارغ استمر أشهراً خمسة وأنا أطفو عائداً إلى حالة من سلوان حسي سلس.

عندما أستيقظ يكون ذلك بذاكرة ممسوحة خالية تماماً بحيث إن الفزع يتصاعد في. لا أقدر إلا بعد بذل جهد متأن من إعادة

نفسى إلى الزمان والمكان: إلى فراش، خيمة، عالم، جسد يمتد شــرقاً وغرباً، وعلى الرغم من كونى منبطحاً عليها بثقل ثور ميت، فإن الفتاة نائمة، ذراعاها ملتفان باسترخاء حول رقبتى. أرخى نفسى عنها، أعيد ترتيب غطائنا وأحاول تهيئة نفسى. لا أتخيــل ولــو للحظة واحدة أننى سأقدر يوم غد على تقويض مخيــم، أن أســير عــائداً إلى الواحـــات، وفى منزل القاضى المشمس، أستقر وأعيش ما تبقى من حياتى مع عروس شابة، أنـــام فى سكون إلى جوارها، أكون أباً لأولادها، أرقب تعاقب الفصـــول. لا أشــعر بالخجل من فكرة أنها لو لم تكن أمضت الأمسية مع رجال شبان حول نار المخيم، فمن المحتمل أنها لم تكــن قد وجدت أى حاجة إلى. ربما إن الحقيقة هى أن واحداً مـــنهم كانت تحتضنه هى عندما أمسكتها بين ذراعى. أصغى مرتاعاً إلى ترددات تلك الفكرة فى داخلى، ولكننى لا أقدر على كشــف غصـــة للقلب تقول لى إننى قد جرحت. تنام هى، تمر يدى إلى الأمام ووراء بطنها الناعمة مربتة على فخذيها. لقد تم الأمـــر، أنـــا مرتاح البال. وفى الوقت نفسه، أنا على استعداد للاعتقاد انه لم يكن سيتم ما لم أكن فى خلال أيام مفارقاً إياها. ولا إن توجب على أن أكون صريحاً، كانت المتعة التى وجدتها فيهـــا، المـــتعة التى ما يزال غصن غارى يستشعر انعكاساتها الـــبعيدة، تسرى عميقا. قلبى لا يثب إليها أكثر من ذى قبل ولا يخفــق دمى عـــند ملمسها. أنا معها ليس من أجل أى نوع من

نشــرة قــد تعذبنى بها أو تمنحها، ولكن لأسباب أخرى والتى ســتبقى غامضـــة بالنسبة لى كما أبداً. ما عدا أنه لم يغب عن ذاكرتى أنه فى الفراش فى الظلام تنسى بسهولة العلامات التى تــركها عليها من قاموا بتعذيبها، القدم الملتوية والعينان نصف العميــاوين. هــل أن القضية إذن أنها المرأة الكاملة هى التى أريــد، وأن متعــتى فيها تسلب ما لم تمح عنها هذه العلامات وتعــود كما كانت، أم إن القضية (لست بأبله، دعونى أقل هذه الأمــور) ان هذه العلامات عليها هى التى جذبتنى إليها ولكن لخيــبة أملى، أكتشف أنها لا تمتد إلى عمق كافٍ؟ كثير جداً أو قليل جداً: هل هى التى أريد أم آثار تأريخ يحمله جسدها؟ أبقى مستلقياً مدة طويلة محدقاً فى ما يبدو منحدر سواد، على الرغم مــن أنــنى أعرف أن سقف الخيمة لا يبعد غير ذراع فقط. لا فكــرة أنعــم الــنظر فيها، لا لفظ، إلى أى هدى كان مناقضاً، لمصدر رغبتى يبدو مقلقاً بالنسبة لى. أفكر، لابد أننى متعب. أو ربما مهما يكن الملفوظ واضحاً فإن التعبير عنه يكون زائفاً، تتحرك شفتاى بصمت، مشكلة ومعيدة تشكيل الكلمات. أو ربما إنها القضية الوحيدة إلى حد بعيد التى لم تلفظ بل التى تجب أن تعاش بكل ما فى الكلمة من معنى. أتفرس فى هذا الافتراض دون ان أســتبين فى نفســى أى نزعة استجابة نحو موافقة أو معارضة. تصبح الكلمات أكثر وأكثر غموضاً أمامى. سرعان مــا تكــون قــد فقدت معناها. أتنهد فى نهاية يوم طويل، فى

منتصـــف ليــلة طويلة. ثم أستدير إلى الفتاة، أحتضنها، أشدها بقوة إليّ تخرخر فى نومها، حيث سرعان ما انضممت إليها.

* * *

نـــرتاح فى اليوم الثامن، إذ إن الخيول الآن فى حالة يرثى لهـا. وهى تـلوك بجـوع أنسجة بلا عصارة لسيقان القصب الميتة. إنها تنفخ بطونها بالماء وتخرج ريحاً بقوة. لقد أطعمناها آخر ما لدينا من بذر الكتان وحتى جزء من خبزنا. وما لم نجد مرعى لها فى خلال يوم أو يومين، فإنها ستنفق.

* * *

نـترك خلفاً بئرنا، والرابية التى قمنا بحفرها، نحث السير شـمالاً. كل واحد منا ماشٍ ما عدا الفتاة. لقد تخلينا عن كل ما فى اســتطاعتنا من أجل تخفيف أحمال الخيول، ولأننا لا نقدر الـبقاء على قيد الحياة من غير نار، فما زال عليها نقل حمولة ثقيلة من الخشب.

أسأل دليلنا، متى سنرى الجبال؟

يـوم واحد أو يومان. من الصعب القول. لم أسافر فى هذه الأرجاء من قبل. لقد مارس الصيد على طول الساحل الشرقى للبحيرة والحدود الخارجية للصحراء دونما حاجة إلى اجتيازها. انتظر أنا، مانحاً إياه كل فرصة لشرح ما يدور فى ذهنه، ولكنه

لا يـــبدو قلقاً، وهو لا يعتقد أننا فى خطر. ربما يومان قبل أن نصـــلها، ثـــم يوم آخر من السير قبل الوصول إليها . يغمض عيـــنيه نصف إغماضه، متطلعاً فى الضباب البنى الذى يغلف الأفق، إنه لا يسأل عما سنفعله عند وصولنا الجبال.

نصـــل نهاية الأرض المسطحة الحصباء ونصعد سلسلة من أخـــاديد صـــخرية إلى سهل فسيح، حيث تبدأ نتوءات لحشائش ذابـــلة تظهـــر لـــلعيان. تعدو الحيوانات إليها باندفاع وحشى. رؤيتها تأكل، أمر نقابله بارتياح كبير.

أســـتيقظ مجفـــلاً فى منتصـــف الليل، ممتلئاً بإحساس مليح بوجود خطأ ما. تجلس الفتاة بجوارى، تقول، ما الأمر؟

أصغى، لقد توقفت الريح .

حافية، ملتفة بالفراء، تزحف خلفى إلى خارج الخيمة. الثلج يتســـاقط بنعومة. الأرض مستلقية بيضاء فى كل الجهات تحت بـــدر مضبب. أساعدها فى الوقوف على قدميها وأقف ممسكاً إياهـــا، متطلعاً فى الفضاء الذى تتساقط منه الندف الثلجية، فى صـــمت محسوس بعد أسبوع من رياح تدوى دونما توقف فى آذانـــنا. ينضم إلينا رجال الخيمة الثانية. نبتسم ببلاهة لبعضها البعض. أقول، ثلج الربيع، آخر ثلوج العام . يهزون رؤوسهم إيجاباً. حصان يهز نفسه بالقرب منا، يجعلنا نجفل.

محـــتجزان بســـبب الثلج فى الخيمة الدافئة، أمارس الحب معها. إنها سلبية، تكيف نفسها لى.

عـــندما نبدأ أكون واثقاً من أن الوقت ملائم: أحتضنها بأشد وأكـــثف رغبة وبزهو الحياة. ولكن فى منتصف طريقى أبدو فاقداً الإحساس بها، ويتلاشى الفعل فى فراغ. بديهيات بوضوح عرضـــة للخطأ. ومع ذلك، فإن قلبى يستمر فى التوهج محبة تجـــاه الفتاة والتى سرعان ما تنام عند انحناءة ذراعى. ستكون هناك فرصة أخرى، وان لا تكن، فلا أعتقد بأننى سأهتم.

* * *

صـــوت يـــنادى عبر شق مدخل الخيمة: سيدى، يجب أن تستيقظ!

انتبه بارتباك إلى أننى قد نمت أكثر مما يجب. إنه السكون، أفكر مع نفسى: يبدو الأمر وكأنما قد هدأنا فى السكون'.

أبـــزغ مـــن الخيمـــة إلى ضوء النهار. يقول الرجل الذى أيقظـــنى، مشيراً نحو الشمال الشرقى، انظر سيدى، جو سيئ فى الطريق!

مـــتدحرجة نحونا فوق السهل الثلجى، موجة سوداء هائلة. إنهـــا مـــا تـــزال على مبعدة أميال عنا ولكنها بوضوح تبتلع الطريق فى اقترابها. قمتها ضائعة فى الغيوم المضببة. أصرخ،

عاصــفة! . لــم أر من قبل شيئاً مخيفاً مثلها. يسرع الرجال لــتقويض خيمهم. اجلبوا الخيول إلى الداخل، قيدوها هنا بحبل طويــل، في الوســط! أولى الهبات تصلنا تواً، الثلج يبدأ يدوم ويرفرف في الهواء.

الفتاة بجواري على عكازيها. أقول، هل بإمكانك رؤيتها؟ . تــنظر بطريقــتها الملتوية وتومئ برأسها. يبدأ الرجال العمل مقوضين الخيمة الثانية. الثلج بعد كل ذلك لم يكن علامة طيبة. لا تجيــب. على الرغم من معرفتي بوجوب تقديم مساعدتي، فإنــني لا أستطيع أن انتزع عينيي من الجدار الأسود المزمجر القادم نحونا بسرعة حصان يجري عدواً. تعلو الريح، مسقطة إيانا أرضاً، الولولة المعهودة ثانية في آذاننا.

اســتحث نفسي. أصيح، بسرعة، بسرعة! ، مصفقاً بيدي. يجلس أحد الرجال على ركبتيه يطوي الخيمة، يلف قطع اللباد، يــرص أغطية الفراش. ينهمك الاثنان الآخران بجلب الخيول إلى الداخــل. اجلسي! أصرخ بالفتاة، وأتدافع لتقديم المساعدة في الرزم. جدار العاصفة لم يعد بلون أسود بل دوامة مشوشة مــن رمــل وثلج وتراب. ثم ومرة واحدة تتصاعد الرياح في صــرخة، تطيــر قبعتي عن رأسي، وتضربنا العاصفة. أسقط منــبطحاً عــلى ظهري. ليس بفعل الرياح بل من قبل حصان يــتحرر مــن قيده ويتخبط هنا وهناك، أذناه منبسطتان وعيناه تتقلبان. أصيح، امسكوا به . كلماتي هي لا شيء غير همسة،

لا أستطيع أنا نفسى سماعها. يتلاشى الحصان عن البصر مثل شــبح. تدور الخيمة فى اللحظة نفسها، عاليا فى السماء. أقذف بنفســى فــوق حزمة اللباد، ممسكا بها أرضاً، مهمهماً بغضب لنفســى. ثم على يدى وقدمى، ساحباً اللباد، أعود ببطء باتجاه الفــتاة. الأمر أشبه بالزحف ضد تيار مائى جار. قد سدت تواً، بالرمال عيناى، أذناى، فمى، ألهث كى أتنفس.

تقــف الفــتاة ويداهــا مبسوطتان مثل جناحين فوق رقبتى حصــانين تــبدو كأنها تتحدث معهما: وعلى الرغم من توهج مقلتيهما، فانهما ساكنان.

ذهبت خيمتنا! أصرخ فى أذنها، ملوحاً بذراع تجاه السماء. تســتدير: وجهها تحت القبعة ملفوف بوشاح أسود، مغطياً حتى عينيها. أصيح ثانية، خيمة قد ذهبت! . تومئ برأسها.

نجثم خمس ساعات خلف خشب الوقود والخيول بينما تجلدنا الــريح بالثــلوج، الجليد، المطر، الرمل، الحصى. نتوجع برداً حــتى العظام تماماً. خواصر الخيول التى تواجه الريح، مغطاة بطــبقة من جليد. نحتشد معاً، إنساناً وحيواناً، متقاسمين دفئنا، محاولين الصمود.

بعدئذ فى منتصف النهار تنسحب الريح فجأة وكأنما بوابة قد أغلقت فى مكان ما. ترن آذاننا فى الهدوء غير المألوف. يجب علينا تحريك أطرافنا الخدرة، تنظيف أنفسنا من الأتربة، تحمل

الحيوانات، وأن نعمل لجعل الدم يجرى فى عروقنا، ولكن كل ما نريده هو ان نستلقى مدة أطول فى مكمننا. خمول منحوس! ينقشط صوتى عن بلعومى، تعالوا أيها الرجال، دعونا نحمّل .

ارتفاعات محدبة فى الرمال تدل على أماكن متاعنا المبعثر المدفون. نبحث مع اتجاه الريح لكننا لا نجد علامة ما تدل على خيمتنا المفقودة. نساعد الخيول الصارة على الوقوف ونحملها. بــرودة العاصفة تعد صفراً قياساً للبرودة التى أعقبتها، والتى تســتقر علينا مثل حجاب كثيف من جليد فوقنا. تتحول أنفاسنا إلى قشــرة جــليدية، نرتعش فى داخل أغطيتنا الواقية. ينهار الحصــان الأول بعــد ثلاث خطوات مرتبكة متأرجحة، يسقط عــلى جــزئه الخلفى: نرمى جانباً وقود الخشب الذى يحمله، نوقفه على قدميه بقائم، نضربه بالسياط. أشتم نفسى، ليس للمرة الأولى، لخــروجى للسفر فى رحلة شاقة مع دليل غير موثوق فى موسم غدار.

* * *

اليــوم العاشر: جو أدفأ، سماءات أصفى، رياح أعذب. نغذ الســير عــبر أراض منبســطة، عندما يصرخ دليلنا ويشير. الجبال!' أنعم النظر ويثب قلبى. ولكنها ليست الجبال تلك التى يــراها. البقع التى يشير إليها فى البعد هم رجال، رجال على ظهــور الخيل: من غير البرابرة! أستدير نحو الفتاة، التى أقود

مطيــتها البطيئة الحركة. أقول، لقد وصلنا تقريباً. هناك أناس أمامنا، سنعرف سريعاً من هم . غم الأيام الماضيات يرتفع عن كاهــلى. متحركاً إلى المقدمة، مسارعاً خطواتى، أدير مسيرتنا تجاه الشخوص الثلاثة الضئيلة فى البعد.

نشــد السير نحوهم قرابة نصف ساعة قبل أن ندرك أننا لا نقــترب البــتة مــنهم. كــلما نــتحرك يتحركون أيضاً. انهم يتجاهلونــناً. أفكر فى ذلك وأرى اللجوء إلى إيقاد نار. ولكننى عــندما أطلب توقفاً، تتوقف البقع الثلاث، وعندما نعاود سيرنا، يــبدأون هم بالحركة. أتعجب، هل هم انعكاسات لنا، هل إنها خدعــة الضياء؟ لا نقدر على سد الفراغ بيننا. كم مضى على تعقبهم إيانا؟ أم تراهم يعتقدون بأننا نتعقبهم؟

أقول للرجال، توقفوا، لا فائدة من ملاحقتهم، دعونا نر إن أرادوا مقابلة واحد منا على انفراد . وهكذا أمتطى حصان الفتاة وأســير منفرداً نحو الغرباء. لوهلة قصيرة يبدون ساكنين بلا حراك، يراقبون وينتظرون. يبدأون فى التراجع بعدئذ يومضون عــلى حافــة الغبار الضبابى. حصانى ضعيف جدا غير قادر الأعــلى الســير خبــباً عــلى الرغم من حتى إياه أتخلى عن المطاردة، أنزل عن الحصان، وأنتظر وصول رفاقى إلىّ.

من أجل المحافظة على قوة الخيول بدأنا نجعل سيرنا أقصر وأقصر. لا نقطع فى سيرنا أكثر من ستة أميال فى عصر ذلك

اليــوم عبر تضاريس أرض منبسطة صلبة، وباستمرار يحوم راكــبو الخيول الثلاثة ضمن مدى رؤيتنا، قبل أن نقيم مخيما. أمام الخيول ساعة من الزمن للرعى على الحشائش المنخفضة الضئيلة التى قد توجد، بعدها نقوم بربطها فى حبل طويل إلى الخيمـــة ونقيــم حارساً عليها. يسقط الظلام، تبزغ النجوم فى ســماء مضــببة. نســتلقى حــول نار المخيم نلتمس الدفء، مســتمتعين بآلام الأطراف المتعبة، متحاشين التجمع فى خيمة واحــدة. بوسعى أن أقسم، متفرساً شمالاً على استطاعتى رؤية وميــض نـــار أخرى، ولكننى عندما أحاول تحديدها للآخرين، يكون الليل حالك السواد غير قابل للنفاذ.

يــتطوع الــرجال الــثلاثة للــنوم خارج لخيمة، متناوبين المراقــبة. أتأثــر لما بدر منهم. أقول، بعد بضعة أيام، عندما يكون الجو أدفأ . ننام ملء جفوننا، أربعة أجساد محشورة معاً فى خيمة واحدة تكفى اثنين، الفتاة باحتشام فى الطرف الأبعد.

أســتيقظ قــبيل الفجر متفرساً صوب الشمال. بينما تتحول الألوان الحمراء – الوردية والبنفسجية الزاهية لشروق الشمس إلى الــلون الذهبى، تتجسد البقع مرة أخرى على الوجه الأسود للســهل، ليــس ثلاثاً منها ولكن ثمان، تسع، عشر، ربما اثنتى عشرة.

بعمــود وقطعـــة من قميص كتانى أبيض، أعمل راية وأسير

عــلى حصـــان متوجها نحو الغرباء. لقد توقفت الريح، الهواء صاف، أعد وأنا في طريقي: اثنا عشر شكلاً صغيراً على جانب مـــرتفع وعلى مسافة بعيدة خلفهم الأساس الباهت الشبحي لزرقة الجــبال. وبينما أرقب أنا، تبدأ الأشكال بالتحرك. يتجمعون في خط الواحد خلف الآخر ومثل نمل يتسلقون المرتفع. عند الحافة يتوقفون. تحجبهم موجة من غبار ثم يظهرون مجدداً. اثنا عشر راكــباً عند خط السماء. أغذ السير، والراية البيضاء تخفق فوق كــتفي. ومع أنني أبقي بصري ثابتاً على الحافة، فإنني أفشل في الانتباه إلى اللحظة التي اختفوا فيها.

أقــول لمجموعــتي، عليــنا ببساطة إهمالهم . نحمل ثانية ونعــاود السير نحو الجبال. يحز قلوبنا اللجوء إلى السياط من أجــل تحميل حيواناتنا الضامرة، مع أن الأحمال تزداد خفة في كل يوم.

تــنزف الفتاة، ذلك الوقت من الشهر قد حل عليها. لا تقدر عــلى إخفاء الأمر، لا خصوصية تمتلكها، وليست هناك مجرد شــجيرة للاختفاء خلفها. إنها مرتبكة والرجال مرتبكون. إنها القصــة القديمة: تدفق دم من المرأة فأل سيئ، سيئ للحصاد، سيئ للصيد، سيئ للخيول. يزدادون كآبة: يريدون إبقاءها بعيداً عــن الخيــول، الأمر لا يمكن لا يريدونها أن تلمس طعامهم. خجــلة، تبقى وحدها طوال النهار لا تنضم إلينا لطعام العشاء.

.

بعـد أن أنتهى من طعامى، آخذ إناء من الفاصوليا وكمية من لقمة القاضى إلى الخيمة حيث تجلس.

تقـول، ألا يتوجب عليك لقيام بخدمتى، وعلى أن لا أبقى حتى فى الخيمة. ولكن لا يوجد مكان آخر للذهاب إليه . إنها لا تجادل فى أمر استثنائها.

أقـول لها، لا بأس عليك . ألمس بيدى خدها. أجلس برهة من الزمن أرقبها وهى تأكل.

انـه عبث فى إقناع الرجال بالنوم فى الخيمة معها. ينامون فى الخـارج، محتفظين بالنار مشتعلة، متناوبين الحراسة. فى الصباح، من أجلهم، أمر عبر طقوس تطهير مختصرة مع الفتاة (لانـنى لـم أعـد طاهراً بعد نومى معها فى خميمة واحدة): بواسـطة عصـا أرسم خطاً على الرمال، أقودها لتعبر عليه، أغسـل يديهـا ويدى، ثم أقودها عائداً، عبر الخط إلى الخيمة. تدمدم، يجب عليك أن تفعل الشىء نفسه ثانية صباح يوم غد . فى الأيام الاثنى عشر للطريق، ازددنا قرباً أكثر من العيش معاً فى مكان واحد أشهراً.

لقـد وصـلنا التل عند سفح الجبل. الفرسان الغرباء يكدون السير على مسافة بعيدة عنا أعلى القاع الملتوية لجدول جاف. لقـد توقفنا عن محاولة اللحاق بهم. ندرك الآن أنهم فى تتبعهم لنا، يقومون أيضاً بإرشادنا.

كــلما ازدادت التضـــاريس صـــخرية، ازداد بـــطء تقدمنا وتباطأت سرعتنا. عندما نتوقف للراحة، أو نفقد مرأى الغرباء في التواءات الجدول، لا يساورنا الخوف من اختفائهم.

فمـــا بعـــد، متســـلقين أخدوداً، متملقين الخيول، نجهد وندفع ونشـــد، نجـــد أنفسنا فجأة فوقهم. من مكان خلف الصخور، من خارج أخدود غير ظاهر، يظهرون للعيان، رجال يمتطون جياداً صـــغيرة شـــعثاء، اثنا عشر أو أكثر، يرتدون معاطف من جلد خـــروف، ســـمر الوجوه، برونزية بفعل تأثير العوامل الجوية، ضيقو العيون، البرابرة بلحمهم على أرضهم. أنا قريب إلى الحد الـــذى أشـــمهم فيه من حيث أنا واقف: عرق جياد، دخان، جلد نصـــف مدبـــوغ. أحدهم يشير إلى صدري ببندقية قديمة يطول رجل تقريباً، بمسند ذى ركيزتين مثبتة قريباً من الفوهة. يتوقف قلـــبى. أهمـــس، لا : وبحـــذر متقن. أسقط عنان الحصان الذى أقـــوده، وأعـــرض يدين خاليتين. بينما أدير ببطء ظهرى أتسلم العـــنان، ومـــنحدراً ومـــنزلقاً على ركام الحجارة أقود الحصان الخطوات الثلاثين نازلاً إلى سفح الأخدود حيث ينتظر رفاقى.

الـــبرابرة، واقفون والخطوط الخارجية لإشكالهم تبرز قبالة الســـماء فرقـــنا. هناك ضربات قلبى، لهاث الخيول، تأوهات الريح، ولا صوت آخر. لقد تجاورنا حدود الإمبراطورية. انها ليست اللحظة التى يتعامل معها بسهولة.

أســـاعد الفتاة فى النزول عن حصانها. أقول، أصغى جيداً، ســـآخذك إلى أعـــلى المـــنحدر وبإمكانك التحدث إليهم. خذى عكـــازيك، الأرض رخوة، لا يوجد طريق آخر للصعود، بعد انـــتهاء كلامك معهم، بإمكانك أن تقررى ما تريدينه. إن أردت الذهاب معهم، إن أرادوا إعادتك إلى عائلتك، اذهبى معهم. إن قـــررت العودة معنا، بإمكانك العودة معنا. هل تفهمين؟ اننى لا أرغمك. تومئ. إنها متوترة جداً.

بذراع واحدة حولها، أساعدها فى صعود منحدر الحصباء. لا تـــبدر حـــركة ما من البرابرة. أعد ثلاثا من البنادق ذوات الماســـورة الطويـــلة، وما عدا ذلك يحملون الأقواس القصيرة المألوفة بالنسبة لى. وعندما نصل القمة يتراجعون قليلاً.

أقول لاهثاً، هل بإمكانك رؤيتهم؟

تدير رأسها بتلك الطريقة الغريبة غير المحفزة، تقول، ليس جيداً.

عمياء: ما هى الكلمة المرادفة لعمياء؟

تخبرنى. أخاطب البرابرة. أمل، عمياء ، متلمساً جفنى. لا تصـــدر عـــنهم استجابة ما. البندقية المستقرة بين أذنى الجواد الصـــغير مـــا تزال مسددة نحوى. عينا صاحبها تتألقان فرحاً. يطول الصمت.

أقول لها، تحدثى إليهم، قولى لهم لماذا نحن هنا. احكى لهم قصتك. قولى لهم لحقيقة .

تتطــلع جانبياً نحوى وترتسم على وجهها ابتسامة صغيرة. هل تريدنى حقا أن أقول لهم الحقيقة؟

قولى لهم الحقيقة. ماذا هناك غيرها للقول؟

الابتسامة لا تفارق شفتيها. تهز رأسها، تحتفظ بصمتها.

قــولى لهــم ما يعجبك. لكن. الآن وقد عدت بك إلى أبعد مســافة أســتطيع الوصول إليها، أود أن أسألك وبوضوح تام العــودة إلى البلدة معى. حسب لختيارك المحض . أقبض على ذراعها وأضيف، أهل تفهمين؟ ذلك ما أريده .

لمــاذا؟ الكلمة تسقط من بين شفتيها بنعومة مميتة. تعرف أنهــا تزعجــنى، وقــد أزعجتنى منذ البداية. يتقدم الرجل ذو البــندقية ببطء حتى يكاد يصل إلينا. تهز رأسها. لا. إننى لا أريد أن أعود إلى ذلك لمكان .

أندفــع نــازلاً المنحدر. أقول للرجال، أوقدوا النار، اغلوا الشــاى، ســنتوقف هنا ، من فوق يصلنى حديث الفتاة المتدفق الــناعم المــتقطع بفعــل لريح. تنحنى على عكازيها، الرجال يــنزلون عن خيولهم ويتجمعون حولها. لا أقدر أن أفهم كلمة واحــدة. أفكــر، يــا لمضــيعة الوقت، كان بإمكانها تمضية

الأمسيات الطويلة الخالية بتعليمى لغتها! الآن قد فات الأوان .

* * *

مـــن خرج السرج، أخرج الطبقين الفضيين الكبيرين اللذين حملـــتهما معى عبر الصحراء. أخرج قطعة ملفوفة من قماش حريـــرى طولهـــا ٤٠ يـــاردة(*)، أقــول، أود أن تتقبلى هذه الحاجيات . أرشد يدها كى تقدر على تلمس نعومة الحرير، ثم متلمســـة الطـــبقين، المحفور عليهما اسمان وأوراق شجر. كما جلـــبت أيضاً رزمتها الصغيرة. لا أعرف ماذا تحوى. أضعها على الأرض. هل سيأخذونك كل الطريق؟

تـــومئ برأسها، يقول مع حلول منتصف الصيف. يقول إنه أيضاً يريد حصاناً، لى .

قولى له بأن أمامنا طريق طويل وصعب. واسأليه، إن كان فى استطاعتنا شراء جياد منهم بدلها. قولى إننا سندفع بالفضة .

تـــترجم لـــلرجل العجـــوز بينما أنتظر أنا ينزل رفاقه عن جيـــادهم ولكـــنه ما يزال جالساً على حصانه، البندقية الكبيرة القديمـــة فى حمالتها فوق ظهره. ركاب السرج، السرج، اللجام الزمام: غير معدنية، بل من عظم وخشب مقسى بالنار قد خيط

(*) Bolt : ٤٠ باردة.

بأوتـــار أمعـــاء وثـــبت بأسيرة جلدية. أجساد مغطاة بالصوف وجـــلود حيوانـــات قد تغذت منذ طفولتها على اللحم والحليب، غريبة على رقة ملمس الكتان، مزايا الحبوب والفوكه: هؤلاء هم الناس الذين أرغموا على لدفع بعيداً عن السهول إلى الجبال مـــع اتســـاع الإمبراطورية. لم ألتق أنا من قبل بشماليين على أرضـــهم على أسس متكافئة: البرابرة الذين أعرفهم هم أولئك الذين يزورون الواحات من أجل المقايضة، والقلة التى تقيم فى مخيم على طول النهر وأسرى حول البائسين. أى مناسبة وأى عـــار أيضاً أن أكون هنا فى هذا اليوم! فى يوم ما سينظم من يخلفوننى مجموعات من نتاج مصنوعات هؤلاء الناس: رؤوس ســـهام، مقابض سكاكين محفورة، أوانى خشبية، للعرض إلى جوار بيوض طيور، وأحجية خطية. وها أنا هنا أرفع العلاقات بين رجال المستقبل ورجال الماضى، عائدا بأعذار، جسد قمنا بامتصاصه حتى الجفاف – وسيط، ثعلب إمبراطورية فى ثياب نعجة!

يقول لا .

أتـــناول واحداً من القضبان الفضية من كيسى وأمسكه عالياً لـــه. قولى هذا مقابل حصان واحد . ينحنى إلى الأمام، يتناول القضـــيب اللامـــع، ويحذر يعض عليه، ثم يختفى القضيب فى داخـــل جيـــبه. يقـــول لا. الفضة فى مقابل الحصان الذى لن يـــأخذه. إنـــه لـــن يأخذ حصانى، يأخذ الفضة بدلاً عنه . أفقد

أعصـــابى تقريباً، ولكن ماذا ستفيد المماحكات؟ إنها ذاهبة، لقد ذهــبت تقريــباً. هذه هى المرة الأخيرة للنظر جلياً إليها وجهاً لوجه، ُن أتفحص ميول قلبى، محاولاً أن أفهم من تكون حقاً. وبعدها، عرف أنى سأبدأ بإعادة تشكيلها من خلال ذخيرة من ذكريات على وفق رغباتى المشكوك فيها، ألمس خدها، أتناول يدهـــا. عـــند أطراف هذا التل المنحدر البارد جداً فى منتصف الصــــباح لا أقدر العثور فى داخلى على أى أثر من تلك الآثار الحســية المخـــدرة الـــتى اعتادت على جذبى ليلة بعد ليلة إلى جسدها أو حتى مشاعر رفقة الطريق. هناك فراغ فقط وحزن بســـبب حتمية وجود مثل هذا الفراغ. عندما أشدد قبضتى على يدهـــا، لا أجـــد استجابة. أبصر فقط بوضوح تام ما أراه: فتاة ممتلـــئة الجسم بفم عريض وشعر ذى قصة على الجبين تتطلع مـــن فوق كتفى نحو السماء، غريبة، زائرة من مناطق غريبة فى طريقها الآن إلى بيتها بعد زيارة لا يمكن وصفها بالسعيدة. أقـــول، مع السلامة . تقول، مع السلامة . لا حياة فى صوتها اكثر من تلك التى فى صوتى. أبدأ النزول منحدراً، وفى الوقت الذى أصل فيه إلى السفح كانوا قد أخذوا العكازين منها وأخذوا يساعدونها فوق متن جواد صغير .

* * *

بقـــدر مـــا يكون المرء متأكداً، فإن الربيع قد أقبل، الهواء

عليل. الأطراف الخضراء لحشيش جديد بدأ يبرز هنا وهناك، هبات من طيور السمان تتطارد أمامنا. لو كنا قد غادرنا اليوم الواحـات بـدلاً من أسبوعين ماضيين لكنا قد سافرنا بصورة أسـرع ولـم نكن قد خاطرنا بحياتنا. من جهة أخرى، هل كنا محظوظيـن بما فيه الكفاية للعثور على البرابرة؟ أنا واثق من انهـم فى هذا اليوم بالذات يطوون خيامهم، يحمّلون عرباتهم، يجمعون مواشيهم تحت تأثير السياط من أجل هجرة الربيع. لم أكـن مخطئاً فى تحمل المخاطرة، على الرغم من معرفتى بأن الـرجال يلومونـنى. (أن يجلبـنا إلى هنا فى الشتاء أتخيلهم يقولـون. كـان علينا عدم الموافقة بتاتاً! وما الذى يجب أن يفكـروا به الآن بعد أن أدركوا أنهم لم يكونوا جزءاً من بعثة إلى البرابرة كما ألمحت ولكنهم وببساطة حماية لامرأة، سجينة بربـرية كـانت تـركت خلفاً، مخلوق لا أهمية له، مومـس القاضى؟)

نحـاول إعادة تتبع أثر طريقنا القديم بالدقة الممكنة، اعتماداً على المعرفة بالنجوم. لقد كنت دقيقا فى تعيين مواقعها. الريح خلفنا، الجو أدفأ، أحمال الخيول أخف، نعرف المكان الذى نحن فيه، ليس هناك من سبب يحتم علينا عدم السفر بسرعة. ولكن عند استراحة الليلة الأولى تقع انتكاسة. أستدعى إلى موقع نار المخيـم حيث يجلس أحد الجنود الشباب مهموماً واضعا رأسه بين يديه. كان قد خلع حذائيه، رباطى قدميه غير مشدودين.

يقول دليلنا، انظر إلى قدميه، سيدى .

القـــدم اليمـــنى متورمة وملتهبة. اسأل الفتى، ما الخطأ؟ . يرفع قدمه ويرينى كعباً مغطى بفشرة متصلبة من دم وصديد. بل وحتى أشم رائحة تلوث فى رباط القدم وأتبين رائحة تعفن.

أصـــيح، مـــنذ متى وقدمك على هذه الحالة؟ يخفى وجهه. لمـــاذا لـــم تقل شيئاً؟ ألم أوصكم جميعاً بوجوب الحفاظ على أقدامكم نظيفة، وأن تغيروا جواربكم بين يوم وآخر وأن تقوموا بغسلها، ان تضعوا مرهماً على البثور وتربطوها؟ لقد أعطيت تـــلك التعـــليمات لســـبب مـــا! كيف يمكننا لسفر وقدمك بهذا الوضع؟

الفتى لا يجيب يهمس أحد رفاقه، إنه لم يرد إعاقتنا .

أصـــيح، انه لم يرد إعاقتنا ولكنه الآن فى حاجة إلى عربة لـــنقله طـــوال طريق العودة. اغلوا ماء، راقبوا قيامه بتنظيف قدمه ولفها بضماد!

أنـــا عـــلى حـــق. فى اليوم التالى، عندما حاولوا مساعدته لارتـــداء حذائـــه طويـــل الرقبة، لم يستطع إخفاء ألمه. بقدمه المضـــمدة الموضـــوعة والمربوطة بكيس، لم يقدر على السير عرجاً فوق الأرض الممهدة ولكن كان عليه الامتطاء فى معظم مراحل الطريق.

سـنكون جميعـنا سعداء عند انتهاء هذه الرحلة. لقد سئمنا رفقة بعضنا لبعض.

فى اليـوم الـرابع نخترق قعر البحيرة الميتة ونتتبعها نحو لجـنوب – الشـرق عـدة أميـال قبل أن نصل بئرنا القديمة ومجموعة أشجار الحور اليابسة عندها. نرتاح هناك مدة يوم، لنسـتجمع قوانا للمرحلة الأصعب. نقلى زاداً من كعكة دهنية ونسلق آخر إناء مملوء من فاصوليا طعاماً للخيول.

ابـقى مـنعزلاً. يتحدث الرجال بأصوات منخفضة وعندما أقترب منهم، يخيم الصمت عليهم. الإثارة المنبثقة من البعثة قد زالت برمتها، ليس فقط لأن ذروتها كانت مخيبة للآمال – هذر فى الصـحراء سـالكين الطريق نفسه – بل لأن حضور الفتاة كان قد استحث الرجال إلى عرض مظاهر الذكورة، فى منافسة أخوية أخذت تزول الآن متحولة إلى تهيج واكتئاب موجه طوعاً أو كـرهاً ضدى لأخذى إياهم فى رحلة متهورة، ضد الخيول بسـبب حرونـتها، ضد رفيقهم صاحب القدم المتقيحة لإعاقته إيـاهم، ضـد المعوقـات التى عليهم تحملها، بل وحتى ضد أنفسهم. أضرب لهم مثلاً بمد فراشى الملفوف بالقرب من النار تحـت النجوم مفضلاً برودة الهواء الطلق على الدفء الخانق لخيمـة مـع ثلاثـة رجال ساخطين. فى الليلة التالية، اختار الجميع، دون تفكير طويل ترك الخيمة، ونمنا جميعاً خارجها.

مــع حلول اليوم السابع نشق طريقناً عبر قفار ملحية. نفقد حصــاناً آخــر. الرجال منهكون من رتابة الفاصوليا والطحين المســمن، يســألون ذبحه للطعام، أوافق على طلبهم ولكننى لا أنضــم إليهــم. سأمضى قدماً مع الخيول ، أقول لهم. لأدعهم يستمتعون بوليمتهم. دعنى لا ُمنعهم من تخيل أنها رقبتى التى يقطعونها، وأحشائى التى يمزقونها، وعظامى التى يكسرونها. ربما سيكونون بعد ذلك أكثر مودة.

أتذكــر بحــنين الــروتين المــألوف لواجباتى، مع قتر ب الصــيف، والقيلولات الطويلة الحالمة، محادثاتي مع الأصدقاء ســاعة لغســق تحــت أشجار الجوز، وفتيان يجلبون الشاى وعصير الليمون المسكر والفتيات الجديرات بالإعجاب يتنزهن أمامنا فى الساحة اثنتين معاً أو ثلاث وهن بملابسهن الأنيقة. لم تمــض غيــر أيام فقط على مفارقتى الفتاة الأخرى، وأجد أن وجهها يتصلب أكثر فى ذاكرتي، يصبح كامداً غير نافذ، وكأنها تفرز محارة فرق نفسها. سائراً بتثاقل عبر المملح أنتبه لنفسى فى لحظة اندهاش كيف أننى تمكنت من حب واحدة من مملكة بعيدة جداً. كل ما أريده الآن هو أن أعيش بقية حياتى فى راحة واطمئنان فى عالم مألوف، أن أموت فى فراشى وأن أشيع إلى القبر من قبل أصدقائى القدامى.

* * *

من مسافة بعيدة تقارب عشرة أميال، نستطيع تمييز نتوءات أبراج المراقبة تواجه السماء، فى الوقت الذى ما زلنا فيه على الطريق الجنوبى للبحيرة فإن اللون الأصفر للجدران يعزلنا عن الخلفية لرمادية للصحراء. ألقى نظرة سريعة على الرجال من خلفى. إنهم أيضا يسارعون الخطى، يكادون غير قادرين على إخفـــاء انفعـــالهم. نحـــن لم نغتسل أو نغير ملابسنا منذ ثلاثة أســـابيع، رائحتـــنا قـــذرة، بشرتنا جافة متغضنة بالسواد بفعل التعرض للريح والشمس، نحن مجهدون، ولكننا نسير كالرجال، حتى الفتى الذى يمشى الآن متثاقلاً على قدمه المضمدة وصدره يسبقه.

ربمـــا، كان من الممكن أن يصبح الأمر أفضل، ولكن كان من الممكن أن يصبح أسوأ. حتى الخيول، التى انتفخت بطونها بحشائش المستنقعات، تبدو وكأنها عادت إلى الحياة.

براعم الربيع بدأت تظهر فى الحقول، الألحان الواهنة لبوق تصل أسماعنا، فريق الترحيب من راكبى الجياد يتقدمون عبر الـــبوابة، الشمس تنعكس عن خوذهم. نبدو مثل فزاعات: كان الأمر سيبدو أفضل لو كنت أخبرت الرجال أن يرتدوا دروعهم فى هـــذه الأميال القليلة المتبقية. أرقب راكبى الجياد فى خببهم نحونا، متوقعا منهم فى أى لحظة التغيير إلى الغدر، أن يطلقوا بـــنادقهم فى الهواء وأن يصيحوا. ولكن سلوكهم يبقى نظاميا،

انهـــم ليسوا بفريق ترحيب على الإطلاق. أبدأ بالإدراك، ليس هناك أطفال يتراكضون خلفهم: ينقسمون قسمين ويحيطون بنا، لا يوجـــد بينهم وجه واحد أعرفه، أعينهم خالية من التعبير، لا يجيـــبون عن أسئلتى ولكنهم يسيرون بنا عائدين كسجناء عبر البوابة المفتوحة.

آخـــر الأمـــر حيـــن نظهر للعبان فى الساحة ونرى الخيام ونســـمع الـــلغط نفهـــم: أن الجيش هنا، الحملة الموعودة ضد البرابرة تمضى فى التقدم.

* * *

٤

يجلس رجل إلى منضدتى فى المكتب خلف قاعة المحكمة. لـــم أره من قبل مطلقاً ولكن علامة على سترته الأرجو نية – الزرقاء تقول لى انه ينتمى إلى المكتب لثالث للحرس المدنى. كميـــة مـــن الملفات البنية مرزومة بأشرطة وردية تستقر عند مرفقه، أحدها مفتوح أمامه. أتعرف على الملفات: انها تتضمن تقارير عن الضرائب والجباية، تعود إلى ما قبل خمسين عاماً. أيقـــدر هو حقاً على القيام بتدقيقها؟ ما الذى يبحث عنه؟ أتكلم: هل هناك من أمر ما أستطيع مساعدتك فيه؟

يتجاهلنى هو والجنديان المتصلبان اللذان يومان بحراستى، يـــبدو كأنهما مصنوعان من خشب. لا أتذمر البتة. لا يمكن أن يعـــد وقـــوفى مهملاً، بعد أسابيعى فى الصحراء، أمراً صعباً. إضـــافة، أتحســـس رائحـــة خفيفة لبهجة بسبب التوقع ان تلك الصداقة الزائفة بينى وبين المكتب الثالث قد تصل إلى نهاية.

أقـــول، أيمكنـــنى الـــتحدث إلى العميد جول؟ إطلاقة فى الظلام: من سيقول إن جول قد عاد؟

إنـــه لا يجيـــب، يواصل تظاهره بقراءة الوثائق. إنه رجل وســـيم، ذو أســـنان بيضاء متناسقة وعينين زرقاوين جميلتين.

أعـتقد أنه فارغ. أتصوره جالساً فى سرير بجوار فتاة، ممرناً عضـــلاته لها يقتات على إعجابها. ذلك النوع من الرجال الذى يسير جسده مثل ماكينة. أتخيله جاهلاً أن له إيقاعاته الخاصية له. عندما سيتطلع إلى، كما سيفعل فى خلال لحظة، سينظر من خـــلف ذلــك الوجـــه الوســيم الثابت ومن خلال تلكما العينين الصافيتين، كما ينظر ممثل من خلف قناع.

يـــرفع بصـــره عن الورقة. الأمر تماما كما توقعت. يقول، أين كنت؟

كنت مسافراً فى رحلة طويلة. يؤلمنى أننى لم أكن هنا عند قدومـــك لتقديم واجبات الضيافة لك. ولكن الآن وبعد عودتى، فكل ما يعود لى هو لك .

علامـــته تقول إنه ضابط صف. ضابط صف. فى المكتب الـــثالث: ما الذى يعنى ذلك؟ فى ظنى، خمسة أعوام من ركل الـــناس وضـــربهم، الاحـــتقار للشرطى النظامى وللإجراءات القانونية المطلوبة، للكلام النبيل الناعم الذى يشبه كلامى. ولكن ربما أظلمه أنا – لقد كنت بعيداً عن العاصمة مدة طويلة.

يقـــول، لقد كنت تقوم بمفاوضات تنطوى على الخيانة مع العدو .

لقـــد اتضــــح الأمر إذن. مفاوضات تنطوى على الخيانة :

عـــبارة مأخوذة من كتاب. أقول، نحن فى سلام هنا، لا أعداء لـــنا. صمت هناك. أقول، ما لم أكن مخطئاً. ما لم نكن نحن الأعداء .

لســـت واثقـــاً من أنه يفهمنى. يقول، لسكان المحليون فى حرب معنا .

أشك فى أنه قد تطلع يوماً إلى بربرى فى حياته. لماذا كنت تتفاوض معهم؟ من سمح لك بمغادرة موقعك؟

لا أبـــالى بالاستفزاز. أقول، إنها مسألة شخصية، عليك أن تـــثق بكلامى حول الأمر. لا أنوى مناقشته، فيما عد القول إن قاضـــى المقاطعـــة ليس بموقع يمكن أن يتخلى عنه مثل موقع بواب .

هـــناك حيوية فى مشيتى بينما أقاد بين حارسى إلى السجن. أقول، آمل أن تسمحا لى بالاغتسال. ولكنهما يتجاهلاننى. لا بأس.

أنا مدرك لمصدر زهوى: تحالفى مع حراس الإمبراطورية قـــد انـــتهى فقد وضعت نفسى فى المعارضة، القيد انكسر. أنا رجـــل ســـعيد، مـــن ذا الذى لا يبتسم؟ ولكن ما أخطرها من فرصـــة! الحصول على لخلاص يجب ان لا يكون سهلا جدا. وهل هناك مبدأ ما خلف معارضتى؟ ألم أستثر أنا ببساطة إلى

ردة فعـل لمشـهد أحد البرابرة الجدد وهو يغتصب منضدتى وينبش فى أوراقى؟ فيما يتعلق بهذه الحرية التى أنا فى الطريق لطرحها جانبا، أى قيم تعنيها بالنسبة لى؟ هل أنا قد تمتعت حقا بالحرية المطلقة لهذا العام المنصرم الذى كانت فيه حياتى اكثر مـن أى وقـت مضـى يخصنى تشكيلها أثناء احتجازى لها؟ أضرب مثلا: حريتى فى أن أجعل من الفتاة أى شيء اعتقدت أنه يعجبنى، زوجة أو محظية أو ابنة أو عبدة كلها مرة واحدة أو لا شـيء، فى نزوة، ذلك لأننى لم ألتزم بأى واجب تجاهها مـا عدا ما خطر ببالى أن أتحسسه من لحظة إلى لحظة: من اضطهاد لحرية مثل هذه من ذا الذى لا يرحب بحرية السجن؟ لا شـيء بطولى فى معارضتى - دعونى لا أنسى ذلك لحظة واحدة.

إنها الغرفة نفسها فى الثكنات التي استخدموها لتحقيقاتهم فى العـام الماضـى. أقـف جانباً بينماً تسحب بسط الجنود الذين يـنامون ومرتباتهم هنا إلى الخارج وتكوم عند الباب. رجالى الـثلاثة ما زالوا قذرين بملابسهم الرثة، يخرجون من المطبخ للتحديق. أصيح، ما هذا الذى تأكلونه؟ اجلبوا لى شيئاً منه قبل أن يسـجنونى! يأتيـنى أحدهـم مهرولاً بإناء فيه حصته من عصـيدة الدخـن السـاخنة، يقول، خذه. يومئ لى الحراس بـالدخول. أقـول، لحظـة واحدة فقط، دعهم يجلبون لى لفة فراشـى، ولـن أزعجكم بعدها ثانية. ينتظرون بينما أقف فى

بقعـــة مشمســـة أغـــترف العصيدة كرجل مشرف على الموت جوعـــاً. الفتى ذو القدم الملتهبة يقف مبتسماً بالقرب من مرفقى ومعـــه طاسة من الشاى. أقول، شكراً ولا تقلقوا، لن يؤذوكم، كنـــتم تنفذون ما أمرتم به لا غير . مع لفة فراشى وفراء الدب القديـــم تحت ذراعى أدخل زنزانتى. علامات السخام ما تزال عـــلى الجدار حيث كانت المجمرة توضع. ينغلق الباب ويسقط ظلام.

أنـــام طيلة النهار والليل، نادراً ما أزعج من ضربات فأس خـــلف الجـــدر عـــند رأسى أو من أصوات كركبة عربات يد ونـــداءات عمـــال. فى أحلامى، أنا فى الصحراء ثانية، أسير متـــثاقلاً عـــبر مساحات لا نهاية لها نحو هدف مجهول. أتنهد وأبـــلل شـــفتى. أســـأل حينما يجلب الحارس طعامى، ما هذا الصوت؟ يقول لى، إنهم يهدمون البيوت التى بنيت فى مواجهة الجـــدار الجـــنوبى للثكنات، وهم عازمون على توسيع الثكنات وبناء زنزانات مناسبة. أقول، آه، نعم، إنه أوان ازدهار الوردة السوداء للحضارة . لا يفهم.

لا نافذة فى المكان، مجرد فتحة فى أعلى الجدار. ولكن بعد يوم أو يومين بدأت عيناى فى التكيف مع العتمة. يتوجب علي أن أحـــمى عيـــنى مـــن النوم عندما ينفتح الباب وأطعم صبحاً ومساءً. الصباح المبكر هو الساعة الأفضل، عندما أستيقظ من

الـــنوم وأستلقي مصغياً إلى أول تغريد لعصفور، مراقباً فتحة الضـــباب الـــرقيق فى اللحظة التى تستسلم فيها الظلمة للضياء الأول الأبيض– الرمادى.

أطعـــم أنا من حصة أرزاق الجنود الاعتياديين نفسها. تغلق بوابة الثكنات ساعة من الزمن، ويسمح لى فى خلالها بالخروج للاغتســـال و لتريض. هناك على الدوام وجوه منضغطة على قضـــبان البوابة، تتفرج على مشهد سقوط من كان فى يوم ما عظيماً. أتعرف على الكثير منها، ولكن لا أحد يسلم علي.

فى الـــليل، عـــندما يهـــدأ كـــل شيء، تخرج الصراصير للاستكشاف. أسمع أو ربما أتخيل، الطقطقة الخشنة لأجنحتها، عدو أقدامها عبر الأرضية المرصوفة، تغويها رائحة الدلو فى الـــزاوية، كسر الطعام على الأرض، وبلا شك جبل اللحم الذى تفـــوح مـــنه روائح متنوعة للحياة والتفسخ. وأصحو ذات ليلة على خطوات فى خفة ريشة لواحد منها يعبر بلعومى. بعد ذلك اليـــوم، أصحو مرتجاً خلال الليل، منتفضاً بقوة، نافضاً منظفاً نفسى، متحسساً وهم سبر مجساتها على شفتى، على عينى. لقد حذرت: من مثل هذه البدايات تنمو الوساوس.

أحـــدق طـــوال الـــنهار فى الجدران الخالية، غير قادر أن أصـــدق أن طبعات كل الآلام و لمهانة التى تحويها لن تتجسد يوماً تحت نظرة مركزة تماماً، أو اننى اغلق عينى محاولاً أن

أضـــبط حاسة سمعى إلى تلك الدرجة اللامتناهية من الضعف، التى لابد أن عندها تواصل صرخات من تعذبوا هنا، دوما من جدار إلى جدار. أتمنى مجىء ليوم الذى فيه تهدم هذه الجدران وتقدر آنذاك الترددات المضطربة أن تحلق أخيرا، على الرغم مـــن صعوبة تجاهل صرت أجرة توضع فوق أجرة أخرى فى الجوار.

أتطـــلع بـــتوق لرياضة الصباح، عندما أتمكن من تحسس الريح على وجهى والأرض تحت أخمص قدمى، أرى وجوهاً أخـــرى وأســـمع حديـــث البشر، بعد يومين من الوحدة، تحس شـــفتاى بـــرخاوتهما وبعـــدم فائدتهما، ويبدو كلامى أنا غريباً بالنســـبة لى. حقاً إن الإنسان لم يخلق كى يعيش وحيدا. أعزز يومى بشكل غير معقول على مدار الساعات حول الوقت الذى أطعـــم فيـــه. ألتهم طعامى مثل كلب. حياة بهيمية تحولنى إلى بهيمة.

وعـــلى الـــرغم من ذلك فإننى فى الأيام الخالية فقط عندما أنصب كليًّا على نفسى وفيها أنصرف جدياً باستحضار أرواح وقعت فى الشرك بين هذه الجدران لرجال ونساء لم يعودوا بعد زيـــارة واحدة لهذا لمكان يحسون بأنهم راغبون فى الحمل أو قادرون على لسير درن مساعدة من أحد.

هناك باستمرار فى مكان ما، طفل يضرب. أفكر فى واحدة

كانت على الرغم من عمرها ما تزال طفلة، التى جلبت إلى هنا وأوذيــت أمـــام عينى والدها، الذى راقبته وهو يهان أمامها، وأدركت أنه قد علم بما رأته هى.

أو ربمـــا أنهـــا فى ذلك الوقت لم تعد قادرة على الإبصار، وكـــان عـــليها الإدراك بوسائل أخرى: النبرة التى ظهرت فى صوته عندما توسل إليهم أن يتوقفوا لحظة واحدة.

أجـــد فى نفســـى على الدوام هذه اللحظة من الانكماش من تفاصيل ما جرى هنا.

بعـــد ذلـــك لم يعد لها أب. والدها كان قد أفنى نفسه، كان رجـــلاً ميـــتاً. لابد أن الأمر قد حدث فى هذه المرحلة، حينما أغلقت نفسها عنه، لأنه رمى نفسه على مستجوبيه، إن تضمنت قصـــتها شـــيئاً من الحقيقة، وهجم عليهم بأصابعه مخمشاً مثل حيوان جامح حتى أسقط أرضاً ضرباً بالهراوات.

أغلق عينى عدة ساعات بلا انقطاع، جالسا فى وسط أرضية الزنـــزانة، فى الضـــياء الـــباهت للنهار، أحاول أن أستحضر صـــورة ذلك الرجل الذى يذكر بالكثير من السوء. كل ما أراه شكل يسمى أب قد يكون شكل أى أب يعرف أن طفلة تتعرض للضرب ولا يقدر هو على حمايتها. لا يستطيع أن يفى بواجبه تجـــاه من يحب. يعرف أنه من أجل هذا لن يغفر له أبداً. هذه المعرفة بخصوص الآباء، هذه المعرفة بخصوص الإدانة، هى

أكـــبر مـــن أن يقـــدر على تحمله. فلا عجب ان رغب فى أن يموت.

مـــنحت الفـــتاة حمايتى، مبدياً بطريقتى المراوغة أن أكون والدها. ولكننى جئت بعد فوات الأو ن. بعد أن كانت قد توقفت عـــن الإيمان بالآباء. أردت أن أفعل ما كان صواباً. أردت أن أحقق تعويضاً: لن أنكر هذا الدافع الكريم، كيفما امتزج بدوافع مشـــكوك فيهـــا أكثر: يجب أن يكون هناك على الدوام فرصة مناســـبة للكفارة والتعويض، مهما يكن، كان على ألا أسمح قط لـــبوابات البلدة أن تفتح لأناس ممن زعموا أن هناك اعتبارات أرفـــع مـــن تلك التى تتعلق بآداب لسلوك. لقد عرضوا والدها أمامهـــا عاريـــاً وجعلوه يهذر ألماً: لقد كمموهاولم يستطع هو إيقـــافهم (فى يوم أمضيته مشغولاً بدفتر الحسابات فى مكتبى) بعـــد ذلـــك لم تعد إنسانا كاملا، أختا لكل واحد منا. مشاركات وجدانية معينة ماتت. نزعات معينة للقلب لم تعد ممكنة بالنسبة لها. أنا أيضاً، إن عشت زمناً طويلاً كافياً فى تلك الزنزانة مع أشباحها ليس فقط للأب وللابنة ولكن للرجل الذى لا يرفع عن عينيه القرصين الأسودين حتى فى ضوء مصباح والتابع الذى كـــان عمله أن يغذى الموقد باستمرار، سأكون متأثراً بالعدوى ومتحولاً إلى مخلوق لا يؤمن بشىء.

وهكـــذا أستمر فى الانقضاض والدوران حول شخص الفتاة المـــتعذر تحويله إلى وضع سرى، أرمى شبكة من معان فوق

أخـــرى. إنها تتوكأ على عكازيها تتطلع نحو الأعلى فى نظرة كليـــلة. مــــا الذى تراه؟ الجناحان الحافظان لطائر القطرس(*) الحـــارس أو الشكل الأسود لغراب جبان يخاف أن يهاجم بينما ضحيته ما تزال تتنفس.

* * *

عــــلى الرغم من أن لدى الحراس أوامر بعدم الدخول معى فى مناقشات، فليس من الصعب أن أخيط أجزاء إلى بعضها فى قصــــة متماســـكة مـــن نتف أحاديث أسمعها عند خروجى إلى الساحة. كل الأحاديث الأخيرة هى عن حريق على طول ضفة الـــنهر. قبل خمسة أيام، كان الحريق مجرد لطخة سوداء تجاه الضباب فى الشمال الشرقى. وهو بعد ذلك الوقت كان قد التهم كل ما فى طريقه منحدرا ببطء مع مجرى النهر، متلاشيا أحيانا ولكنه منتعش باستمرار، وهو يرى الآن بوضوح من البلدة مثل كفن بنى فوق الدلتا حيث ينضم النهر إلى البحيرة.

أســـتطيع أن أخمـــن الذى حدث. أحد ما قد قرر أن ضفاف الـــنهر تمـــنح غطاء واقياً أكثر مما ينبغى للبرابرة، وأن النهر يشـــكل خطـــاً دفاعيـــاً أقوى ان أخليت جوانبه. وهكذا أشعلوا النيران فى الدغل. وبمساعدة الريح الهابة من الشمال، انتشرت

(*) القطرس : طائر بحرى كبير

لـــنيران عبر الوادى المنخفض الضحل بأكمله. لقد رأيت من قـــبل حرائق عاصفة. تتسابق النيران فى خلال القصب، تتأجج أشـــجار لحور كالمشاغل، تهرب الحيوانات التى تمتلك سرعة مناسبة – وعول، أرنب برية، قطط، أسراب من طيور تطير فى فزع، وكل شيء عدا ما ذكرت يفنى. الأ ان هناك مساحات كثيرة جداً، من إمدادات قاحلة على طول النهر نادراً ما تنتشر فيهـــا الـــنيران. فمن الواضح فى هذه الحالة إذن أنه لا بد من جماعـــة تقـــوم بمـــتابعة الحريق على النهر وتراقب ضرورة تطوره. وهم لا يبالون من أن الأرض متى ما أصبحت جرداء كـــل يـــوم فإن الريح تبدأ بفرض التربة وتتقدم الصحراء إلى الأمـــام وهكذا تستعد قوات البعثة لمحاربة البرابرة، ومن أجل حملتها، نخريب الأرض، تبديد الميرث.

* * *

الأرفف قد أخليت، نظفت وجليت. يشع سطح المكتب بطلاء عميـــق، أجـــرد إلا من طبق لكرات زجاجية بمختلف الألوان. الغرفة نظيفة للغاية. على المنضدة فى الزاوية وضعت مزهرية فيهـــا زهور الخبازى تملأ الهواء بالعطر. هناك سجادة جديدة على الأرض. لم يبد مكتبى أبداً أكثر جاذبية.

أقـــف بجـــوار حارسى، بالملابس نفسها التى سافرت بها. غســـلت ملابسى الداخلية مرة أو مرتين الا أن سترتى ما تزل

تفـــوح بـــرائحة دخـــان الخشب، منتظراً. أراقب تلاعب أشعة الشمس عبر براعم اللوز خارج النافذة، وأنا قانع.

يدخل بعد مدة طويلة، يلقى بحزمة من أوراق على الطاولة، ثـــم يجلس. يحدق فيّ دون أن يتكلم. وهو يحاول مع شيء من الأداء المسرحى المبالغ فيه، أن يترك لدى انطباعاً معيناً. إعادة التـــنظيم المعتـــنى بـــه لمكتبى من أشياء كانت مركومة عليه وتنظيفه من الغبار إلى هذه الدرجة من النظافة المتبطلة، مشية الاختيال البطيئة التى يقطع بها الغرفة، الوقاحة المدروسة التى يعاينـــنى بها، مقصودة كلها لتقول شيئاً، ليس فقط إنه المسؤول الآن (كيف يمكننى تفنيد ذلك؟) ولكنه إلى حد كبير يعرف كيف يتصرف فى مكتب، يعرف حتى كيف يقدم ملاحظة بخصوص فعاليـــة رائعـــة. لماذا يجدنى مستحقا عنا، هذا العرض؟ لأننى على الرغم من ملابسى النتنة ولحيتى الغليظة، ما زلت أنتمى إلى فصـــيلة متمرسة كيفما اضمحلت بوضاعة حتى العدم هنا خلف الآخرة؟ هل يخشى اننى سأستهزئ به ما لم يحصن نفسه بزخارف داخلية انتقاها، دون شك، عن ملاحظة متأملة لمكاتب مـــن هم أعلى منه درجة فى المكتب الثالث؟ وهو لن يصدقنى إن قلت له إن الأمر لا يهم. يجب أن أكون حذراً كى لا أبتسم.

ينظف حنجرته. يقول، سأقرأ عليك الشهادات الخطية التى قمنا بجمعها، أيها القاضى، كى تتكون عندك فكرة عن خطورة

التهم الموجهة إليك . يشير بيده ويغادر الحرس الغرفة؟

مـــن الأولى: ســـلوكه فى المكتب تخلى عن كثير مما هو مطلوب. أحكامه اتسمت بالاعتباطية، كان على طالبى الالتماس عـــند بعـــض الحالات الانتظار أشهراً من أجل الاستماع إلى الحجـــج، وهـــو لم يمسك نظام حسابات قانونى للمال . يضع الورقـــة على الطاولة. قد أشير إلى أن معاينة لحساباتك أكدت على عدم قانونيتها . على الرغم من كونه موظفاً إداريا رئيساً لهذه المقاطعة، فإنه أنشأ علاقة غرامية مع مومس استولت على معظـــم طاقته وأدى ذلك إلى الإضرار بواجباته الرسمية. كان للعلاقة تأثير محبط على هيبة الإدارة الإمبراطورية لأن المرأة المعـــنية كـــانت قـــد أقامت علاقات مع جنود عاديين وكانت موضوعاً للعديد من القصص الداعرة . لن أعيد تلك القصص.

دعـــنى أقـــرأ عليك تلك من الشهادة الثانية . فى الأول من آذار، قـــبل أســـبوعين مـــن وصول البعثة، أعطى أوامر لى ولجـــنديين آخـــرين (ذكـــرت أسماؤهم) للاستعداد فوراً لرحلة طويـــلة. وهـــو لم يقل فى ذلك الوقت إلى أين كنا ذاهبين. لقد أصابتنا الدهشة عندما اكتشفنا أن الفتاة البربرية ستكون مسافرة معنا. ولكننا لم نطرح أسئلة. لقد دهشنا أيضاً للسرعة التى تمت فيها الاستعدادات. لم نفهم لماذا لا يتوجب علينا الانتظار حتى ذوبان الثلوج فى الربيع. لم نفهم إلا بعد عودتنا أن غرضه كان

تحذيــر البرابرة من الحملة القادمة... لقد أجرينا اتصالات مع الــبرابرة وبالــتحديد فى الــثامن عشــر من آذار. كانت لديه مــداولات مطولة معهم، والتى أبعدنا عنها. كما تم تبادل هدايا أيضاً. لقد تناقشنا فى هذا الوقت فيما بيننا عن ما يمكننا أن نقوم بــه إن أمرنا أن نذهب إلى حيث البرابرة. وقررنا أننا سنقوم بــرفض عرضه ونجد طريقنا نحو الوطن... عادت الفتاة إلى أهلها. كان مسلوب العقل من قبلها، ولكنها لم تأبه به .

وهكــذا . يضــع الأوراق عــلى الطاولة بعناية ويساوى زواياهــا. الــتزم الصــمت. قرأت مقتطفات فقط. كى يكون بإمكــانك فهــم أبعــاد الأمور. يبدو الأمر سيئاً عندما نضطر للتدخل وتطهير الإدارة المحلية، والأمر حتى ليس واجباً .

سأدافع عن نفسى فى محكمة قانونية .

وهل ستفعل؟

لســت مندهشــاً مــا يفعــلون. أنــا أعرت جيداً وزن تلك المؤسســات والفروقات الضئيلة فى المعنى التى يمكن اللجوء إليها كى تقبل، أو كيف أن سؤالاً يمكن أن يطرح بطريقة معينة كى تملى على الشخص الجواب عنه. سيستغلون القانون ضدى إلى أبعــد مدى يخدمهم. ثم سيستديرون إلى طرق أخرى. ذلك هو أسلوب المكتب الثالث. بالنسبة لأشخاص لا يعملون فى ظل نظــام أساسى، تعتبر الإجراءات القانونية ببساطة أداة من بين أدوات كثيرة.

أتحـــدث، لن يجرؤ أحد على التفوه في تلك الأمور أمامي. من المسؤول عن الشهادة الأولى؟ يهزّ يداً ويستند إلى الخلف. لا بأس. ستنال فرصتك للإجابة .

وهكـــذا يتأمل واحدنا الآخر في سكون الصباح، حتى يحين الوقت المناسب له كي يصفق بيديه للحراس كي يبعدوني.

أفكـــر فيه كثيراً في وحدة زنزانتي، محاولاً أن أفهم حقده، محـــاولاً أن أرى نفسي كما هو يراني. أفكر في الاهتمام الذي أبـــداه تجاه مكتبي. إنه ببساطة لم يجمع أوراقي في زاوية ولم يضع حذاءه فوق طاولتي، ولكنه عوضاً عن ذلك يتحمل عناء اســـتعراض مفهومه للذوق السليم. لماذا؟ رجل ذو خصر فتي وعضـــلات مقاتـــلي شـــوارع محشو في الزي الأرجواني - الأزرق الذي ابتدعه المكتب الثالث لنفسه. فارغ، جائع للمديح، أنا واثق من ذلك. مفترس نساء، غير راض، غير مرض. هو الذي قيل له إن امرءاً ما لا يستطيع الوصول إلى القمة إلا عن طـــريق تسلق هرم من الأجساد. هو الذي يحلم من أنه في يوم مـــن هـــذه الأيام سيضع قدمه على رقبتي ويكبس. وأنا؟ أجد الأمـــر صعباً أن أكرهه في المقابل. الطريق إلى القمة لابد أن يكـــون صـــعبا لـــرجال شباب بلا مال، بلا وساطة، مع تعليم ضـــئيل، رجـــال يدخـــلون عالم الجريمة بالسهولة نفسها التي ينضمون فيها إلى خدمة الإمبراطورية (ولكن أي شعبة أفضل

للخدمة يمكن أن يختاروها أفضل من المكتب الثالث!).

ومــع ذلــك، أنا غير مقبلٍ على تحمل ذلّ السجن. أحياناً، جالســاً على حصيرتى متفرساً فى ثلاث بقع على الجدار. أجد نفســى تتســاق للمرة الألف تجاه الأسئلة، لماذا هى فى صف واحــد؟ من وضعها هناك؟ هل هى تشير لشىء ما؟، أو أجدنى وأنا أذرع المكان أعد واحد – اثنين – ثلاثة – أربعة – خمسة – ســتة – واحــد– اثنين– ثلاثة...، أو أحك وجهى بلا تفكير بيــدى، أدرك كيف سمحت لهم أن يجعلوا عالمى صغيراً جداً، إلى أى مدى أصبح يوماً بعد يوم أكثر شبيهاً بالبهيمة أو ماكينة بســيطة،. عجــلة دوارة لطفــل، على سبيل المثال، مع ثمانية شــخوص ضــئيلة يقدمون أنفسهم على الإطار: أب، عاشق، فــارس، ســارق... ثم أستجيب بحركات فزع دوارة أندفع فى خلالهــا حــول الزنــزانة راجّاً يدى هنا وهناك، ناتفاً لحيتى، أضــرب الأرض بشدة بقدمى. فاعلاً أى شيء لمباغتة نفسى، لتذكير نفسى بعالم فى الخلف، يتصف بالتنوع وبالوفرة.

هــناك أيضــاً أشــكال أخرى من الذلّ. التماسى من أجل الحصــول على ملابس نظيفة تم تجاهله. لا أمتلك شيئاً أرتديه غير ما جلبته معى. فى كل يوم تريض، تحت بصر الحارس، أغســل قطعة واحدة، قميصاً أو زوجاً من السراويل الداخلية، بــرماد ومــاء بارد، وأعيدها إلى زنزانتى كى تجف (القميص

الذى تركته فى الساحة ليجف اختفى بعد يومين). فى خياشيمى على الدوام رائحة ملابس لم تر الشمس.

وأسـوأ. تحـت ظل النظام السائد لممل للحساء والعصيدة والشــاى، أصـبح أمر إطلاق أمعائى يسبب لى ألماً مبرحاً – أتردد عدة أيام حاساً بالتصلب والانتفاخ قبل أن أقدر على حمل نفســى على الجلوس مفرفصاً على الدلو وتحمل طعنات الألم، تمزق الأغشية التى تصاحب مثل هذا لنوع من الإفر غ.

لا أحد يضربنى، لا أحد يجوعنى، لا أحد يبصق على. كيف أعد نفسى ضحية الاضطهاد فى حين

أن معاناتى خفيفة هكذا. ومع ذلك فإنهم جميعاً أكثر انحطاطاً بسبب تفاهتهم. أتذكر مبتسماً عندما أغلق الباب خلفى فى المرة الأولى ودار لمفتاح فى القفل، بدا الأمر ليس بعقوبة كبيرة فى الانتقال من عزلة الوجود اليومى إلى عزلة زنزانة فى حين أن بإمكــانى أن أحمل معى عالماً من الأفكار والذكريات. ولكننى الآن أبــدأ فى إدراك كم بدائية هى الحرية. أى حرية قد تركت لى؟ حرية أن آكل أو أموت جوعاً، أن أحتفظ بصمتى أو أثرثر لنفسى أو أضرب على لباب أو أصرخ. إن كنت الهدف لظلم، ظلم طفيف، عندما أغلقوا الباب على هنا، فإننى الآن لست أكثر من كومة غير سعيدة من دماء وعظام، ولهم.

طعــام عشــائى يجلب من قبل الحفيد الصغير للطباخة. أنا

واثق من أن الأمر يحيره إن القاضى القديم قد سجن وحده فى غرفة مظلمة، ولكنه لا يطرح أى سؤال. يدخل منتصب القامة ومحـــترماً نفســـه، حاملا الصينية، بينما الحارس يمسك الباب مفــتوحا. أقـــول، شكراً، أنا سعيد لقدومك. كنت بدأت أحس بجوع شديد... أريح يدى على كتفه، املأ الفراغ بيننا بكلمات إنســـانية، بيـــنما ينتظر برصانة إجابتى كى أتذوق وأستحسن.
وكيف حال جدتك اليوم؟

إنها بخير، سيدى.

والكـــلب؟ هـــل الكـــلب قد عاد الآن؟ (من الجهة الأخرى للساحة يصل نداء، جدته).

لا، سيدى'.

أنـــت تعـــرف، إنه الربيع، موسم المزاوجة. تذهب الكلاب لـــزيارات، تـــبقى مدة من الوقت، ثم تعود إلى أماكنها دون أن تقول أين كانت. عليك ألا تقلق، سيعود'.

نعم، سيدى.

أتـــذوق الحساء، كما يريدنى أن أفعل وأتلمظ بشفتى. أقول لجدتك، شكراً على العشاء، إنه لذيذ.

نعـــم، سيدى. النداء ثانية: يرفع عن الأرض قدح الصباح وإنائه ويستعد للمغادرة.

قل لى أيضا: هل الجنود قد عادوا الآن؟ أسأله بسرعة.

لا سيدى .

أبــقى الباب مفتوحاً وأقف فى مدخل الباب أصغى إلى آخر زقزقات العصافير فى الأشجار تحت السماء البنفسجية الواسعة بينما يعبر الغلام الساحة بصينيته. لا أملك شيئا كى أعطيه ولا حتى برعماً. بل إننى لا أملك وقتاً كى أريه كيف يجعل مفاصله تطقطق أو كيف يمسك أنفه بقبضته.

إنــنى أنســى الفــتاة، منجرفاً نحو النوم، تخطر على بالى بوضوح باهت، ذلك أن يوماً بأكمله قد مر دون ًن أفكر بها فى خلالــه. الأســوأ، أنــنى لا أقدر أن أتذكر، بالتأكيد كيف تبدو تقريــباً. مــن عيــنيها الفارغتين، كان يبدو باستمرار ما يشبه ضبابًا ينتشر، فراغا يستبد بأجمعها. أتفرس فى الظلمة منتظراً تشــكل صورة ما، ولكن الذكرى الوحيدة التى أسكن إليها كلياً هى يــداى المزيتتان تنزلقان على ركبتيها، على ربلة ساقيها، كاحــليها. أحــاول أن أتذكــر اتصالاتنا الحميمة القليلة ولكنى أشوشها بذكريات كل الأجساد الدافئة الأخرى التى غمدت نفسى فيها عبر مسيرة حياتى بأكملها. إننى أنساها، وأنساها، أعرف أنــا، عــامداً. ليس من تلك اللحظة التى وقفت فيها أمامها عند بوابــة الثكــنات وانتقيتها كنت قد عرفت جوهر حاجتى إليها، والآن أنا مشغول بانتظام فى دفنها فى النسيان. يدان تعوزهما

العاطفـــة، قـــلب ميــت: أتذكر المثل السائر: أضع راحتى إلى خدى. أتنهد فى الظلام.

فى الحـــلم مناك شىء ما يركع فى ظل جدار. الساحة خالية تمامـــاً، الـــريح تسـوق الغبار نحو الغيوم، تربض خلف ياقة معطفها، تسحب قبعتها نحو الأسفل لتخفى سكينيها.

أقف مشرفاً عليها. أقول، 'أى مكان يؤلمك؟ أحس بالكلمات تتشـــكل فى فمى، ثم أسمعها تنبعث واهية، بشكل غير عادى، مثل كلمات نطقت من قبل شخص آخر.

تقـــدم ســـاقيها نحو الأمام فى ارتباك وتلمس كاحليها. إنها صغيرة الجسم إلى حد كبير بحيث إنها تكاد تضيع فى معطف الـــرجل الـــذى ترتديه. أجلس، أفك شريط الجوارب الصوفية، أحـــل الأربطـــة. تـــتمدد القدمان أمامى فى التراب، طليقتين، فظيعتين، سمكتين جانحتين، حبتى بطاطا كبيرتين.

أرفـــع إحداهما إلى حضنى وأبدأ فى تفريكها. تسيل الدموع مـــن خـــلف جفنيها، منهمرة على خديها، إنها ملتهبة! تنوح بصوت واه. أقول، إننى سأدفئك أرفع القدم الأخرى وأحتضن الاثنـــتين معاً. تسكب الريح غباراً فوقنا، حبيبات رملية خشنة عـــلى أسنانى. الليل ساكن، القمر أسود. أستلقى مدة من الزمن محدقا فى الظلمة، ثم أنسل عائدا إلى الحلم.

أدخــل قــوس بوابة الثكنات وأواجه ساحة لا نهاية لها كأنها صحراء. لا أمل هناك للوصول إلى الجانب الآخر، ولكننى أسير بتــثاقل، أحمــل الفتاة، المفتاح الوحيد الذى أملكه للمتاهة، يتدلى رأسها على كتفى، قدماها الميتتان تتدليان فى الجهة الثانية.

هناك أحلام أخرى يتغير فيها، شكل ما أسميه الفتاة، حجماً، جســماً، هيئة: فى واحد من الأحلام هناك هيئتان تثيران الفزع فى: كبيرتان وفارغتان، تكبران وتكبران حتى تملأ كل المكان الذى أنام فيه. أصحو مختنقاً، صارخاً، حنجرتى منتفخة.

إن نسيج الأيام، من جهة أخرى، ممل مثل عصيدة. لم يحتك أنفى قط من قبل بالأمور اليومية.

إلى هــذا الحــد الذى يحدث الآن. تلفق الأحداث فى العالم الخــارجى، الأبعــاد المعــنوية لقضيتى، إن يكن الأمر كذلك، قضــية، بــل حتى احتمالات الدفاع عن نفسى فى المحكمة فقد فقــدت عنصر التشويق، تحت ضغط الشهية والوظائف البدنية، وضــجر العيــش ســاعة بعد أخرى. لقد تعرضت لبرد، كل وجــودى منشــغل فى التنشــق والعطس، إنه لبؤس أن تكون ببساطة جسداً يحسّ بنفسه معتلاً ويريد استعادة صحته.

* * *

فى أصــيل يــوم، الأصوات الضعيفة غير المتناسقة لكشط

وصلصـــلة مسحاة عمال بناء الآجر لتسوية الجانب الآخر من الجـدار تــتوقف فجأة. مستلق فوق حصيرتى، أرهف السمع: هـناك فى الجـو دوى فى الــبعد، باهت و ذو خاصية مثيرة بالنســبة إلى سكون ساعة الأصيل الذى يخذل فى تبذير نفسه إلى أصــوات مميزة ولكنه يتركنى متوتراً وقلقاً. أهى عاصفة؟ على الرغم من أننى أضغط بأذنى على الباب فإننى لا أستطيع أن أميز شيئاً. ساحة الثكنات خالية.

يعاود عمال بناء الآجر خشخشاتهم.

قــرابة المســاء يفتح الباب ويدخل صديقى الصغير بعشائى. أســتطيع أن أدرك أنــه يكــاد يتفجر لإخبارى بشيء ما، ولكن الحــارس يدخــل معــه ويقف ويده على كتفه. ولهذا فإن عينيه وحدهمــا تتكلمان معى: متوقدتان بالانفعال، باستطاعتى أن أقسم انهما تقولان إن الجنود قد عادوا. فى تلك الحالة لماذا لا ينفخون فى الأبواق ولا يطلقون صيحات التهليل؟ لماذا لا تجتاز الخيول الساحة الكبيرة خبباً، لماذا لا تعلو أصوات الاستعدادات للوليمة؟ لمــاذا يقــبض الحــارس على الولد بشدة إلى هذا الحد ويدفعه مســرعا إلى الخــارج قبل أن أتمكن من منحه قبلة على رأسه الحــليق؟ الجــواب الواضح هو أن الجنود قد عادوا ولكن ليس بانتصار. إن كان الأمر كذلك، يتوجب علىّ التزام الحذر.

فى المســاء، بعدئــذ، هــناك تفجر مفاجئ لصوت قادم من

الساحة وهمهمات أصوات. أبواب تفتح وتغلق بقوة. أقدام تروح وتـــجيء. أســتطيع ســماع بعــض مما قيل، أستطيع سماعه بوضوح: لا تتحدثوا عن الستراتيجية أو جيوش البرابرة ولكن عن أقدام متألمة وتعب، ومناقشة حول رجال مرضى فى حاجة ماســة إلى أفرشـــة. فى غضـــون ساعة يهدأ كل شيء ثانية. الســاحة خاليــة. لا ســجناء هناك إذن. ذلك على الأقل سبب الابتهاج.

* * *

إنـــه منتصف النهار وأنا لم أتناول الإفطار. أذرع غرفتى، معــدتى تفرقـــر كمعــدة بقرة جائعة. يسيل لعابى عند التفكير بالعصيدة المالحة والشاى الأسود. لا أستطيع أن أمنع نفسى عن ذلك.

لا توجــد علامة ما تدل على أنهم سيسمحون لى بالخروج، على الرغم من أنها ساعة التريض.

عمال بناء الآجر يعاودون عملهم، وتصل من الساحة أصوات فعاليـــات يوم عادى، بل إننى حتى أسمع الطباخة وهى تنادى عـــلى حفيدهـــا. أضـــرب على الباب، ولكن لا أحد يبدى أى اهتمام.

بعدئذ، وفى منتصف ما بعد الظهيرة، يدور المفتاح فى القفل

ويفـــتح الباب. يقول حارسى، ماذا تريد؟ لماذا كنت تدق على الـــباب؟ لا بد أنه يمقتنى إلى حد ما! أن يمضى امرؤ أياماً من حياته مستمراً فى مراقبة باب مغلق وقديم خدمات للاحتياجات الـــبهيمية لـــرجل آخر. لقد سرقت منه أيضاً حريته. ويعتقدنى السارق.

ألـــن تسمحوا لى اليوم بالخروج؟ لم أحصل على أى شيء آكله.

أمـــن أجـــل هذا ناديت علىّ؟ ستحصل على طعامك. تعلم بعض الصبر. على أى حال، إنك بدين جداً.

انتظر، لابد أن أفرغ دلوى. رائحة كريهة تنبعث منه هنا. أريـــد أن أغســـل الأرضية. أريد أن أغسل ملابسى أيضاً. لا أســـتطيع أن أظهـــر أمام العميد بملابس لها مثل هذه الرائحة الكريهة. إنها ستجلب الخزى لحراسى. أريد ماء ساخنا وقطعة من صابون وخرقة. دعنى أفرغ دلوى بسرعة وأن أجلب ماءً ساخناً من المطبخ.

حدســـى حول العميد كان مصيبا ، لأنه لم يناقضنى. يوسع فتحة الباب ويقف جانباً يقول، أسرع .

لا أحـــد فى المطـــبخ غيـــر خادمة غسل الصحون. تفاجأ بدخولنا، معاً، بل فى الحقيقة تبدو كأنها موشكة على الهرب من

المكان. أى نوع من قصص يتناقلها الناس عنى؟

يأمـــر الحارس، أعطيه بعض الماء الساخن. تحنى رأسها وتستدير نحو الموقد حيث يوجد باستمرار مرجل ماء يغلى.

مـــن فـــوق كتفى أقول للحارس، دلو- سأجلب دلواً للماء. بخطوات واسعة قليلة، أجتاز المطبخ إلى الخلوة المعتمة حيث، مع أكياس الطحين والملح والدخن المسحوق ولبازلاء لمجففة والفاصولياء، تحفظ ماسحات الأرضية والمكانس. على مسمار بعلو الرأس يوجد مفتاح القبو حيث تعلق أطراف لحم الضأن. فى لحظـــة أضـــعه فى جيبى. عند عودتى أحمل فى يدى دلواً خشـــبياً. أرفعـــه بينما تغرف الفتاة ماءً مغلياً فيه. أقول، كيف حالك؟ ترتجف يدها إلى حد كبير الأمر الذى يدفعنى إلى تناول المغـــرفة منها. هل بإمكانى الحصول على قطعة من صابون وخرقة قديمة، رجاءً؟

بعـــد عـــودتى إلى زنزانتى أتجرد من ملابسى وأغتسل فى المـــاء الســـاخن الـــترف. أغســـل قطعة من ملابسى الداخلية الإضـــافية، والـــتى تفوح منها رائحة بصل متعفن، أعصرها، أعـــلقها عـــلى مسمار خلف لباب، وأفرغ الدلو على أرضية الغرفة المرصوفة. ثم أستلقى على الفراش منتظرا حلول الليل.

* * *

المفتاح يدور بنعومة فى القفل. كم من الناس غيرى يعرفون أن مفــتاح القبو يفتح الباب المؤدى إلى غرفة سجنى، كما أنه يفتح أيضا الخزانة الكبيرة للأطباق فى القاعة الرئيسة للثكنات، وأن المفــتاح الخاص بجناح الغرف فوق المطبخ هو نسخة من المفــتاح لــباب مســتودع الأسلحة، وأنّ المفتاح لمدخل البرج الشمال- غرب يفتح أيضاً مدخل برج الشمال- شرق، وخزانة الأطــباق الصــغيرة فى القاعة، والفتحة الصغيرة فوق أنبوب الميــاه فى الفــناء؟ المــرء لا يمضى ثلاثين عاماً غاطساً فى التفصيلات المتعلقة بحياة مستوطنة صغيرة عبثاً .

تــبرق الــنجوم فى سماء صافية سوداء. تبدو عبر قضبان بوابة الساحة، ومضة من نار فى الساحة التى وراءها. بجوار البوابة، أستطيع إن أجهدت بصرى، أن أتبين هيئة داكنة، رجلاً يجلس مستنداً على الجدار أو متكوراً وهو نائم. هل يرانى فى مدخــل زنزانتى؟ أقف دقائق منتبها. إنه لا يتحرك، بعدها أبدأ السير مع حافة الجدار، تصدر قدماى العاريتان أصواتا هامسة على المساحات الصغيرة المفروشة بالحصى.

أســتدير حــول الزاوية وأجتاز باب المطبخ. الباب التالى يــؤدى إلى سلم شقتى القديمة. إنه مغلق. الباب الثالث والأخير مفــتوح، إنــه الباب إلى لغرفة الصغيرة التى تستعمل أحياناً كمستشفى، وببساطة أحياناً لإيواء الرجال فيها. منحنياً، متحسساً

بيــدى ما أمامى، أزحف نحو المربع الأزرق للنافذة المزلجة، خائفاً من التعثر فوق الأجساد التى أسمع أنفاسها فيما حولى.

خيط واحد يبدأ فى الانسحاب من خصلة لخيوط: الشخص لــنائم عــند قــدمى يتنفس بسرعة، وفي كل زفير يصدر أنة واهنة. أيحلم هو؟ أتوقف قليلاً على مسافة بضعة إنجات عنه، مــثل ماكينة، يستمر فى اللهاث والأنين فى الظلام. ثم أزحف مجتازا إياه.

أقف عند النافذة وأتطلع منها إلى ساحة البلدة، نصف متوقع نيران مخيم، خطوطاً من خيول مربوطة وحزماً من تشكيلات بــنادق، صــفوفاً من خيام. ولكن لا يوجد شيء يمكن رؤيته تقريــباً: جمــرات نــار وحيدة خامدة، وربما ومضة خيمتين بيضاوين بعيداً تحت الأشجار. إذن لم تعد قوات البعثة! أو هل مــن الممكن أن النفوس لقليلة التى هنا هى كل ما تبقى منها؟ يتوقف قلبى للفكرة عن لخفقان. ولكن هذا غير ممكن! هؤلاء الرجال لم يذهبوا إلى حرب: فى أسوأ الأحوال كانوا يتجولون فى البلدة الواقعة عند أعالى النهر، يطاردون رعاة مواشى غير مسلحين، يغتصبون نساءهم، ينهبون بيوتهم، يبعثرون قطعانهم، وفى أفضــل الأحــوال، لم يقابلوا أحدا على الإطلاق- بالتأكيد ليس القبائل البربرية المحتشدة، التى لضرواتها قد غدا المكتب الثالث متورطا بالدفاع عنا.

أصابع بخفة أجنحة فراشة تلمس كاحلى. أجثو على ركبتى. صوت يفضى لى بما فى نفسه، أنا عطشان. إنه الرجل الذى كـــان يـــلهث. إذن فهـــو لم يكن نائماً. أهمس، بهدوء يا بنى متفرســاً، أســتطيع أن أتبين بياض عينيه المرفوعتين نحوى، ألمس جبهته: إنه محموم. ترتفع يده وتمسك بيدى. يقول كنت عطشاناً إلى حد كبيراً!

أهمــس فى أذنـــه، سأجلب لك ماء، وعليك بعد ذلك التزام الصمت. هناك رجال مرضى فى المكان، يجب أن يناموا.

الظل بجوار البوابة لم يتحرك. ربما لا يوجد شيء ما هناك، ربما كيس قديم أو حزمة من حطب الوقود. أسير على أطراف أصـــابعى عبر الحصى إلى حوض الماء حيث يغتسل الجنود. المـــاء غير نظيف ولكننى لا أقدر على تحمل غلق الماسورة. من طرف الحوض يتدلى قدر قديم، أملؤه وأعود على أطراف أصابع قدمى.

يحـــاول الفتى أن يجلس ولكنه لا يقدر بسبب ضعفه الشديد. أسنده بينما يشرب.

أهمـــس، ما الذى يحدث؟ يتحرك واحد من النائمين. هل جـــرحت أم أنـــك عليل؟ أحس بحرارة شديدة! يئن يريد دفع الـــبطانية عنه ولكننى أمنعه. أهمس، يجب أن ترشح السخونة خارجـــا. يهز رأسه ببطء من جهة إلى أخرى. أمسك برسغه

حتى يغوص ثانية فى النوم.

هناك ثلاثة قضبان قائمة فى إطار خشبى: كل نوافذ الطابق السفلى مغلقة بقضبان. اضغط بقدمى على الإطار، أمسك بالقضيب الأوسط وأدفع. أعرق وأتعب، هناك وخزة ألم فى منتصف ظهرى. ولكن القضيب لا يتزحزح. ثم وعلى حين غرة، ينكسر الإطار وتوجب علىّ التشبث كى أمنع نفسى من السقوط إلى الخلف. يبدأ الفتى بالتأوه ثانية، نائم آخر يتنحنح. أنا أوشك أن أصيح مباغتاً بالألم الذى يصيبنى عندما أضع كل ثقلى على قدمى اليمنى.

النافذة وحدها مفتوحة. رافعا القضبان بقوة إلى جهة واحدة، أدس رأسى وكتفىّ عبر الفتحة، شاقاً طريقى إلى لخارج، وأكبو على الأرض فى النهاية خلف صف من شجيرات قلمت أعاليها على طول السور الشمالى للثكنات.

كل ما أقدر على التفكير به هو الألم، كل ما أرغب فيه هو أن أترك لأستلقى فى أفضل وضع أجده مناسباً لى، على جنبى وركبتاى مرفوعتان نحو ذقنى. مدة ساعة على الأقل، أستلقى هنالك بينما كان بإمكانى متابعة هربى، أسمع عبر النافذة المفتوحة أنفاس النائمين، صوت الفتى وهو يدمدم لنفسه. تخمد الجذوة الأخيرة للنار الموقدة فى الساحة. الكل نائم، إنسان وحيوان. إنها الساعة التى تسبق الفجر، الساعة الأقسى برداً.

أحس ببرودة الأرض تدخل عظامى. إن استلقيت مدة أطول هنا سـأتجمد وأدحـرج خلفاً إلى زنزانتى صباحاً بعربة يد. مثل حـلزون مجـروح أبدأ الزحف فى موازاة السير باتجاه مدخل الشارع الأول الذى يمتد بعد لساحة.

لـبوابة المؤدية إلى لفسحة الصغيرة الواقعة خلف الفندق، تقـع فى الخلف، وهى رديئة المفاصل. المنطقة بأجمعها تشى بالتفسـخ، قشور، عظام، فضلات طعام، رماد، كلها ترمى هنا مـن المطـبخ كى تذرى فى الأرض، ولكن الأرض قد غدت متعبة، المذراة التى تطمر هذا الأسبوع ترفض تقليب ما طمر فى لأسـبوع الماضى. الهواء فى خلال النهار ممتلئ بالذباب، وعند الغسق تستيقظ الخنفساء السوداء والصرصار.

تحـت السلم الخشبى الصاعد إلى الشرفة وأقسام الخدم يقع موضع منعزل حيث يخزن الحطب وحيث تهجع القطط عندما تمطـر السـماء. أزحف إلى الداخل وأنطوى على نفسى فوق حقيـبة قديمـة. تفـوح مـنها رائعة بول، وهى بالتأكيد مليئة بالـبراغيث، أشعر ببرد شديد تصطك له أسنانى، ولكن كل ما يشغلنى فى هذا الصباح هو تهدئة الألم فى ظهرى.

* * *

صـحوت من النوم على طقطقة أقدام على السلم. انه ضياء نهـار. مرتـبكاً، مشوش الرأس، أجلس جاثياً على ركبتىّ فى

خلوتي. أحدهم يفتح باب المطبخ. دجاجات من كل الزوايا تأتى عدواً. الأمر مسألة زمن فحسب قبل أن أكتشف.

بأكــبر جــرأة امتلكها، ولكن مجفلا على الرغم من نفسى، أصــعد الســلم. لا بــد أن منظرى يبدو فظيعا للعالم بقميصى وبنطــلونى القذريــن، قدمى الحافيتين، ولحيتى الشعثاء؟ مثل خــادم، أرجو ذلك، سائس خيل يعود إلى البيت بعد ليلة أسرف خلالها بالشراب.

الممــرّ خال، الباب المؤدى إلى غرفة الفتاة مفتوح. الغرفة نظيفــة ومرتبة كما فى السابق: الجلد والصوت الناعم بجوار الفــراش ا الســتارة ذات المربعات الحمر منسدلة على النافذة، صــندوق الأدوات الشخصية مدفوع إلى الجدار الأبعد وأعلى منه شماعة للملابس. أدفن رأسى فى عبير ملابسها وأفكر فى الولــد الصغير الذى جلب طعامى، وكيف عندما استقرت يدى عــلى كــتفه، كنت أشعر بالقوة الشافية لتلك اللمسة تسرى فى جسد قد أصبح متصلبا بفعل عزلة غير اعتيادية.

الفــرش قد رتب. عندما أمررّ يدى بين الشراشف، أتخيل أنــنى قــادر على الإحساس بأثر ضئيل متخلف من دفئها. لا شيء سيسعدنى اكثر من أن ألتف على نفسى فى فراشى، أضع رأسى على مخدتها، أنسى أوجاعي وآلامى، متجاهلا المطاردة الــتى لا بد أنها قد بدأت الآن بحثاً عنى، ومثل الفتاة الصغيرة

فى القصة أهوى فى النسيان. كم بترف أحس جاذبية النعومة، الـــدفء، أريج هذا الصباح. بتنهيدة أركع وأدفع جسدى تحت الفــراش. وجـــهى نحـــو الأسفل، منضغطاً بشدة بين الأرض والشـــرائح الخشـــبية للســـرير، بحيث إننى عندما أحرك كتفيّ يـــرتفع الســـرير، أحاول أن أشكل نفسى كى أبقى مختفياً يوماً واحداً.

أنـــام نومـــا خفيفا وأصحو، منجرفاً من حلم لا شكل له إلى آخـــر. عند منتصف النهار يصبح الجو ساخنا يتعذر فيه النوم. أتمـــدد أطـــول مـــدة ممكنة، أتصبب عرقا فى المأوى السرّى المغـــبر. ثـــم، وعلى الرغم من تأجيلي الأمر، فإن الزمن- قد حـــان لوجـــوب إراحـــة نفسى. متألماً أدفع نفسى إلى الخارج وأقـــرفص فوق مبولة غرفة النوم. مرة أخرى الألم، التمزق. أمســـح نفســـى بمنديل أبيض مسروق، أراه بعدئذ ملوثاً بالدم. تنتشر رائحة قذرة فى الغرفة: حتى أنا، الذى كنت أعيش لعدة أســـابيع مـــع دلو القذارة فى الزاوية، أشعر بالاشمئزاز. أفتح الـــباب وأسير حجلا فى الممر. تطل الشرفة على صفوف من أســـقف، وخلفها فوق السور الجنوبى تمتد الصحراء، فى رقعة منبسطة. لا يوجد أحد يمكن أن يقع عليه البصر غير امرأة فى الجـــانب الآخـــر مـــن الزقاق تكنس عتبة دارها. وخلفها طفل يزحف على يدين وركبتين يدفع شيئا ما فى التراب، لا أستطيع أن أميـــز ما هو. عجزه الأملس الناعم يتكور نحو الأعلى فى

لهــواء. عندما تستدير لمرأة بظهرها ُخطو مبتعد عن الظل وأفرِغ محتويات المبولة فى كومة النفايات تحت. إنها لا تلاحظ شيئا.

سبات قد بدأ الآن يستقر فوق البلدة، انتهت أعمال الصباح: مــتقوقعين طــوال مدة حرارة منتصف النهار، يبدأ لناس فى العــودة إلى باحـــاتهم المظللة، أو إلى غرفهم لدخلية الباردة. بلبلة الماء فى أخاديد لشوارع تخمد وتتوقف. كل ما أتمكن من ســماعه هو تكتكة مطرقة البيطرى، سجع طيور لقمرية، وفى مكان ما بعيد جداً، صوت نحيب طفل.

متنهداً ألقى نفسى على الفرش فى الشذا لعذب للزهور التى أتذكرها. كم يبدو الأمر مغرياً أن أشارك بقية البلدة نوم قيلولتها! فى هــذه الأيــام، ُيام لربيع، الساخنة هذه كأن الصيف فيها قد أقبل فعلا- كم أجد سهلاً أن أتسلّل إلى مزاجهم الذى يبعث على التراخى! كيف يمكننى ُن ُتقبل المصيبة التى باغتت حياتى إلى هــذا الحــد بيــنما لعالم ما يزال يواصل الحركة- بهدوء عبر دوراته؟ لا يتطلب لأمر جهداً كى أصدق أنه عندما تبدأ الظلال تســتطيل والهــبة الأولى لــلريح تــبدُ بتحريك أوراق لشجر، سأصــحو وأتثاءب وأرتدى ملابسى وأنزل لسلم وُجتاز الساحة إلى مكتــبى، محيياً الأصدقاء والجيران لذين أمر بهم بهزة من رٌســى، وإننى سأمضى هناك ساعة أو ساعتين، أرتب مكتبى،

أقفلـــه، وأن كـــل شيء سيمضى متواصلاً كما كان على الدوام. عـــلىّ فى الواقـــع أن أهز رأسى وأن أجعل عينىّ تطرفان كى أدرك أنـــنى مســـتلق هكـــذا فى هذا المكان رجل مطارد، وأن الجـــنود وضمن سياق واجبهم سيأتون إلى هنا ويقودوننى خارجاً ويســـجنوننى ثانية بعيداً عن مشهد السماء وعن الكائنات البشرية الأخـــرى. لمـــاذا؟ أئـــن للوسادة: لماذا أنا؟ لم يكن هناك أبدا شـــخص فى العـــالم مرتبكاً إلى حد كبير وبريئاً مثلى أنا. طفل حقيـــقى! ومـــع ذلك إن استطاعوا فسيسجنوننى بعيدا كى أبلى، أخضع جسدى لاهتماماتهم الدنيئة، ثم يوما بعد يوم بدون تحذير يجلبونـــنى خارجـــا ويدفعونـــنى بسرعة عبر إحدى المحاكمات المغـــلقة التى يجرونها بموجب سلطات الطوارئ، ويقوم العميد لصـــغير المتصـــلب بترؤسها ويقرأ تابعه الاتهامات واثنان من الضـــباط أقل رتبة كمساعدين من أجل إضافة جو من الشرعية عـــلى الإجـــراءات فى قاعة محكمة خالية بطريقة ما، وبعدئذ، عـــلى الأخـــص، إن كـــانوا قـــد عانوا من أمور معاكسة، على الأخـــص إن كـــان الـــبرابرة قد أهانوهم، سيجدوننى مذنبا بتهمة لخيانـــة– هل أحتاج إلى الشك فى ذلك؟ من قاعة المحكمة إلى الجـــلاد سيســـحلوننى رافساً نائحاً، متحيرا مثل اليوم الذى ولدت فيـــه، متشبثاً حتى النهاية بالإيمان من أن لا مكروه يحصل لمن لا ذنـــب له. إنك تعيش فى حلم! أقول لنفسى: انطق بالكلمات عاليـــاً، أحـــدق فيها، أحاول أن أفهم معانيها: "يجب أن تصحو!

عمــداً أتذكّــر نفسي بصور لأبرياء قد عرفتهم: الولد لمتمدد فى ظــل مصـباح ويـداه تضـغطان على ملتقى فخذيه، البرابرة السـجناء، يقرفصـون فى التر ب يظللون أعينهم تقاء لشمس، ينتظرون أى شيء سيأتى لاحقاً. لماذ يكون الأمر غير مقنع من أن لبهيموث(*) الذى داسهم بأقدامه سيدوسنى يضاً؟ أعتقد بحق أنـنى لا أخشى الموت. لشيء الذى أنكمش منه. كما أعتقد، هو العار من الموت غبياً ومشوشاً كما أنا.

هناك هبّات من أصو ت لرجال ونساء، تأتى من أسفل حيث لساحة. بينما أتجمع فى مخبئي أسمع صوت أقدام على السلم. إنهـا تتراجع نحو لطرف لأقصى من الشرفة، ثم تعود ببطء متوقفة عند كل باب. الجدران لتى تفصل المهاجع لصغيرة فى الطابق العلوى حيث ينام لخدم هى مجرد شرائح خشبية مغطاة بورق جدران: أستطيع أن أسمع بوضوح صوت كل باب يفتحه من يطاردنى بالتتابع. أضغط بنفسى تجاه الجدار. آمل ألاّ يشمّ رائحتى.

الخطوات تدور حول الزاوية وتبلغ الممر. يفتح بابى، يبقى مفتوحاً عدة ثوان، يغلق ثانية. لقد اجتزت إذن امتحاناً واحداً.

هـناك خطـوات أسـرع وأخف: أحدهم يركض فى الممر

(*) لبهيموث: فرس لبحر ُو شخص أو حيوان ضخم قوى.

ويدخـل الغرفة. رأسى يستدير نحو الوجهة المخالفة، لا أقدر حـتى عـلى رؤيـة قدميها، ولكننى أعرف أنها فتاة. هذه هى الـلحظة التى يتحتم على فيها الخروج من مخبئى، أتوسل إليها أن تخفيـنى لحيـن حلول الظلام وباستطاعتى أن أجد سبيلى لـلخروج مـن البلدة متوجها نحو الجنوب إلى ضفة البحيرة. ولكـن كيف أفعل ذلك؟ فى ذلك الوقت الذى يكون فيه السرير مـتوقفاً عـن الانتفاخ وأكون أنا قد خرجت من مكانى، فإنها ستكون قد هربت وهي تصيح فى طلب المساعدة. ومن ذا الذى يقول إنها ستقدم ملاذاً لواحد من الرجال الكثيرين الذين أمضوا وقـتاً فى هذه الغرفة، واحد من رجال عابرين كثيرين، ترتزق مـنهم، رجـل فى موقف مخز، هارب من العدالة؟ وهل أنها سـتقدر حتى التعرف على وأنا فى هذه الحالة؟ قدماها تخفقان فى أرجـاء الغـرفة، متوقفة هنا، متوقفة هناك. لا أستطيع أن أضـع مخططاً لحركتهما. أتمدد ساكناً، متنفساً بنعومة، عرق يتسـاقط مـنى. فجـأة تكون قد غادرت: يطقطق السلم، يحل الصمت.

سكون مؤقت يسقط علىّ أيضاً، نوبة من بعد نظر، أرى فى خلالها كم هو سخيف هذا الأمر، كل هذا الركض والاختباء، ما أسخفه من أمر أن أكون مستلقياً تحت سرير فى ظهيرة حارة، منتظراً فرصة للهرب بعيداً إلى اجمات القصب، وأعيش هناك عـلى بيوض الطيور وسمك أصيده بيدىّ، نائماً فى حفرة فى

الأرض، مــتحملاً زمنى لحالى حتى تتطحن هذه المرحلة من لــتاريخ منصرمة وتعود المناطق الحدودية إلى نعاسها الأول. الحقيقة هى أننى لم ُعد أنا، لقد أصبت بد ء الخوف، أدرك ُننى مــنذ تــلك اللحظة فى زنزانتى لما رأيت أصابع لحارس تشد على كتف لولد الصغير لتذكيره بألا يتحدث معى، وعرفت أنه مهمــا كــان لأمر لذى قد حدث فى ذلك ليوم، فإن علي أن أتحمل اللوم بسببه. سرت إلى داخل لزنزانة رجلا سليم لعقل، واثقــاً من عدلة قضيتى، مهما كنت غير كفء، فإننى أوصل الحكــم عــلى نفسى لوصف ماذا يجب أن تكون تلك لقضية، ولكــن بعد شهرين بين الصر صير دون شيء تقع عليه عيناى غيــر أربعة جدران وبقعة سخام مبهمة، ولا شىء أشمه غير نتانة جسدى، ولا أحد أتكلم معه غير شبح فى حلم، تبدو شفتاه مختومتان، ُنا ُقل ثقة بنفسى لى حد كبير. التوق إلى أن ألَمس مــن قبل جسد إنسان آخر يستولى على أحياناً بتلك القوة التى تدفعــنى إلى لأنيــن. كــم تطلعت توقاً إلى الاتصال لوحيد لقصير لأمد لذى كان كل ما قدرت لحصول عليه مع الولد، صباحاً، مساء! أن أستلقى بين ذراعى امرأة فى فراش جيد، أن يتوفر لدى طعام جيد أتناوله، أن أسير تحت الشمس- كم تبدو هــذه الأمور أكثر ُهمية من لحق فى اتخاذ قرار دون نصيحة مــن الشــرطة الذيــن يجب أن يكونوا لى ُصدقاء والذين هم أعدئى! كيف يمكننى أن أكون على صواب عندما لا أجد نفساً

فى البـــلدة تؤيـــد فـــرارى مع الفتاة البربرية أو من لا يحس بالمرارة تجاهى إن قتل شباب من هنا من قبل البربرى المحمى مـــن قبـــلى؟ ومـــا هدف المعاناة على أيدى الرجال المرتدين الأزرق إن لـــم أكـــن صلباً بمتانة الحديد فى يقينى؟ لا يهم أن أخـــبرت المحققين بالحقيقة أو سردت كل كلمة تفوهت بها عند زيـــارتى للـــبرابرة، لا يهم أيضاً أن مالوا إلى تصديقى، إنهم سيواصلون لضغط بأعمالهم البشعة، لأنه بند من إيمان بالنسبة إليهـــم مـــن أن لحقيقة الأخيرة لا تُقال إلاّ فى أقصى درجات الألـــم. أنـــا أبـــتعد مهرولا من الألم والموت. لا أمتلك خطة لـــلهرب. إن اخـــتفيت فى أدغـــال القصب فسأموت جوعاً فى غضون أسبوع، أو أتلاشى إلى لا شيء. أنا ببساطة أبحث عن راحة البال، إن كان لابد من قول الحقيقة، أفرّ فقط إلى الفراش الناعم والأيدى المحبّة الوحيدة التى بقيت لى.

خطـــوات أقدام ثانية. أميز خطوات الفتاة السريعة، إنما فى هـــذه المـــرة ليست بمفردها ولكن مع رجل. يدخلان الغرفة. أستدل من صوته أنه ليس إلاّ فتى. يقول بحدة، يجب عليك أن لا تسمحى لهم بمعاملتك بذلك الشكل! أنت لست عبدة لهم.

تجيـــب، أنـــت لا تفهم، على أى حال، لا أريد التحدث عن الأمر الآن. يسود الصمت برهة ثم مزيد من أصوات حميمية.

يشـــيع الدم فى وجهى. إنه أمر غير محتمل أن أضطر إلى

لــبقاء بســبب هــذ . وعــلى الرغم من ذلك مثل لديوّث فى مســرحية هــزلية ساخرة أكتم أنفاسى، غاطسا كثر وأكثر فى الخزى.

أحدهمــا يجلس على لسرير. ترمى لأحذية على الأرض، تخشخش أثواب، جسدان يمددان أنفسهما على مسافة انج واحد فــوقى. شــرئح لسرير تنحنى، ضاغطة على ظهرى. أغلق اذنى، خجــلا مــن سماع لكلمات لتى يقولها أحدهما للآخر، ولكننى لا أقدر نْ أمنع نفسى من سماع الارتعاشات ولتأوهات التى أتذكرها جيداً عن لفتاة عندما تستحوذ لبهجة عليها، الفتاة لتى اعتدت أن أكنْ محبتى لها.

ضغط الشرئح يشتد علىّ نْ أبسط نفسى أقصى ما ستطيع، يبدأ لسرير بالطقطقة. متعرقاً، متوهج الوجه أشمئز لإحساسى بمــدى اســتثارتى عــلى الرغم من نفسى، أتأوه فى لحفيفة: التنهيدة الطويلة المنخفضة تلتوى فى حنجرتى وتختلط دون أن ينتبه إليها أحد مع أصوت أنفاسهما اللاهثة.

ثــم ينــتهى الأمــر. يتنهدان ويخمدن، تتوقف الارتعاشات والحركات الخفيفة، يتمددان فى راحة جنبا إلى جنب مستغرقين فى النوم، بينما أنتظر أنا، تعيساً، متوتراً، متيقظا لى أبعد حد، فرصــتى للهرب. نها الساعة التى ينام فيها الجميع نوماً خفيفاً حتى الدجاج، الساعة التى يوجد فيها إمبراطور وحد، الشمس.

دفعاً بقدمي تجاه الجدار، أندفع تدريجياً حتى أتمكن من الجلوس بحذر شديد. الألم فى ظهرى، ألم رجل مسن، يعلن عن نفسه مرة أخرى. أهمس، أنا آسف: إنهما نائمان بعمق، كطفلين، ولد وبنت، عاريان، يد بيد، حبات عرق عليهما، وجهاهما مرتاحان وغافلان. مدّ الخزى يكتسحنى بقوة مضاعفة. جمالها لا يوقظ فيّ أىّ رغبة، لكن الأمر بدلاً من ذلك، يبدو أكثر فحشاً من قبل فيما لو أن هذا الجسد العجوز الثقيل الرخو ذا الرائحة القذرة (كيف تمكنوا من عدم الانتباه للرائحة؟) كان ينبغى له فى أي وقت مضى احتضانها بين ذراعيه. ما الذى كنت أفعله طول هذا الوقت، ضاغطاً بنفسى على أطفال مثل زهور ذات تويجات ناعمة- ليس عليها فقط، على الآخر أيضاً؟ كان علي البقاء بين البدناء والمتفسخين حيث أنتمي: نساء سمينات ذوات آباط لاذعة وأمزجة سيئة، مومسات بمؤخرات كبيرة ورخوة. أخرج على أطراف أصابع قدمى، أحجل نازلاً السلم فى وهج الشمس لذى يكاد يعمى العين.

باب الجناح العلوى للمطبخ مفتوح.. إمرأة عجوز، بلا أسنان، منحنية، تأكل وهى واقفة من إناء معدنى قديم. تتلاقى أعيننا، تتوقف عن الأكل، الملعقة فى منتصف الطريق، فمها مفتوح. تتعرف عليّ.

أرفع يدى وأبتسم- أندهش للسرعة التى تعود فيها

لابتســامة. تــتحرك المــلعقة، تتغــلق لشفتان عليها، تروغ نظرتها، أجتازها.

الــبوبة الشــمالية مغــلقة ومزلّجة. أصعد لسلم إلى برج المراقــبة فــوق زوية لسور وأتطلع إلى الخارج بتوق شديد للمنظر الطبيعى الحبيب بالنسبة لى: حزم الخضرة الممتد على طــول لــنهر، قــد سود الآن فى مساحات صغيرة، لأخضر الأفــتح لوناً للمستنفعات حيث لقصب الجديد يبدً فى لظهور، وسط لبحيرة لذى يخطف البصر.

لابد أن هناك خطأ ما. كم قد مضى على حجزى عن لعالم، شــهرن أم عشرة أعوم؟ القمح الطالع حديثاً فى لفدين تحت السور كان ينبغى أن يكون الآن قوياً بارتفاع ثمانية عشر إنجاً. ولكــنه ليــس كذلــك. ماعدا عند أقصى التخم لغربى للمنطقة المرويّة حيث لنباتات الجديدة الصفراء المعتلة والتى قد توقف نموهــا. هناك الكثير من المناطق الجرداء بالقرب من لبحيرة وصف من سيقان نباتات رمادية بجانب سور الأروء.

أمــام عيــنى الحقول لمهملة، لساحة التى تسفعها الشمس. الشوارع الخالية تتحول إلى هيئة جديدة منحوسة. لبلدة تهجر – ماذا هناك من شيء آخر لأفترضه؟ – والأصوات التى سمعتها قــبل ليلتين، كانت حتماً أصوات رحيل لا وصول! يترنح قلبي (خوفــا؟ أم امتناناً؟) للفكرة. ومع ذلك يجب أن أكون مخطئاً.

عــندما أحــدق باهتمام أكبر فى الساحة، أستطيع رؤية ولدين يلعــبان بهــدوء بكرات زجاجية صغيرة تحت أشجار التوت، ومما رأيته فى الفندق أيضاً، الحياة تتواصل كالمعتاد.

فى البرج الجنوبي- الغربى يجلس حارس على مقعد مرتفع بلا مسند محدقاً ببلادة فى الصحراء. لا ينتبه إلىّ ولا يجفل إلا بعد أن أصبح على مسافة خطوة منه.

يقــول بصوت منخفض، انزل، غير مسموح لك بالصعود هنا. لم أره هنا مطلقاً. أدرك أننى منذ غادرت زنزانتى، لم أر واحــداً مــن الجنود الذين كانوا يؤلفون الحامية القديمة. لماذا يوجد غرباء فحسب في هذه الأرجاء؟

أقول، ألا تعرفنى؟
انزل.'

سأفعل، ولكن قبل ذلك لديّ سؤال مهم جدا أسألك إياه. كما تــرى، لا أحد غيرك كى أسأل- كل واحد آخر يبدو إما نائماً وإمـــا بعيداً. الذى أريد أن أسأله هو: من أنت؟ أين جميع من كنت أعرفهم؟ ما الذى حدث بعيدا هناك فى الحقول؟ يبدو كأن اجــتياحا قــد حصل. ولكن لماذا يكون هناك اجتياح؟ تضيق عيــناه بيــنما اســتمر فى الثرثرة. أنا آسف لتوجيه مثل هذه الأســئلة الحمقاء، ولكننى كنت مصابا بالحمّى، وكنت التزمت الســرير - تــأتى العبارة الغريبة دون أن أسأل- واليوم هو

اليوم الأول الذى سمح لى فيه بالنهوض. ذلك هو...

يقــول، يجــب أن تحذر من شمس منتصف النهار، أبتى. أذناه تبرزان من تحت قبعة واسعة تماما عليه. ستكون أفضل حالاً إن ارتحت فى هذا الوقت من النهار. 'أجل... هل تسمح أن أتــناول بعض الماء؟ يناولنى دورقه وأُشرب الماء الفاتر، محــاولاً أن لا أُظهر مدى ضراوة عطشى. 'ولكن أُخبرنى، ما الذى قد حدث؟

الــبرابرة. لقــد اقــتطعوا جزءاً من السد هناك فى الجانب لآخــر وأغــرقوا الحقول. لم يرهم أحد. جاءوا فى الليل. فى ليــوم التالى بدا الأمر مثل بحيرة ثانية. كان قد حشا غليونه، يقدمه لى الآن. أرفضه مجاملا (سأبدأ فى السعال آخر الأمر، وذلــك أمــر سيء بالنسبة لى.). أجل، لفلاحون غير سعداء بالمرّة يقولون ن المحصول قد دمر وإن لوقت أصبح متأخرً جداً للزرع ثانية.

ذلك أمر سيء. إنه يعنى أن شتاء قاسياً أمامنا. وأن علينا أن نشد علينا أحزمتنا بقوة شديدة.

نعــم، إنــنى لا أحســدكم أيها لناس. بإمكانهم أن يكرروا الكرة، أليس هم بقادرين، لبرابرة. بإمكانهم إغراق هذه الحقول فى أى وقت يختارونه.

ندخــل فى نقــاش حول البرابرة وغدرهم. إنهم لا يقاتلون

مواجهة، يقول ثم يضيف: طريقتهم هى أن يزحفوا خلسة صاعدين من خلفك ويغرزوا سكينا فى ظهرك. لماذا لا يمكنهم تركنا وحدنا؟ لهم مقاطعاتهم الخاصة أليس كذلك؟ أدير المناقشة نحو وجهة أخرى إلى الأيام الخوالى عندما كان من المعتاد أن يكون كل شيء هادئا على الحدود. ينادينى، أبتى ، والتى هى طريقته الفلاحية لإظهار الاحترام، يصغى إلىّ كما يصغى أحدهم إلى رجل مسن مختل عقلياً من العامّة، أى شيء يكون، ذلك أفضل، كما اعتقد من التحديق خارجا فى فراغ كل النهار.

أقول، أخبرنى، سمعت قبل ليلتين أصوات خيّالة وتوقعت أن الحملة الكبيرة قدعادت. يضحك لا، كانوا أولئك مجرد بضعة رجال أرسلوهم إلى هنا. أرسلوهم فى إحدى تلك العربات الكبيرة. حتماً كان ذلك ما سمعته. لقد أصيبوا بالمرض من جراء الماء- الماء سيئ هناك، هذا ما أسمعه- ولهذا فقد أعادوهم إلى هنا.

هكذا إذن! لم أستطع أن أفهم ماذا كان الأمر. ولكن متى نتوقع عودة القوة الرئيسية؟

سريعاً، لابد أن يكون ذلك سريعاً. إنك لا تقدر العيش على فاكهة الأرض الموجودة هنا، هل تقدر؟ لم أر من قبل مثل هذا البلد القاحل.

انزل درجات السلم. تركتنى محاورتنا حاسّاً بكونى موقرا

تقريــباً. من الغريب أن أحداً لم ينبهه إلى الاحتراس من رجل ســمين عجوز فى ملابس رثة! أو ربما وُضع هناك منذ الليلة الأخيــرة دون أن يجد أحداً يكلمه؟ من كان يتصور أننى قادر على الكذب بهذا الشكل اللطيف! الوقت منتصف العصر: ظلى يــنزلق بجــوارى مثل بركة حبر. أبدو كأنى المخلوق الوحيد الذى يتحرك ما بين الأسوار الأربعة. أنا متباه بنفسى إلى الحد الــذى أشعر فيه بالرغبة فى الغناء. حتى ظهرى المتألم لم يعد يهمنى.

أفــتح البوابة الجانبية الصغيرة وأجتازها. صديقى فى برج المراقبة ينظر نحوى. ألوح له ويلوح راداً. ينادى، ستكون فى حاجة إلى قبعة! أربت على رأسى العارى، أهز كتفى، أبتسم. الشمس تضرب أشعتها إلى الأسفل.

قمــح الــربيع قــد خرّب بالتأكيد. طين دافئ ضارب إلى الصفرة ينسحق بين أصابع قدمىّ. لم تزل بقع من ماء الأمطار عالقة فى بعض الأماكن. الكثير من المزروعات الحديثة النمو قــد اســتنزفت واقتــلعت. وهى بأجمعها ذات أوراق مصفرّة، المنطقة الأقرب إلى البحيرة هى الأكثر تضرراً. لم يُترك شيء مــا واقفــاً، إن المــزارعين، بالتأكيد، قد بدأوا الآن فى جمع النــباتات الميتة من أجل حرقها. بزوغ عدة أنجات فى ارتفاع، قــد أحدث كل الاختلاف. لربما إذن يكون بالإمكان إنقاذ ربع المزروعات.

أعمال الحفر الهندسية نفسها، الجدار الطينى المنخفض الذى يمتد إلى نحو ميلين يُخضع مياه البحيرة للمراقبة عند ارتفاعها إلى مستوى منسوبها الصيفى، قد أعيد إصلاحه، ولكن النظام المعقد للقنوات والبوابات التى توزع المياه حول الحقول، قد أزيل بأكمله تقريباً. السد والناعور القريب من ضفة البحيرة لم يتضررا، على الرغم من عدم وجود أثر ما للحصان الذى يدير الدولاب. أستطيع أن أقدر أن أسابيع من عمل شاق بانتظار المزارعين. وفى لحظة، يمكن أن تذهب جهودهم سدى من قبل عدد ضئيل من رجال مسلحين بمعاول! كيف يمكننا أن ننتصر فى حرب كهذه؟ ما فائدة كتب مدرسية عن عمليات عسكرية، اندفاعات وحملات تأديبية فى قلب أرض العدو، بينما يمكن أن ننزف حتى الموت فى موطننا؟

أتخذ الطريق القديم الذى ينحرف خلف السور الغربى قبل أن يتلاشى إلى درب لا يؤدى إلى مكان غير الخرائب المملوءة بالرمال. هل ما زال يسمح للأطفال باللعب هناك، أتساءل بعجب، أم أن آباءهم يبقونهم فى البيوت عن طريق قصص عن البرابرة الذين يتربصون فى التجاويف؟ ألقى نظرة سريعة على السور، ولكن يبدو أن صديقي فى البرج قد استغرق فى النوم.

كافة الحفريات التى قمنا بها فى العام الماضى قد أهملت كفعل تراكمات الرمال. أعمدة الزوايا هى وحدها التى تبرز هنا

وهـناك فى المكان القفر، حيث على لمرء أن يصدق أن أناساً عاشـوا هـنا فى زمن مضى. أهيّء حفرة لنفسى وأجلس كى أرتـاح. أشـك فى مجـيء أحد ما للتفتيش عنى هنا. بإمكانى الاتكـاء عـلى هـذا العمود القديم بزخارفه لمحفورة لدلافين وأمواج كى تقرضنى الشمس وتجففنى الرياح وأتجمد فى نهاية المطـاف بفعل الصقيع، ولن يعثر على ,لا فى بعض الأزمنة البعيدة للسلام، عندما يعود أطفال الواحات إلى ملعبهم ويلاقون الهيكل العظمي، المكشوف بفعل الريح، لساكن صحراء مهجور مكسو بأسمال بالية لا يمكن التعرف عليها.

أسـتيقظ مثـلجاً. الشـمس تستقر فى الأفق الغربى كبيرة وحمراء. الريح تتصاعد: رمال مندفعة فى الهواء بدأت توّاً فى إقامـة سـد لى جنـبى. وعيى يتركز على عطشى بالدرجة الأولى. الخطـة الـتى لهـوت بها، فى تمضية الليل هنا بين الأشـباح، أرتجـف بـرداً، منتظراً أن تتجسد ثانية للعيان من الظـلمة، الجدران وقمم الأشجار المألوفة، هى غير محتملة. لا شيء لى هناك خارج الأسوار غير الموت جوعاً. اركض من حفـرة إلى حفـرة مثل فأرة وأخسر حتى مظهر البراءة. لماذا أحـوّل عمـل أعدائى لمصلحتهم؟ إن أرادوا سفك دمى، دعهم على الأقل يتحملون وزر ذلك. الحزن القاتل لليوم الفائت قد فقد قوتـه. ربمـا لـم تكن هذه المغامرة بلا طائل لو تمكنت من استعادة روح التمرد، مهما كان باهتاً.

* * *

أقعقــعُ بوابة ساحة الثكنات، ألا تعرفون من هنا؟ لقد نلت اجازتي، والآن دعوني أدخل!

يــأتي أحدهــم راكضاً صوبي: ينظر أحدنا إلى الآخرِ في لعــتمة عــبر القضــبان: إنـــه الرجل الذي عيّن حارساً لي. اصــمت ، يهمــس لي من بين أسنانه ويسحب الأقفال، خلفه أصوات تدمدم وأناس يقتربون.

قابضــاً عــلى يدي يأخذني راكضاً عبر الساحة. من هو؟ ُحدهــم ينادي. الإجابة على طرف لساني كي أرد، أن أخرج المفتاح وألوّح به، عندما يخطر على بالي أن هذا العمل قد يعد طائشــاً. وهكــذا أنتظر أمام باب زنزانتي القديمة حتى يفتحه حارسي، يدفعني إلى الداخل، ويغلقه على كلينا. يصلني صوته عــبر الظلمة شديد الغضب: اسمع، إن تحدثت لأي واحد عن خــروجك ســأجعل من حياتك شقاء! هل تفهم! سأجعلك تدفع الثمن! لا تقل شيئاً لأي واحد يسألك عما حدث هذا المساء، قل إنني قد أخذتك للتريض، للسير، لا أكثر. هل تفهمني؟

أفكّ أصابعه عن ذراعي وأنزلق بعيداً عنه. أدمدم، !هل ترى كــم أن الأمر سيكون سهلاً عليّ للهرب والبحث عن مخبأ عند الــبرابرة، لماذا في اعتقادك قد عدت؟ إنك مجرد جندي عادي، يمكــنك فقط إطاعة الأوامر. مع ذلك: فكر في المسألة. يقبض عــلى رســغي ومــرة ثانية أحل أصابعه. فكر في السبب الذي

دفعــنى للعودة وماذ كان الأمر سيعنى إن لم ُكن قد فعلت ذلك.
ليس بإمكانك أن تتوقع تعاطفاً من قبل الرجال المرتدين الأزرق،
أنا واثق من أنك تعرف ذلك. فكر فيما سيحدث إن خرجت ثانية.
ُمســك أنا لآن بقبضته. وليكن لا تقلق، لن أتحدث: رتب أى
قصــة تــريدها وسأزيدك. ُعرف كيف يبدو الأمر عندما يكون
المرء خائفا! يحل بيننا صمت متوتر طويل. أقول: على تعرف
ُكثر شيء أرغب فيه. ُريد شيئاً آكله ، شيئا أشربه. أحس بجوع
شديد. لم أتناول شيئاً طول النهار.

وهكذا يعود كل شيء إلى ما كان عليه. ويستمر هذا لحجز
للامعقــول. ُتمــدد على ظهرى أراقب بقعة الضوء من فوقى
تــنمو أقــوى ثم تضعف يوما بعد يوم. أصغى إلى الأصوات
لبعيدة لمسحاة عمال البناء، ومطرقة لنجار وهى تصلنى عبر
الجدار. آكل وأشرب ومثل أى فرد آخر، أنتظر.

* * *

هــناك، أولاً صــوت بنادق من بعيد خافت كصوت بندقية
أطفال. ثم يأتى من مسافة أقرب من لمتاريس نفسها، وابل من
إطلاقــات مجيبة. هناك عبر الساحة ُصوات خطوت جماعية
قويــة. أحدهــم يصــيح، "البرابرة ولكننى أظن أنه مخطئ.
لجرس الكبير يبدأ بالجلجلة متعالياً على لضجيج بأكمله. جاثماً
ورأسى على شق الباب، أحاول أن أفهم ما يجدى.

يــتعاظم الصوت القادم من الساحة من الهرج والمرج إلى صخب ثابت لا يمكن تمييز صوت منفرد فيه. لا بد أن المدينة بأكمــلها تــتدافع خارجــاً للترحيب، ألوفا من النفوس المنتشية ســروراً. إطلاقات الفرسان تتواصل مفرقعة. ثم تتغير درجة الصخب مرتفعة في انفعال. وأخيراً تعلو عليها النغمة النحاسية للأبواق.

الإغــراء كــبير جداً، ما الذى لدّى لأفقده؟ أفتح الباب. فى وهج يعمى البصر يتحتم علىّ أن أحوّل عينى وأظللهما. أعبر الســاحة، اجــتاز الــبوابة وأنضم إلى مؤخرة الحشد. تستمر الإطلاقــات وصــخب التهــليل. المرأة العجوز ذات الملابس الســوداء التى تقف إلى جوارى تأخذ بيدى لتوازن نفسها وهى تقف على أطراف أصابع قدميها. هل بإمكانك الرؤية؟ تسأل. أجيب،. نعم، أستطيع أن أرى رجالاً على ظهور خيل ، ولكنها غير مصغية.

أستطيع أن أرى صفاً طويلاً من رجال يمتطون خيولاً وهم يجــتازون، بين رايات مزخرفة، البوابة ويتوجهون إلى وسط الســاحة حيث ينزلون من على خيولهم. هناك غيمة من غبار فــوق الســاحة بأجمعها، ولكننى أراهم يبتسمون ويضحكون: أحدهــم وهــو ممتط ويده مرفوعة بعلامة النصر، آخر يلوح بإكــليل مــن زهــور. يتقدمون ببطء، لأن الحشد يزدحم من

حولهم، يحاولون لمسهم يقذفون الزهور، يصفقون وأيديهم فوق رؤوســـهم من الفرح، يدورون فى حلقات وحلقات تعبيراً عن نشـــوتهم الخاصة. يندفع أطفال مارين بى، يتدفعون بين أرجل الكـــبار كى يكونـــوا أكثر قرباً من أبطالهم. وابل من إطلاقات تـــأتى إثـــر وابـــل من المتاريس التى تشكل خطأ مع لجموع المهللة.

جزء من الخيّالة لا ينزل عن ظهر الخيل، يترأسهم عريف شـــاب عـــابس الوجـــه يحمل الراية الخضراء الذهبية للكتيبة، يمرون من خلال حشد الأجساد المزدحمة حتى النهاية القصوى للساحة، ثم يشرعون بالدوران حول الساحة، يتدفق الحشد ببطء فى أثرهم. تسرى الكلمة مثل نار من واحد إلى من فى جواره: البرابرة !

جواد حامل الراية يقاد من قبل رجل يلوّح بعصا ثقيلة ليفسح الطريق أمامه. يأتى خلفه فارس آخر يجر حبلا، يأتى فى نهاية الحبل صف من رجال مربوطين رقبة إلى رقبة، برابرة، عراة كـــليا، رافعيـــن أيديهـــم عاليا نحو وجوههم فى وضع غريب وكـــأنهم جميعا يعانون من ألم الأسنان. للحظة، تنتابنى الحيرة لهيئـــتهم، للرغبة الحذرة التى يقتفون لها أثر قائدهم، حتى ألمح ومضـــة معدن، وأفهم فى الحال. أنشوطة بسيطة من سلك تمر عـــبر لحم يد كل رجل منهم وعبر فتحتين مثقوبتين فى خديه.

إنـــه يجعلهم بوداعة الحملان، أتذكر أن جندياً كان قد أخبرني بأنه رأى مرة هذا الفعل: إنهم لا يفكرون في شيء غير البقاء ســـاكنين. ينقــبض قلبي. أدرك الآن أنه ما كان عليَّ مغادرة الزنزانة.

أضـــطر إلى أن أدير ظهري بمهارة كي لا أشاهد من قبل اثنين من رجال الحرس الممتطين فرسيهما، يحافظان على نظام المسيرة في الخلف، النقيب حاسر الرأس الذي انتصر الأول هو هــذا، وإلى جــواره عميد الشرطة جول الذي يبدو أنحف قامة واغمق لوناً بعد أشهره التي أمضاها في الحملة.

الحــلقة تكاملت. كل واحد لديه فرصة لرؤية الأسرى البائسين الاثـــنى عشـــر، كي يؤكدوا لأولادهم أن البرابرة موجودون حقاً. يتدفق الحشد الآن، أنا على مضض في أثره، نحو البوابة الكبيرة، حيـــث يسد الطريق نصف دائرة من الجنود، حتى لا يتمكن الحشد من التزحزح بعد الضغط عليهم من الأمام والخلف.

أسأل الرجل المجاور لي، ما الذي يجري؟

يقول، لا أدري، ولكن ساعدني في رفعه. أساعده في رفع الطفـــل الذي يحمله على ذراعه إلى كتفيه. يسأل الطفل، هل بإمكانك الرؤية؟

نعم.

ماذا يفعلون؟

إنهم يرغمون البرابرة على الركوع. ما الذى سيفعلونه بهم؟

لا أعرف. دعنا ننتظر ونر.

بـــبطء، بقوة هائلة، بكل قوتى، أستدير وأبدأ فى دفع جسدى خـــارج الحشد. أقول، اعذرني... اعذرنى...، الحر- سيغمى عليّ وللمرة الأولى أرى رؤوساً تستدير وأصابع تشير.

يتحـــتم عليّ العودة إلى زنزانتى. وهى كحركة لن يكون لها أى تأثير، وقد لا تلاحظ أيضاً. وعلى الرغم من ذلك، ومن أجل نفســـى، كإيمـــاءة لنفسى فحسب، يتحتم على أن أعود إلى البرد والظـــلمة وأغـــلق الباب وأثبت المفتاح وأصم أذنىّ عن أصوات وطنية متحرقة للدماء وأضم شفتىّ وأن لا أتكلم قط ثانية.

من يدرى، ربما أقترف أنا ظلماً تجاه رفاقى من أهل البلدة. لـــربما أن صانع الأحذية يدق فى هذه الدقيقة الحذاء الذى بيده ويضعه فى القالب، يدندن لنفسه ليتخلص من الأصوات العالية، وربمـــا أن هـــناك ربات بيوت يقشرن البازلاء فى مطابخهن، يـــروين قصصاً من أجل إلهاء أطفالهن الأرقاء، ربما أن هناك مـــزارعين ما يزالون يواصلون إصلاح مصارف مياههم. إن وجـــد رفـــاق مثل هؤلاء، كم هو أمر مؤسف أنى لا أعرفهم! بالنسبة لى، فى هذه اللحظة التى أبتعد فيها بخطوات واسعة عن الحشد، ما يهمنى أكثر من أى شيء سواه هو أن لا أدنّس بهذا العمـــل الشنيع الذى سيُقترف، ولا أسمم نفسى بكراهية عاجز

تجاه مرتكبيها. لأتحدث عن الأمر بأبسط ما يمكن التكلم عنه، إن جــاء قــط يوم وتحدثوا عنه، إن كان هناك قط أحد ما فى مرحــلة من مراحل لمستقبل البعيد اهتم أن يعرف طريقتنا فى العيــش، إنــه فى هذا المخفر الأمامى الأبعد من إمبراطورية النور، وُجِدَ رجل واحد لم يكن من أعماق قلبه بربرياً.

أجتاز بوابة الثكنات إلى ساحة سجنى. عند حوض الماء فى منتصــف الســاحة، ألتقط دلوا فارغاً وأملؤه. الماء يتناثر من أطــراف الدلو وأنا أحمله مرفوعاً أمامى، وأقترب من مؤخرة الحشــد ثانية. معذرة، أقول وأدفع تشتمنى الناس، وتفسح لى الطــريق، يميل الدلو ويطرطش الماء، أجرى إلى الأمام حتى أبــدو فجــأ جلياً فى مقدمة الصف الأمامى للحشد خلف ظهر الجــنود الذين يمسكون بعوارض بين الواحد منهم والآخر، كى يحافظوا على إخلاء الجزء الوسط من الساحة لما سيكون عبرة للمشاهدين.

أربعة من السجناء يركعون على الأرض. الثمانية الآخرون مــا يزالون موثقين، يجلسون القرفصاء في ظل جدار، يرقبون وأيديهم على خدودهم.

ينحــنى الســجناء الراكعون جنباً إلى جنب فوق عمود ثقيل طويل. يمتد حبل من عقدة السلك عبر فم الرجل الأول. ثم من تحــت العمــود، وأعــلى إلى عقدة الرجل الثانى، ومن تحت

العمـــود، أعلى إلى العقدة الثالثة، من تحت العمود، عبر العقدة الـــرابعة. بيـــنما أرقـــب جنديا، ينتزع الحبل ببطء ويشدّه قوياً وينحـــنى الســـجناء أكثر وأكثر حتى يركعوا أخيراً ووجوههم تلامـــس العمـــود. أحدهم يلوى كتفيه متألماً متأوهاً، الآخرون ساكتون، تتركز أفكارهم تماماً على التحرك بنعومة مع الحبل، لئلا يمنحوا الحبل فرصة لتمزيق أجسادهم.

مـــن يقـــود الجند بإشارات طفيفة من يده هو العميد جول. وعـــلى الـــرغم من أننى لست الشخص الوحيد فى حشد يضم الآلاف، وعلى الرغم من كون عينيه مظللتين كما فى السابق، أحدق أنا فيه بصلابة بوجه يشرق بالتساؤلات لأننى أعرف أنه يرانى فى الحال.

اسمع من خلفى بوضوح كلمة القاضى. أترانى أتخيل الأمر أم أن من بجوارى بدأوا يبتعدون عنى؟

يتقدم العميد إلى الأمام. وبالتتابع ينحنى عند كل سجين يفرك حفنة من تراب على ظهره العارى ويكتب بعصا من فحم نباتى كـــلمة. أقرأ الكلمات بالمقلوب: عدو... عدو... عدو... عدو. يعـــود إلى الـــوراء ويثـــنى ذراعيه. ومن مسافة لا تزيد عن عشرين خطوة يتأمل أحدنا الآخر.

يـــبدأ بعدئـــذ الضـــرب. يستخدم الجنود عصياً من القصب الأخضـــر المـــتين، ينزلونها فى لطمات ثقيلة، أشبه بأصوات

صـــادرة عن اللوح الخشبى الذى تغسل عليه الملابس، مسببة آثـــارا حمراء على ظهور السجناء وأردافهم. بحذر شديد، يمد السجناء سيقانهم حتى يستلقون تماما على بطونهم، كلهم ما عدا السجين الذى يتأوه والذى يلهث الآن بشدة ثر كل ضربة.

الفحـــم النباتى الأسود والتراب الأصفر يبدآن بالسيلان مع العـــرق والـــدم. اللعـــبة، كمـــا افهم، هى ضربهم حتى تتآكل ظهورهم تماماً.

أرقـــب وجه فتاة صغيرة تقف فى الصف الأول من الحشد قابضة على ملابس والدتها. عيناها مدوّرتان، إبهامها فى فمها: ســـاكنة، خائفـــة، فضـــولية، تتشرّب مشهد رجال كبار عراة يضـــربون أمامهـــا. عـــلى كـــل وجه من حولى، حتى أولئك المبتســـمون، أرى التعبير نفسه: ليس حقداً، ليس رغبة لإراقة دم، بل فضول متوتر جداً إلى الحد الذى تستنزف فيه أجسادهم، وتبقى أعينهم نابضة بالحياة، أعضاء لشهوة جديدة وضاربة.

علامـــات الإنهاك تبدو على الجنود الذين يتولون الضرب. يقـــف واحـــد منهم ويد ه على ردفيه لاهثاً، مبتسماً، مشيراً إلى الحشد. تبدر كلمة من العميد جول: يتوقف الأربعة عن عملهم ويتقدمون إلى الأمام يعرضون عصيّهم للمشاهدين.

فـــتاة ضـــاحكة، تـــوارى وجههـــا، تُدفع إلى الأمام من قبَل صـــديقاتها. يلحدن عليها، اذهبى لا تكونى خائفة! جندى يضع

العصـــا فى يدها ويقودها إلى المكان. تقف مرتبكة، حائرة، يدها ما تزال على وجهها. تنهال عليها الصيحات، دعابات، توصيات مشـــينة. تـــرفع العصــــا، تهبط بها بقسوة على ردفى السجين، تسقطها أرضاً، وتعدو إلى الأمان إلى عاصفة من تصفيق.

هـــناك تدافـــع عـــلى العصى، يحافظ الجنود بصعوبة على الـــنظام، يختفى عنى منظر الأسرى وهم على الأرض، بسبب من تدفع الناس إلى الأمام لأخذ دورهم أو ببساطة، للتفرج على الضرب من مكان أقرب. أقف منسياً والدلو بين قدمى.

ينـــتهى الجـــلد بعدئذ، يعاود الجنود إصرارهم على حقهم، يـــتدافع الحشد إلى الوراء، تهيأ الساحة مجدداً، على الرغم من أنها قد أصبحت الآن أضيق من ذى قبل.

يمســـك العميـــد جول بمطرقة فوق رأسه، يعرضها للحشد، مطرقة اعتيادية، وزنها أربعة أرطال، تستعمل لدق وتد الخيمة، ثانية، تلتقى نظراته لنظراتى: تهدأ البلبلة.

لا! اسمع الكلمة الأولى من حنجرتى، صدئة، غير مرتفعة إلى درجـــة كافية. ومرة ثانية: لا! ترن الكلمة فى هذه المرة مثل جرس فى صدرى. الجندى لذى يسدّ طريقى يتعثر جانباً. فى الحلبة أنا، رافعاً ذراعىّ لتهدئة لحشد: لا! لا! لا!

عـــندما أستدير نحو العميد جول الجدار واقفاً على بعد أقل

مـــن خمس خطوات منى، أشير بأصبعي نحوه. أصيح، أنت لأدع كـل مــا أريده يقال، لأجعله الشخص الذى يتكسر عليه غضبى.

إنك تفسد هؤلاء الناس

إنه لا يجفل، لا يجيب.

أنـــت! يدى تشير نحوه مثل بندقية، صوتى يملأ الساحة. صـــمت شــامل هناك، أو ربما، إننى جد ثمل بفعلتى إلى الحد الذى لا اسمح فيه شيئاً.

شـــيء ما من الخلف يشق طريقه نحوى بجلبة. انبطح على التراب، ألهث بشدة، أحس بلفحة الألم القديمة فى ظهرى. عصا تـــنحط علىّ، أمدّ يدى محاولاً الذود منها، أتلقى ضربة صاعقة على يدى.

وفـــوقى يصبح ضرورياً، مهما يكن صعباً بسبب الألم الذى يبعـــثه. أقف على قدمىّ وأتبيّن من هو ذلك الذى يضربنى. إنه الـــرجل المتين الذى يحمل شارة الرقيب والذى أسهم فى عملية الضـــرب.جاثم على ركبتيه، فتحتا أنفه تستشيطان غيظاً، يقف والعصـــا مـــرفوعة للضـــربة الثانية، انتظر! ألهث ماداً يدى المترنحة. أعتقد أنك قد كسرتها! يضرب، أتلقى الضربة على ســـاعدى. أخـــفى يـــدى، أخفض رأسى، وأحاول أن أتحسس طريقى نحوه وأتماسك معه بالأيدى. تنهال ضربات على رأسى

وكتفى. لا بأس: كل ما أريده هو بضع لحظات لإنهاء ما أقوله الآن والــذى بدأته. أمسك بسترته وأجذبه إلىّ وعلى الرغم من صــراعه، فإنـــه لا يقدر على استعمال عصاه، من فوق كتفه، أصيح ثانية:

ليــس بتلك! أصيح المطرقة تضطجع محمية بين ذراعى العميــد المتينــتين لســت بقادر على استعمال المطرقة على بحيــوان، ليــس على حيوان! في اندفاعة رهيبة من غضب، أســتدير نحو الرقيب وأقذفه بعيداً عنى. قوة إلهية قوتى. وهى فى دقيقة ستتلاشى: لأستخدمها بشكل جيد فى وقت وجودها!

أنظــر! أصــيح. أشير إلى السجناء الأربعة المستلقين على الأرض باستســلام، شــفاههم عــلى العمــود، أيديهم، ممسكة بوجوههــم مــثل مخالب قرد، غافلين عن المطرقة، جاهلين ما يــدور خــلفهم، مــرتاحين لأن علامـــة الإساءة قد صدّت عن ظهورهــم، آمــلين أن العقوبـــة قـــد وصلت نهايتها. أرفع يدى المكســورة إلى الســماء. أصــيح، أنظــر! نحن معجزة الخلق الكبرى! ولكن هذا الجسد المعجز لا يستطيع إصلاح نفسه بفعل بعــض الضــربات! كيف! تخذلنى الكلمات. أنظر إلى هؤلاء الــرجال! أعيــد الكرة رجال أولئك الذين فى الحشد القادرين على أن يشرئبوا بأعناقهم للنظر إلى السجناء، وحتى نحو الذباب الذي يبدأ فى الاستقرار على ندوبهم النازفة، يبدأون بالهيجان.

أسـمع الضـربة وهي تنزل، أستدير لألاقيها. تتلقاني فوق الوجـه تماماً. أنا أعمى! أعتقد ذلك، مترنحاً إلى الخلف نحو الظـلمة الـتي تسقط في الحال. أبتلع دماً، يبرز شيء ما فجأة عـلى وجهي، مبتدئاً بدفء متفائل، متحولاً إلى ألم متقد. أخفي وجـهي في يديّ وأضرب الأرض بقدميّ في دائرة من حولي محاولاً ألا أصرخ: محاولاً ألا أسقط.

مـا أردت أن أقولـه بعدئذ، لا أقدر على تذكره. معجزة الخلق أتعقب الفكرة ولكنها تتملص مني مثل حزمة من دخان. يخطـر بـبالي أنـنا نسحق الحشرات تحت أقدامنا، إنها أيضاً معجزات الخلق، خنافس، ديدان، صراصير، نمل، في حالاتها المختلفة.

أرفع أصابعي عن عيني وعالم رمادي ينبعث مجدداً سابحاً في دمـوع. أنا ممتن بعمق لأنني توقفت عن الإحساس بالألم. بينما أدفع أنا، رجل عند كل مرفق، عائداً عبر الحشد المدمدم، إلى زنزانتي، بل وحتى أجد نفسي مبتسماً.

تلك الابتسامة وتلك الفورة من الفرح، تترك وراءها رواسب تـثير القـلق. أعرف أنهم يقترفون خطأ في التعامل معي بهذه السـرعة، أنـا لست بخطيب. فماذا كان بمقدوري أن أقول إن كـانوا قـد سمحوا لي بمواصلة الكلام؟ ذلك أنه من الأسوأ أن تضـرب قدمـا رجل حتى تتحولا إلى عجينة من أن يقتل في

معـــركة؟ إنه أمر يجلب العار على كل واحد عندما يسمح لفتاة أن تجـــلد رجـــلا؟ وإن مشـــاهد القســـوة تفسد قلوب الأبرياء! الكـــلمات التى منعونى من قولها ربما كانت جديرة بالازدراء، نـــادراً ما تقدر الكلمات على إثارة الرعاع. ماذا أمثل أنا، بعد كـــل شيء، غير مبادئ وقواعد رجل ينسجم سلوكه مع مقياس رفيـــع من مقاييس السلوك الحسن تجاه أسرى أعداء، وما الذى أقف أنا ضده فضلاً عن العلم الجديد للانحطاط الذى يقتل الناس وهـــم راكعون، مرتبكون ومتجردون من الكرامة أمام أنفسهم؟ ياليتـــنى لـــم أجرؤ على مواجهة الحشد وطلب العدالة لهؤلاء السجناء البرابرة المثيرين للسخرية ومؤخراتهم معروضة على المـــلأ؟ العدالة: حالما تطلق تلك الكلمة، إلى أين سينتهى الأمر برمـــته؟ الأســـهل أن تصرخ لا! الأسهل أن تتعرض للضرب وتصـــبح شهيداً. الأسهل أن أدفن وأن يوضع رأسى على كتلة من حجر من أن أدافع عن قضية العدالة بالنسبة للبرابرة: فإلى أيـــن بإمكان تلك المناقشة أن تقودنا إلا إلى التخلى عن سلاحنا وفـــتح بوابات البلدة لأناس قمنا باغتصاب أراضيهم؟ القاضى القديم، المدافع عن حكم القانون، عدو بطريقته الخاصة للدولة، يُعـــتدى عـــليه ويسجن، الفاضل فوق الشك، ذلك لن يكون من غير استشعاره بوخز من ارتياب.

أعلم أن أنفى مكسور، وربما عظمتا الخد أيضاً حيث انفتح لحم بشرتى بضربة العصا. عينى اليسرى متورمة إلى حد أنى لا أقدر على فتحها.

في الوقـــت الذى ينقضى فيه الحذر، يبدأ الألم يعاودنى في تقلصـــات بين دقيقة أو اثنتين ما عدا شدة الانفعال الذى أنا فيه وهـــو مـــا يجعلنى غير قادر بعد علي التمدد ساكناً. عند ذروة التقلص، أسير في أرجاء الغرفة قابضاً على وجهى، أعوى مثل كلب، أتنفس بعمق فى الوديان المباركة ما بين ذروات التقلص، محـــاولاً أن أحتفظ بالسيطرة على نفسى، محاولاً أن تبدر مني صيحة عالية مخزية جداً. يخيل إلىّ أنى أسمع جيشاناً وهجوماً مؤقتاً في الصوت الصادر عن الغوغاء فى الساحة، ولكننى لا أقدر على التأكد من أن ذلك الهدير هو ببساطة ليس فى طبلتى أذنى.

يجلـــبون لى وجبة المساء كالمعتاد، ومع ذلك لا أستطيع أن أتناولـــه. لا أقدر على البقاء ساكناً، أضطر إلى السير إلى الأمام والى الخـــلف أو أن أتـــأرجح علي عجزى كى أمنع نفسى من الصـــراخ، ممـــزقاً ملابسى، ناشباً أظافرى فى لحمى، فاعلاً أى شيء، يفعله الناس عندما يتجاوزون حدود تحملهم. أبكى، وأحس بالدموع تلسع لحمى المفتوح. أدندن بالأغنية القديمة عن الفارس ودغل العرعر مرات ومرات، متشبثاً بالكلمات التى أتذكرها بعد أن فقـــدت كـــل إحساس بها. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... أعد. أقول لنفسى، سيكون نصرا مشهودا إن عشت هذه الليلة.

في الســـاعات الأولى مـــن الصباح، لما ينتابنى دوار شديد

بسـبب الـتعب، أدور عـند ذلك على قدميّ ثم أستسلم أخيراً وأنـتحب مـن أعمـاق قلبى مثل طفل: أجلس فى زاوية فى مواجهة الجدار وأنخرط فى البكاء، تسيل الدموع من عينى بلا توقـف. أبـكى ثم أبكى بينما طلقات الألم تأتى وتروح حسب دوراتهـا. يـندفع النوم صوبى وأنا فى مثل هذه الحالة، مثل صـاعقة. أنذهـل وأنـا أعود إلى نفسى فى الضوء الشاحب الـرمادى للنهار، مترهلا فى إحدى الزوايا، دون أى إحساس ولـو ضـئيل بمرور الزمن. وعلى الرغم من تواصل طلقات الألم، أتبين أننى قادر على تحملها، إن بقيت ساكناً. في الحقيقة، لقـد فقـدت غرابتها. وهى سرعان ما ستكون جزءاً منى كما التنفس.

وهكذا أتمدد بهدوء تجاه الجدار، أثنى ذراعى الملتهبة تحت إبطى ابتغاء الراحة وأغرق فى النوم ثانية، إلى بلبلة من صورٍ مـن بيـنها واحـدة أسبر غورها بدقة وبشكل خاص، دافعاً الأخـريات التى تطير نحوى جانبا مثل أوراق شجر. إنها عن الفـتاة. جاثمـة هى وظهرها نحوي أمام قصر الثلج أو قصر الرمال الذى تبنيه. وهى ترتدى ثوباً داكن الزرقة، عند اقترابى منها، أجدها تحفر فى جوف القصر.

تحـس بوجودى وتستدير. لقد كنت مخطئاً. إنه ليس قصرا ذلك الذى تبنيه ولكن فرنا من صلصال. يتصاعد الدخان ملتويا

إلى أعلى من منفذ إلى أعلى. تمد ذراعيها نحوى تقدم لى شيئاً، كتلة بلا شكل، أتطلع إليها أنا، من غير رغبة عبر ضباب. ومع أننى أحرك رأسى، فإن الرؤية لا تتوضح أمامى.

إنها ترتدى قبعة مستديرة مطرزة بالذهب. شعرها مجدول فى ضفيرة ثقيلة تستقر على كتفيها: هناك خيوط ذهبية تتخلل الضفيرة. أريد أن أسأل، لماذا ترتدين أفضل ثيابك، لم أرك مطلقا تبدين بمثل هذا الجمال؟ تبتسم لى: يا لها من أسنان جميلة تلك التى تمتلكها، وأى عينين صافيتين بلون الكهرمان الأسود! كما أننى أستطيع أن أرى الآن من أن ما تقدمه لى هو رغيف خبز، ما يزال ساخناً، بقشرة خشنة متكسرة يتصاعد منها البخار. تجتاح كيانى موجة عارمة من الامتنان. أريد أن أقول، من أين تعلمت طفلة مثلك أن تخبز بهذا الشكل الجيد فى الصحراء؟ أفتح ذراعى لاحتضانها، ثم أعود إلى وعيى والدموع تلسع الجرح الذى فى خدى. وعلى الرغم من أننى أحبو فى الحال عائداً إلى جحر النوم فإننى لا أقدر على الدخول ثانية إلى الحلم أو أتذوق مذاق الخبز الذى جعل لعابى يسيل.

* * *

يجلس العميد جول خلف المكعب فى غرفتى. لا توجد هناك كتب أو ملفات، الغرفة خالية تماماً ما عدا زهرية فيها ورود قطفت تواً.

يـــرفع ضابط الصف الوسيم الذى لا أعرف اسمه، الخزانة المصـــنوعة من خشب الأرز ويضعها على المكتب ثم يتراجع إلى الخلف.

يـــتحدث العميـد جول، وهو ينظر فى أوراقه، كانت هذه الخزانة الخشبية من بين الحاجيات التى وجدت فى شقتك. أود منك أن تتأمل الأمر. محتوياتها غير اعتيادية. وهى تحوى نحو ثلاثمائـــة شـــريحة من خشب الحور الأبيض. كل واحدة منها ثمانيـــة فى اثـــنين انج تقريباً، الكثير منها ملفوفة بأطوال من الخيـــط. الخشـــب جاف وهش. بعض الخيوط جديدة وبعضها قديمة إلى درجة التلف.

إن حـــلّ أحد ما خيطاً سيجد أن الشريحة تنفتح كاشفة عن ســـطحين مســـتويين داخليين. هذه الأسطح المستوية، مكتوب عليها بخط غير معهود.

أعتقد أنك ستؤيد هذا الوصف.

أحدق في العدستين لسبوداوين. يواصل كلامه.

الاســـتنتاج المقنع هو أن الشرائح الخشبية تتضمن رسائل تـــبودلت بيـــنك وبيـــن جماعات أخرى، لا نعرف متى، الأمر متروك لك لشرح ما هو مكتوب على هذه الرسائل ومن كانوا الجماعـــات الأخـــرى. يتـــناول شريحة من الخزانة ويدفعها

بضربة خفيفة عبر السطح الأملس الصقيل للمكتب نحوى.

أتطـــلع فى خيوط الأبجدية المكتوبة من قبل شخص غريب مات منذ زمن بعيد. لا أعرف أنا إن كانت تقرأ من اليمين إلى اليســـار أو مـــن اليسار إلى اليمين. فى الأمسيات الطويلة التى أمضـــيتها مـــتأملاً فيهـــا مجموعتى، كنت قد أفرزت أكثر من أربعمائـــة رمز مختلف فى النص، أو ربما أربعمائة وخمسين. لا أمتـــلك فكرة عن المعانى التى ترمز إليها. هل إن كل واحد منها يشير إلى شيء مفرد، دائرة للشمس، مثلث للمرأة، موجة للـــبحيرة، أم أن الدائـــرة تعـــني الدائـــرة فحســـب والمثلث هو المثلث والموجة هى الموجة'؟ هل إن كل رمز يمثل حالة مختلفة للسان، الشفتين، الحنجرة، الرئتين، كما تجمع سوياً عند الـــنطق فى بعض اللغات البربرية المتنوعة المنقرضة؟ أم أن رمـــوزى الأربعمائة لا تعنى شيئاً بل مجرد شخبطات زخرفية لمجموعـــة أساســـية من عشرين أو ثلاثين صيغة، لا أقدر أنا ضـــمن إمكانياتى العقلية على فهمها؟ أقول، إنه يبعث بتحياته إلى ابنـــته، أســـمع بعجب الصوت الأخن الثخين الذى أصبح صوتى الآن. تمضى أصابعى متلمسة سطر الرموز من اليمين إلى اليســـار. والتى كما يقول لم يرها منذ زمن بعيد. إنه يأمل أن تكـــون ســـعيدة، ناجحة. وهو يأمل أن موسم الحملان كان جيـــدا. إنه قد هيأ هدية لها، ويقول بأنه سيحتفظ بها لديه حتى يراها ثانية. وهو يبعث حبه. ليس من السهل قراءة توقيعه هذا.

وقد يكون ببساطة والدك أو قد يكون شيئاً آخر، اسماً.

أتقــدم مــن الخزانة وألتقط شريحة أخرى. ضابط الصف الجــالس خلف جول، دفتر ملاحظاته مفتوح على ركبته، قلمه مثـبت عــلى الورقـــة يحدق نحوى بصلابة. أقول، تقرأ هذه الشريحة كما يأتى: إنني آسف لإرسال أخبار سيئة. جاء الجند وأخــذوا أخـــاك بعيــداً. لقد ذهبت إلى الحصن بصورة يومية لألتمس عودته. أجلس على التراب ورأسى عارٍ. أمس وللمرة الأولى بعـــثو رجلاً ليتحدث معى. يقول إن أخاك لم بعد هنا. يقــول إنه قد أرسل بعيداً. أين؟ سألت، ولكنه لم يخبرنى. لا تخبرى والدتك ولكن شاركينى فى الصلاة من أجل سلامته.

والآن دعونـــا نر ماذا تقول الشريحة الثالثة هذه. لقلم ما يـــزال مثبتاً وهو لم يكتب شيئا، ولم يتحرك. ذهبنا يوم أمس لاصطحاب أخيك. قادونا إلى غرفة حيث كان مددا على منضدة قـــد خيط فى داخل ملاءة؟ يميل جول ببط، مستنداً على ظهر كرســـيه. يغلق ضابط الصف دفتره ويقف نصف وقفة، ولكن جـــول بحـــركة من يده يهدئه. أرادوا منى أخذه بتلك الهيئة، ولكنـــنى ألححت على إلقاء نظرة عليه. ماذا لو أنكم تعطوننى جثة أخرى؟ قلت لهم لديكم أجساد كثيرة هنا، أجساد رجال فى عمـــر الشباب. وهكذا فتحت ورأيت انه كان حقاً أخوك. على الرغم من أننى رأيت غرزة على كل جفن. قلت لماذا فعلتم به

هذا؟ قال، 'إنه تقليد نتبعه. مزقت الملاءة وفتحتها على وسعها ورأيــت كدمـــات فى كل أجزاء الجثة، ورأيت أن قدميه كانتا متورمـــتين ومكسورتين. قلت، ماذا حدث له قال الرجل، لا أعــرف، الأمـــر غير مذكور فى الورقة، إن كانت لديك أسئلة عــليك بالذهاب إلى الرقيب، ولكنه مشغول جدا . واضطررنا إلى دفن أخيك هنا، خارج حصنهم، لأنه كان قد بدأ ينتن. رجاء أبلغى والدتك وحاولى مواساتها.

والآن دعونـــا نـــر ماذا تقول الشريحة التالية. انظر، هناك رمـــز واحد فقط. إنه الرمز البربرى الذى يعنى حرب ، ولكن لـــه معانى أخرى أيضاً. فهو قد يرمز إلى كلمة انتقام، إن قلبته رأســاً على عقب هكذا، فإنه لذلك يصلح ليقرأ عدالة. ليس من المعلوم أى المعانى هى المقصودة. إنه جزء من مكر البرابرة.

الأمر نفسه مع بقية هذه الشرائح. أغمد يدى السليمة فجأة فى داخل الخزانة وأقلب ما فيها.

إنهـــا جميعاً تشكل قصة رمزية. ويمكن أن تقرأ على وفق ترتيـــبات عديـــدة. فضـــلا عن ذلك، يمكن قراءة كل شريحة منفردة بطرق متعددة. وكلها معا يمكن قراءتها كسجل وطنى، أو تقـــرأ كخطة حرب، أو يمكن قلبها على طرفها الآخر وتقرأ كتاريخ للأعوام الأخيرة للإمبراطورية- الإمبراطورية القديمة، ذلك ما أعنيه. ليس هناك اتفاق بين الباحثين حول كيفية تفسير

هذه الذخائر العائدة للبرابرة القدماء. مجموعات ذات استعارات مـــثل هـــذه يمكـــن أن يجدهـــا المرء مدفونة فى سائر أرجاء الصحراء. وقد وجدت هذه المجموعة على مساحة ثلاثة أميال من هنا فى بقايا مبنى عام. المقابر هى مكان جيد آخر للبحث، عـــلى الـــرغم أنـــه ليس من السهل دائماً معرفة مواقع مقابر الـــبرابرة. وينصح عادة أن تحفر ببساطة اعتباطاً، ربما ستعثر في البقعة نفسها التى تقف على قصاصة، كسرة، بقايا الموتى. وأيضاً الهواء: الهواء مليء بتنهدات وصرخات. هذه الأشياء لا تتلاشى مطلقاً: إن أصغيت بانتباه، بأذن متعاطفة، ستسمع رجع صـــداها يـــتردد إلى الأبد فى العالم الثانى. الليل هو الأفضل: عندما تجد في بعض الأحيان صعوبة فى النوم، ذلك لأن أذنيك قـــد وصلتهما صرخات الموتى والتى هى مثل الكتابة، عرضة لتفسيرات عديدة.

شكراً لك لقد انتهيت من الترجمة.

لم أخفق فى مراقبة جول طوال الوقت. وهو لم يتحرك من مكانـــه مـــرة أخـــرى، ما عدا وضع يد على كم مرؤوسه في الـــلحظة الـــتى أشرت فيها إلى الإمبراطورية، ووقوفه متأهباً للانقضاض عليّ.

إن تقـــدم منى سأضربه بكل القوة التى يمتلكها جسدى. لن أختفى تحت الأرض دون أن أترك علامة عليهم.

يتكلم العميد، إنك لا تدرى كم هو ممل تصرفك. إنك الموظف الأول والوحيد الذى عيّن للعمل معنا على الحدود والذى لم يمنحنا تعاونه التام. بصراحة، يتحتم عليّ إخبارك بأننى غير مهتم بهذه العيدان. يشير يداً إلى الشرائح المتناثرة على المكتب. من المحتمل جداً أن تكون عيدان مراهنة. أعرف أن قبائل أخرى على الحدود تقامر بالعيدان.

أسألك أن تتمعن برزانة: أى نوع مستقبل يكون لك هنا. لن يسمح لك البقاء فى وظيفتك. لقد ألحقت العار بنفسك تماما. حتى إن لم تحاكم فى آخر الأمر أصيح، أنا فى انتظار أن تحاكمونى! متى ستفعلون ذلك؟ متى ستقدموننى إلى المحاكمة؟ متى سأمنح فرصة للدفاع عن نفسى؟ غضب شديد يجتاحنى. لا أثر من عجز اللسان الذى شعرت به أمام الحشد ابتلى به. إن كان عليّ مواجهة هؤلاء الرجال الآن، أمام الناس، فى محاكمة عادلة فسأجد الكلمات التى ستخزيهم. إنها مسألة صحة وقوة: أحس أن كلماتى الساخنة تنتفخ فى صدرى. ولكنهم لا يقدمون أبداً رجلا إلى محاكمة وهو يتمتع بصحة وقوة كافية لقهرهم. سيسجنوننى بعيداً فى الظلام حتى أصبح أبله مدمدماً، شبحا لنفسى، ثم سيسحبوننى أمام محكمة مغلقة وفى دقائق خمس يتخلصون من الالتزامات القانونية التى يجدونها مملة جدا .

يقول العميد جول، بسبب استمرار حالة الطوارئ، كما

تعلم، فإن إدارة العدالة قد أصبحت خارج نطاق السلطة المدنية وانحصـــرت مسؤوليتها فى أيدى المكتب. يتنهد . أيها الحاكم، يـــبدو أنـــك تعتقد من أننا لا نجرؤ على تقديمك للمحاكمة لأننا نخشى كونك شخصاً ذا شعبية كبيرة فى هذه البلدة، لا أتصور أنـــك تـــعى مـــدى خســـارتك الكبيرة جراء إهمالك لواجباتك، متحاشيا أصدقاءك، معاشرا أناساً وضيعين. لا يوجد واحد ممن تكـــلمت معهـــم لم يحس فى وقت من لأوقات بالإهانة جراء تصرفاتك.

حياتى الخاصة، ليست شأناً من شئونهم!

مع ذلك، أود أن أعلمك أن قرارنا بإعفائك من مسؤولياتك قـــد لقى ترحيباً من قبل كافة الأطراف. أنا شخصياً، لا أحمل شـــيئاً ضـــدك. حينما عدت من السفر قبل بضعة أيام، كنت قد قـــررت أن كـــل مـــا أردت منك هو جواب واضح عن سؤال بسيط. بعد ذلك كان بإمكانك العودة إلى محظيتك رجلاً حرّاً .

يخطـــر لى فجأة أن الإهانة قد لا تكون بلا مبرر، ذلك أن هذيـــن الرجـــلين وربمـــا لأسباب مختلفة سيرحبان إن فقدت الســـيطرة عـــلى أعصـــابى. مشتعلا بالغضب، متوترا فى كل عضلة، أحافظ على صمتى.

عـــلى أى حال، يبدو أن لديك طموحاً جديدا ، يمضى فى حديـــثه، يـــبدو أنـــك تريد أن تخلق لنفسك صيتاً كأنك الرجل

العــادل الوحيــد، الــرجل المستعد للتضحية بحريته من أجل مبادئه.

ولكن دعنى أسألك: هل تعتقد أن تلك هى الكيفية التى ينظر بها إليك أبناء بلدتك بعد المشهد السخيف الذى خلقته فى الساحة فى اليوم السابق؟ صدقنى انت بالنسبة للناس فى هذه البلدة لست الــرجل الأوحد، إنك ببساطة مهرج، رجل مجنون. إنك قذر، رائحتــك نتنة، بإمكانهم أن يشموا رائحتك من مسافة ميل. إنك تبدو مثل متسول عجوز، نفاية حثالة، إنهم لا يريدونك أن تعود بأى صفة. لا مستقبل لك هنا.

أنت تريد أن يرد اسمك فى التاريخ كشهيد. أشك فى ذلك. ولكــن من ذا الذى سيضعك فى كتب التاريخ؟ مشاكل الحدود هذه لا أهمية لها. إنها ستنقضى فى مدة زمنية قصيرة ثم تعود الحــدود إلى الــنوم عشــرين سنة أخرى. الناس غير مهتمين بتاريخ مكان منعزل .

أقول، لم تكن هناك اضطرابات حدود قبل مجيئك*.

يقــول، هراء، أنت ببساطة جاهل بالحقائق. إنك تعيش فى عــالم ينتمى إلى الماضى. أنت تعتقد بأننا نتعامل مع جماعات بدويــة صغيرة ومسالمة. فى الحقيقة أننا نتعامل مع عدو جيد التــنظيم. لــو كنت سافرت مع قوة الحملة، لكنت اطلعت على ذلك بنفسك .

أولـــئك الســـجناء المثيرون للشفقة والذين قمت بجلبهم إلى هـــنا- هل لأنهم العدو الذى يتوجب على الخوف منه؟ أهذا ما تقو ـــله؟ إنك العدو، أيها العميد! لم أعد قادرا على كبت ما فى نفسى بعد الآن.

أدق عـــلى المنضـــدة بقبضتى. أنت العدو، أنت من أضرم الحرب، وأنت الذى أعطيتهم كل الشهداء الذين يحتاجونهم - لم يـــبدأ الأمر الآن ولكن قبل عام مضى عندما اقترفت هنا أول أعمالك البربرية القذرة - سيؤيدنى التاريخ فى ذلك .

هراء - لن يكون هناك أى تاريخ، القضية تافهة جداً . يبدو غير متأثر، ولكننى واثق من أننى قد جعلته يهتز.

أنك د عر تمارس التعذيب. إنك تستحق الشنق .

يدمدم، هكذا يتحدث القاضى، الرجل العادل الوحى .

يحدق أحدنا فى عينى الآخر.

يقول، مرتباً الأوراق أمامه: الآن، أود الحصول على بيان بكل ما جرى بينك وبين البرابرة فى زيارتك الأخيرة لهم غير المصرح بها .

أنا أرفض .

حســـن جدا . مقابلتنا قد انتهت . يستدير نحو مساعده، إنك المسؤول عنه. يقف، يسير خارجاً.

أواجه ضابط الصف.

* * *

الجـــرح الـــذى على خدى، لم يغسل أبداً ولم يضمد، وهو مـــتورم وملـــتهب. تشكلت عليه قشرة مثل يرقة سمينة. عينى اليسرى مجرد شق طويل، أنفى كتلة مختلجة لا شكل له. يتحتم على أن أتنفس عبر فمى.

أســتلقى أنـــا فى مكان تفوح منه رائحة قىء قوية ومزمنة، مشغول البال بفكرة الماء. لم أجد شيئاً أشربه منذ يومين.

لا يوجد ما يشرف فى معاناتى. القليل مما أسميه معاناة هو الألم المطرد. ما أرغمت على تحمله خاضع لأهم الاحتياجات الأوليـــة لجسدى: أن أشرب، أن أفرج عنه، أن أجد الوضعية الأفضـــل مـــن أجل تفادى الألم. عندما أعادنى ضابط الصف ماندل ومساعده إلى هنا للمرة الأولى، وأضاء المصباح وأغلق الـــباب، أذهل لمقدار الألم الذى سيكون فى قدرة رجل عجوز سمين أن يتحمله باسم أفكاره المنحرفة حول الكيفية التى يتحتم على إمبراطورية أن تدير نفسها. ولكن القائمين على تعذيبى لم يكن يعنيهم درجات الألم. كل ما كان يهمهم هو أن يبرهنوا لى ماذا يعنى العيش فى جسد، مثل جثة، جسد لا يمكنه أن يضمر أفكـــاراً عـــن العدالـــة إلا فى دوام كونه سالما ومعافى، وهو سرعان ما سينساها عندما يقبض بقوة على رأسه وتدفع أنبوبة إلى بـــلعومه ويصب فيها مقدار ثمن غالون من ماء مملح حتى يبدأ بالسعال ويحاول التقيؤ، ويضرب بعصا ويفرغ نفسه. إنهم

لـــم يجيئوا لإرغامى على قول حقيفة ما قلته للبرابرة وما قاله الـــبرابرة لى. ولهذا لم تتوفر لى فرصة لإلقاء الكلمات الرنانة الجاهـــزة فى وجوههم. جاءوا إلى زنزانتى ليظهروا لى معنى الإنسانية، وفى خلال ساعة من الزمن أظهروا لى الكثير منه.

* * *

وليســت هى مسألة من الذى يتحمل أطول. اعتدت أن أفكر فى حالــتى، إنهم يجلسون فى غرفة أخرى يبحثون فى أمرى. وهــم يقولـــون بعضهم لبعض ، كم سيدوم الأمر قبل أن يعفر وجهه بالتراب؟ سنعود إليه فى غضون ساعة أخرى ونرى . -

ولكن الأمر ليس كذلك. إنهم لا يملكون نظاماً مدروسا للألم والحـــرمان الذى يخضعوننى له. أعيش يومين بلا طعام وماء. فى اليـــوم الثالث أطعمت. أنا آسف . يقول الرجل الذى يجلب طعامى، لقد نسينا . الأمر ليس حقداً ذلك الذى جعلهم ينسون. القـــائمون على تعذيبى لهم حياتهم الخاصة التى يعيشونها. أنا لســت مركز كون لهم. من المحتمل أن مساعد ماندل، يمضى أيامه فى عد الأكياس فى مخزن التموين أو يكشف على أعمال الحفـــر الهندسية، متذمراً فى نفسه من حرارة الجو. أما مانديل نفســه، فأنـــا واثق من أنه يمضى وقتاً أكثر فى تلميع شريطه المعـــدنى وأزراره من ذلك الوقت الذى ينفقه عليه وهو عندما يحـــلو له المزاج يأتى ويلقننى درساً فى الإنسانية. كم من زمن

أحـــتاج كى أصـــمد أمام خبطاتهم العشواء؟ وماذا سيحدث إن استسلمت، بكيت، تذللت، بينما يستمر فى الوقت نفسه هجومهم على؟

ينادوننى إلى الساحة. أقف أمامهم خافياً عريى، مدارياً يدى المـــتورمة. دب عجـــوز دُجّـــن بفعل هجمات متواصلة. يقول مانديل: اركض . أركض حول الساحة تحت الشمس الملتهبة. عندما أرتخى يضربنى بخيزرانته على عجزى فأسرع راكضاً. يتخــلى الجـــنود عن قيلولتهم ويرقبون من مواضعهم الضليلة، الخادمـــات المكـــلفات بغسل الأوانى يستندن إلى باب المطبخ، أطفال يحدقون من خلال قضبان البوابة. لا أقدر! ألهث بشدة. قلبى! أتوقف، أنكس رأسى، أنشب أظافرى فى صدرى. ينتظر كل واحد بصبر حتى أسترد أنفاسى. ثم تنخسنى العصا وأستمر فى السير متثاقلاً، لا تزيد خطوتى عن سير رجل.

أو بطريقة أخرى أقوم بأعمال معينة لهم. يقومون بمد حبل بعـــلو ركبة وأقفز أنا من فوقه إلى الأمام وإلى الخلف. ينادون على الحفيد الصغير للطباخة ليحضر ويعطونه طرفاً من الحبل ليمسك به. احتفظ به ثابتاً . يقولون، لا نريده أن يعثر. يمسك الولـــد بطـــرف من الحبل بكلتا يديه، مركزا على هذا الواجب المهم، منتظراً إياى أن أقفز. أتوقف فجأة. رأس الخيزرانة تجد طـــريقها إلى مـــا بيـــن ردفى وتنخس. يدمدم مانديل، اقفز .

اركــض، أطفر قفزة صغيرة، أتخبط على الحبل، وأقف هناك. أشم رائحة غائط. غير مسموح لي بالاغتسال. يلاحقني الذباب فى كــل مكــان، محوماً حول الورم المثير للشهية فوق خدى، تحــط إن وقفــت ثابتاً دقيقة واحدة. الحركة المحلقة ليدى أمام وجهى لمطاردتهم قد غدت آلية مثل ضربة ذيل البقرة الخاطفة.

يقول مانديل للولد: قل له إن عليه أن يعفز أفضل فى المرة القادمـــة . يبتسم الولد ويتطلع بعيداً. أجلس فى التراب منتظراً العمـــل التالى. يقول للولد، هل تعرف كيف تطفر الحبل؟ أعط الحبل للرجل واطلب منه أن يعلمك كيف تطفر . واطفر.

المـــرة الأولى كلفتنى عذابات من خزى عندما اضطررت إلى الخروج من خلوتى والوقوف عاريا أمام هؤلاء التافهين أو أهـــز جسدى هنا وهناك من أجل إمتاعهم. قد تجاوزت الخزى الآن. يـــتوجه تفكيـــرى تمامـــاً لخطر اللحظة التى تتبلل فيها ركبـــتاى أو أحس أن قلبى يتشبث بى كسرطان، وعندئذ يكون عـــلى أن أقـــف ساكناً، وفى كل مرة أكتشف بدهشة أننى بعد اســـتراحة قصـــيرة، بعـــد تطـــبيق عملى للقليل من الألم، أنه بالإمكـــان أن أدفـــع إلى الـــتحرك، القفز، الطفر، أو الحبو أو الـــركض بصورة أسرع. هل هناك مرحلة ما سأستلقى عندها أرضاً وأقول، اقتلونى – أنا أفضل الموت على الاستمرار فى الحيـــاة؟ أعـــتقد أحيانا أننى أقترب من تلك المرحلة، ولكننى أكون على خطأ باستمرار.

ليس هناك من عزاء مهيب فى أى من هذه. وعندما ُستيقظ متأوهاً فى الليل ذلك لأننى أحيا فى أحلامى ثانية أحقر حالات الخـــزى. ليست هناك من طريقة للموت مباحة لى، كما يبدو، غير ُن أموت مثل كلب فى زاوية ما.

* * *

بعدئـــذ وفى أحـــد الأيـــام أطلقوا الباب مفتوحاً، وأخطو أنا خارجـــاً لا لـــكى أواجه رجلين بل فرقة واقفة فى حالة انتباه. يقول مانديل، الآن ، يناولنى ثوباً قطنياً نسائياً، البس هذا .

لماذا؟

حسن جداً، إن أردت الذهاب عارياً، اذهب عارياً .

أمرر الثوب من فرق رأسى. انه يصل إلى منتصف فخذى. ألمح نظرات خاطفة من خادمتين شابتين وهما تسرعان السير عـــائدتين إلى المطبخ وتذوبا ن قهقهة. رسغاى مدفوعان نحو ظهـــرى ومقيـــدان، يهمس مانديل فى أذنى لقد آن الأوان أيها الحـــاكم، تصرف كأفضل ما يكون كرجل . أستطيع شم رائحة الكحول فى أنفاسه، بكل تأكيد.

يسيرون بى إلى خارج الساحة. وهناك تحت أشجار التوت حيث الأرض أرجوانية من أثر عصير ثمار التوت المتساقطة، يقـــبع مجموعـــة مـــن الأشخاص فى الانتظار. بعض الأطفال

يتســلقون فــروع الأشــجار. عندما أقترب يخيم الصمت على الجميع.

يرخى جندى طرف حبل جديد من القنب أبيض اللون، يقذفه إلى أعــلى، يلتقطه واحد من الأطفال من على الشجرة، يعقده على غصن، ثم يسقطه تحت.

أعــرف أن الأمر مجرد خدعة، وسيلة جديدة لتمضية وقت الأصــيل لــرجال مــلوا رسائل التعذيب القديمة، مع ذلك فإن أحشائى امتلأت بولاً. أهمس، أين العميد؟ لا أحد يبالى.

يقــول مانديل، هل تريد أن تقول شيئاً؟ قل ما تتمناه؟ نحن نمنحك هذه الفرصة .

أنظــر فى عيــنيه الصــافيتين الزرقاوين وكأنهما عدستان بــلورتان شفافتان قد انزلقتا فوق كرتيهما. يتطلع فىّ بالمقابل، ليست لدىّ فكرة عما يدبره. مفكراً فيه رددت مع نفسى كلمتى عــذاب... معــذب، ولكنهما كلمتان غريبتان، وكلما رددتهما أكثر، تزدادان غرابة حتى تستفران مثل حجرتين على لسانى. قــد يكون هذا الرجل والرجل الآخر الذى يجلبه معه لمساعدته فى عملــه وعميدهما، من المعذبين، وربما أن هذا هو عنوان وظيفــتهم المكتوبة على ثلاث بطاقات فى مكتب دفع النقود فى مكان ما فى العاصمة، مع أن الأمر الأكثر احتمالاً أن البطاقات تصــفهم بضباط أمن. مع ذلك، عندما أتطلع إليه أرى ببساطة

عيـــنين زرقاوين صافيتين، الملامح الصارمة الجذابة من غير ريب، الأسنان أطول بعض الشيء من المعتاد فى حين تتراجع اللـــثة. إنه يتعامل مع نفسى. يطوى فى كل يوم بشرفي جانباً ويعــرض روحى للنور، من المحتمل أنه قد شاهد عدداً كبيراً مـــن النفوس عبر مسيرة حياته العملية، ولكن يبدو أن الاهتمام بالـــنفوس لم تترك أثراً اكثر مما يتركه الاهتمام بالقلوب على الجراح.

أقول، إننى أحاول جاهداً أن أفهم مشاعرك تجاهى . لا أقدر أن أمنع نفسى من التمتمة، صوتى غير ثابت، أحس بالخوف، والعــرق يتســاقط منى. إنها أكثر بدرجات من كونها فرصة كـــبيرة أن أخاطب هؤلاء الناس الذين ليس لدىّ ما أقوله لهم، هـــل لى أن أطلب كلمات قليلة منك وسأضعها موضع التقدير. مـــن أجـــل فهـــم الدافع الذى جعلك تكرس نفسك لهذا العمل. وأستطيع أن أسمع ما تحسه تجاهى، أنا من آذيتنى كثيراً ويبدو الآن أنك عازم على قتلى.

أتفـــرس باندهـــال فى هذا القول المنمق بينما ينسل خارجاً منى. هل أنا مجنون إلى حد كاف لمحاولتى استفزازه؟

يقول، هل ترى هذه اليد؟ يمد يده إلى مسافة انج واحد عن وجهى، عندما كنت أصغر سنا ،- يثنى الأصابع - اعتدت أن أكـــون قادراً على دس إصبعى هذا - يمد إصبع السبابة- عبر

غـــلاف يقطيـــنة . يضـــع طرف إصبعه على جبهتى ويضغط عليها، أتراجع خطوة إلى الخلف.

بـــل إنهـــم يحملون غطاء رأس جاهز من أجلى. كيس ملح يدخـــلون رأســـى به ويشدونه حول رقبتى بحبل. عبر خيوط الكيـــس المشـــبكة، أراقـــبهم وهم يجلبون السلم ويسندونه إلى الغصن. أقاد أنا إليه، توضع قدمى على الدرجة السفلى وتستقر الأنشوطة تحت أذنى. يقول مانديل، الآن اصعد السلم .

أديـــر رأســـى وأرى شكلين قاتمين يمسكان بطرف الحبل. أقـــول، لا أقـــدر عـــلى الصـــعود ويداى موثقتان . يدق قلبى كمطرقة. يقول، اصعد ، مثبتاً إياى بذراعه. يشتد الحبل. يأمر، اقبض عليه بشدة .

أصـــعد، يصعد خلفى، يوجهنى. أعد عشر درجات. أوراق الشجر تحتك بوجهى. أتوقف. يقبض على يدى بقوة أشد، يقول هـــل تظننا نلعب؟ يتحدث بغضب عبر أسنان مطبقة بشكل لا أفهمه. هل تعتقد أننى لا أعنى ما أقول؟

العرق يلسع عينىّ فى داخل الكيس. أقول، لا ، أنا لا أعتقد أنـــك تلعب . أعرف ان الحبل مادام مشدوداً فانهم يلعبون. إن ارتخى الحبل وانزلقت، سأموت.

ماذا تريد أن تقول لى الآن؟

أريـــد أن أقول إنه لا شيء قد جرى بيني وبين البرابرة له علاقـــة بمســـائل عسكرية: كانت مسألة خاصة. ذهبت لإعادة البنت إلى أهلها. لا لسبب آخر .

أهذا كل ما تريد أن تقوله لي؟

أريد أن أقول إنه ما من فرد يستحق الموت . وأنا في ثوبي النســـائي وكيسي الغريبين وغثيان الجبن في فمي، أقول: أريد أن أعيش. مثل أي فرد آخر يريد أن يعيش. أن أعيش وأعيش وأعيش. لا يهم كيف .

ذلـــك ليس بكاف . يطلق ذراعي حراً. أترنح على درجتي العاشـــرة، يحافظ الحبل على توازني. يقول، هل ترى؟ يعود نازلاً السلم، تاركاً إياي وحدي.

إنها ليست حبات عرق بل دموع.

هـــناك حفيف في أوراق الشجر القريبة مني. صوت طفل: هل بإمكانك الرؤية، يا عم؟

لا".

أحدهم يصيح من تحت، ها، قرود، انزلوا! .

عـــبر الحـــبل المشـــدود بإحكام أحس بالاهتزاز الناتج عن حركتهم بين الأغصان.

أقـــف، لهذا السبب، مدة طويلة، محافظاً بعناية على توازنى فوق السلم. متحسساً رفاهية الخشب فى انحناءة أخمص قدمى، محاولاً أن لا أتمايل، محافظاً على ثبات توتر الحبل بأقصى ما يمكن.

كم من الوقت يحتاجه حشد من العاطلين كى يشبعوا رغباتهم بمراقـــبة رجل واقف على سلم! سوف أقف أنا هنا حتى يسقط كل اللحم عن عظامى، عبر عواصف ووابل من برد وفيضان، كى أحيا.

ولكن الحبل يشتد الآن. بل إننى أسمعه يقشط لحاء الشجرة وهو يمر عليه، حتى يتطلب الأمر منى أن أمط جسدى، متجنباً أن يشنقنى.

هـــذه ليســـت مباراة فى الصبر، إذن: ان كانت عامة الناس غير مقتنعة تغير القوانين. ولكن ما فائدة إلقاء اللوم على عامة الناس؟ كبش الفداء سمى، واحتفال أعلن، القوانين غلقت: من ذا الـــذى يحتشـــد للتفرج على الحفلة؟ على ماذا أعترض أنا فى مشـــاهد التحقير والمعاناة والموت التى يقوم بها نظامنا الجديد غير افتقارها للياقة؟ ما الذى سيتذكره الناس عن إدارتى فضلاً عـــن نقـــل المجازر من ساحة السوق إلى ضواحى البلدة قبل عشـــرين عامـــا لضمان مستلزمات العيش اللائق؟ أحاول أن أستنجد بشىء، بكلمة الخوف المصمت، بصرخة، ولكن الحبل

مشـــدود الآن بقوة شديدة إلى الحد الذى أحس فيه بأننى أختنق، لا أقـــدر عـــلى الكـــلام. الـــدم يدق فى أذنى، أشعر أننى أفقد السـيطرة عـــلى أطـــراف أصابع قدمى. أتأرجح بسهولة فى الهـــواء، أتخـــبط بالسلم، أضرب بقدمى. صوت طبل فى أذنى يتباطأ ويعلو حتى يصبح هو الصوت الوحيد الذى أسمعه.

إنـــنى واقـــف أمـــام الرجل العجوز، أغمض عينى نصف إغماضة اتقاء الريح، منتظراً إياه أن يتحدث. البندقية القديمة ما تزال مستقرة بين أذنى الحصان، ولكنها غير موجهة نحوى. أنا واع لمدى اتساع السماء من حولى وكذلك الصحراء.

أرقب شفتيه. سيتحدث الآن فى أى لحظة: يجب أن أصغى بانتباه كى لا يفوتنى أى جزء من الكلام، ولكى بالتالى، أردده مـــع نفســـى، متمعناً فيه، متمكناً من اكتشاف جواب لسؤال قد طار فى هذه اللحظة مثل عصفور من ذاكرتى.

بمقدورى أن أرى كل شعرة فى عرف الحصان، كل تجعيدة فى وجه الرجل، كل صخرة وكل أخدود فى سفح التل.

الفـــتاة بضـــفيرتيها الســـوداوين المعلقتين على كتفها على الطريقة البربرية، تجثم على حصانها خلفه، رأسها منحن، إنها أيضاً تنتظر أن يتكلم.

أتـــنهد. كـــم هو مؤسف ، أفكر. أصبح الأمر متأخرا جداً الآن .

إننى أتأرجح حراً طليقاً. يرفع النسيم ثوبى ويتلاعب بجسدى العارى. أنا مسترخ، عائم، فى ثياب امرأة.

كيف يمكن أن تكون لمسة قدمى على الأرض، على الرغم مــن كونهما مخدرتينِ عن كل الأحاسيس. أبسط نفسى باعتناء بكــامل طولى، خفيفاً مثل ورقة شجرة. مهما كان ذلك الشىء الــذى قيد رأسى بقوة، فإن قبضته تتراخى. يتلاشى من داخلى حاجز ذو قضبان حديدية ثقيل.

أتنفس. كل شىء على ما يرام.

ثــم يــنزع الغطاء. الشمس تبهرِ عينى، أطرح على قدمى، يدور كل شىء أمامى. أمضى فارغاً من أى معنى.

كــلمة طيران تهمس نفسها فى مكان ما عند حافة وعين. نعم إن الأمر صحيح. لقد كنت أطير.

أنا أتطلع فى عينى مانديل الزرقاوين، تتحرك شفتاه ولكننى لا أسمع كلمة واحدة. أهز رأسى، وأجد أننى ما إن برزت إلى الوجود وانطلقت حتى وجدت أننى غير قادر على التوقف.

يقول، كنت أقول، سنريك الآن شكلاً آخر للطيران'.

يقــول أحدهم، إنه غير قادر على سماعك . يقول مانديل، إنــه يستطيع أن يسمع . يسحب الأنشوطة عن رقبتى ويعقدها حول الحبل الذى يربط رسغى. اقلعه من هنا .

إن اســـتطعت أن أحتفظ بذراعى متصلبتين، إن كنت بهلوانا بدجـــة مناسبة تسمح لى أن أدير قدماً إلى أعلى وأعقفها حول الحبل، فسأكون قادراً على التعلق رأساً على عقب من أجل أن لا أشـــعر بـــالأذى: كـــانت تلك فكرتى الأخيرة قبل أن يبدأوا بـــرفعى. ولكننى واهن القوى مثل طفل، ترتفع ذراعاى بغير عـــلمى، وعـــندما تترك قدماى الأرض أحس بتمزق شديد فى كـــتفى وكأنمـــا صفائح كاملة من عضلات تتخلع. يصدر من حنجرتى أول حوار حزين جاف، كانهمار الحصى. ينزل ولدان صغيران من الشجرة، ويدًا بيد، دون أن ينظرا خلفا، يهرولان بعيـــداً. أجأر مرة أخرى وأخرى، ليس بمقدروى أن أفعل شيئاً كى أوقفـــه، فالصـــوت صادر عن جسد يعرف نفسه متضرراً فـــوق احـــتمال ترميم ويزأر رعبه. لا أستطيع أو أوقف نفسى حـــتى لو سمعنى كافة أطفال البلدة. دعونا نتضرع فقط أن لا يقوموا بتقليد ألعاب من هم أكبر منهم سنة، وإلا فسوف تحدث فى الغـــد كارثة من جثث صغيرة متدلية من الأشجار. أحدهم يقـــوم بدفعى وأبدأ فى الطفر خلفاً وأماماً فى قوس يرتفع قدماً عن الأرض مثل فراشة كبيرة هرمة وجناحاها معقوصان معاً، تجـــأر وتصـــرخ. أحدهم يبدى ملاحظة، إنه ينادى أصدقاءه البرابرة، تلك هى لغة البرابرة التى تسمعها'. ضحكة تعلو.

* * *

٥

يبرز فى الليل. وقبل أن تهبط الظلمة، يتوجب إحضار آخر معـــزة إلى الداخل، تغلق البوابات، حارس يوقف عند كل فتحة ليــنادى بالوقت. طوال الليل. كما يقال، يجوس البرابرة حول المكـــان وقد صمموا على القتل أو السلب. أطفال فى أحلامهم يـــرون مصـــاريع النوافذ تنشق والوجه البربرى يطل بنظرة خبيثة. البرابرة هنا! يصرخ الأطفال ولا يمكن إعادة الطمأنينة إليهـــم. ملابس تختفى من على حِبال الغسيل، الطعام من حيثٍ يحفـــظ، مهـــا كـــان القفل متيناً. البرابرة قد حفروا نفقاً تحت الجدران، يقول الناس، انهم يجيئون ويروحون حسبما يشاءون، يـــأخذون ما يرغبون فيه، لا أحد آمن بعد اليوم. الفلاحونِ ما يـــزالون يحرثون الأرض، ولكنهم لا يذهبون منفردين أبداً بل فى جماعات. يعملون من دون همّة: البرابرة ينتظرون فقط كى ينضـــج المحصـــول، يقولون، قبل أن يُغرقوا المزارع بالمياه ثانية.

لمـــاذا لا يوقف الجيش البرابرةٍ؟ تتذمر الناس. الحياة على الحـــدود أصبحت صعبة جداً. يتحدثون عن العودة إلى الوطن القديـــم ولكـــنهم يتذكرون بعدئذ أن الطرق لم تعد سليمة بسبب الـــبرابرة. الشاى والسكر لم يعد من الممكن شراؤهما من فوق

طاولــة العــرض مباشرة، ذلك لأن أصحاب المتاجر أصبحوا يخزنون بضائعهم. أولئك الذى يأكلون جيداً يأكلون خلف أبواب مغلقة، خوفاً من إثارة حسد جيرانهم.

قــبل ثلاثة أسابيع اغتصبت طفلة. لم يفتقدها أصدقاؤها فى أثــناء لعــبهم فى مجارى الرى، إلا بعد أن عادت إليهم وهى تنزف غير قادرة على الكلام. استلقت عدة أيام فى منزل ذويها محدقــة فى الســقف. لم يقنعها أى شىء لحثها على أن تروى قصــتها. اعــتادت عندما يطفأ المصباح أن تبدأ بالبكاء. يدعى أصدقاؤها أن البرابرة فعلوا ذلك. لقد رأوه يركض مبتعداً نحو دغل القصب. لقد تعرفوا عليه بربرياً بسبب قبحه. الآن أصبح ممــنوعاً عــلى الأطفال اللعب خارج البوابات، والمزارعون يحملون هراوات وحراباً فى أثناء ذهابهم إلى الحقول.

كــلما تصــاعدت المشاعر ضد البرابرة، انزوى أكثر فى زاويتى، آملاً ألا أذكر.

لقد مضى زمن طويل منذ أن غادرت القوة العسكرية للحملة الــثانية بشــجاعة فائقة مع أعلامها وأبواقها ودروعها اللامعة وخيولها المتوثبة لدفع البرابرة عن الوادى وتلقينهم درساً سوف لــن ينســاه أطفالهم وأحفادهم مطلقاً. ومنذ ذلك الحين لم ترد رسالة ولم يأت رسول، ولم يتم أى اتصال. بهجة أزمنة، حينما كــان مــن المعــتاد أن تقام استعراضات عسكرية يومية فى

الســاحة، عروض للفروسية، معارض أسلحة، قد مضى زمن بعيد على اختفائها. بدلاً منها يمتلئ الجو بإشاعات مثيرة للقلق. يقــول بعضــهم إن ألــف ميل من الحدود بأكمله قد انفجر فى نزاع، وإن برابرة الشمال قد وحدت قواتها مع برابرة الجنوب وإن جيــش الإمــبراطورية لــم يبسط نفوذه إلا على مساحات ضــئيلة، وإنه فى يوم من هذه الأيام سيرغم على التخلى عن الدفــاع ضــد نقــاط الحدود البعيدة مثل هذه، من أجل تركيز مواردهــا لحمايــة قلب الوطن. يقول آخرون إننا لا نتلقى أى أخبار عن الحرب لا لشىء إلا لأن الجنود قد توغلوا عميقاً فى مقاطعــة العدو وأنهم منهمكون جداً فى توجيه ضربات ثقيلة، على أن يبعثوا رسولا. وسريعاً، يقولون، فى الوقت الأقل توقعاً بالنســبة لنا، سيعود رجالنا سيراً إلينا مرهقين ولكن منتصرون وأننا سوف نحظى بالسلام فى عصرنا.

مــن ضمن الحماية الصغيرة التى تركت فى الخلف، هناك أعــداد من المخمورين أكثر مما عرفت قط فى السابق، وأكثر عجــرفة نحــو ســكان البلدة. حوادث عديدة وقعت ذهب فيها الجنود إلى المخازن، حاملين كل ما يريدون وغادروا دون أى يدفعوا الثمن. ما فائدة وضع أجهزة الإنذار بالخطر عندما يكون المجــرمون والحــرس المــدنى هم الأشخاص أنفسهم؟ يتظلم أصــحاب المخــازن لمــانديل، يتولى المسؤولية فى ظل نظام الطــوارئ فى الوقــت الذى ذهب فيه جول مع الجيش. يعطى

مانديل الوعود ولكنه لا يفعل شيئاً.ولماذا يفعل؟ إن كل ما يهمه أن عليه أن يبقى محبوباً من قبل رجاله. برغم استعراض لجنة الأمـــن الأهـــلية فوق الاستحكامات والنظرة الشاملة التى تلقى أســـبوعياً على طول شاطئ البحيرة (للتربص بالبرابرة، على الرغم من عدم القبض قط على واحد منهم)، النظام مهمل.

فى الوقـــت نفســـه، أنـــا المهرج العجوز الذى فقد آخر أثر للســـلطة فى اليوم الذى أمضاه معلقاً من شجرة فى ثياب امرأة يصـــيح فى طلب النجدة، الكائن الفاحش البذىء الذى بقى يلعق طعامـــه أسبوعياً من على رصيف الشوارع مثل كلب لأنه فقد اســـتخدام يديـــه، أنا لم أعد سجيناً. أنا فى زاوية ما من ساحة الثكـــنات، أزحـــف هنا وهناك بثوبى الفضفاض القذر وعندما ترتفع قبضة نحوى أنكمش مرتعداً. أحيا مثل بهيمة عند الباب الخلفى يحس بجوع شديد، ربما أبقى على قيد الحياة كدليل على الحيوان الكامن فى داخل كل محب للبرابرة. أعرف أننى غير آمن. اقدر أن أتحسس أحياناً ثقل نظرات الحنق تستقر على، لا أرفع بصرى، أعرف أنه بالنسبة لبعضهم فإن الإغراء لابد أن يكون قوياً لتنظيف الساحة بإطلاق رصاصة عبر جمجمتى من نافذة فى طابق علوى.

لقـــد حـــدث تدفـــق مـــن اللاجئين إلى البلدة، صيادون من المســـتوطنات الصـــغيرة المتـــناثرة على طول النهر وشاطئ

البحيرة الشمالي، يتحدثون بلغة لا يفهمها أحد، حاملين حاجياتهم المـــنزلية عـــلى ظهورهم فضلاً عن كلابهم الهزيلة وأطفالهم المترنحون يدبون في تثاقل خلفهم. عندما جاءوا للمرة الأولى، احتشـــد الناس حولهم، هل كان البرابرة هم الذين قاموا بطردكم إلى هنا؟ سألوا بوجوه ضارية، يشدون أقواساً وهمية.

لـــم يســـأل أحـــد ما عن الجندية الإمبريالية أو عن حرائق الأدغال التي يضرمونها.

كان هناك في بادئ الأمر تعاطف مع هؤلاء البدائيين، لناس جلبت لهم الطعام والملابس القديمة، حتى بدأوا ينصبون أسقف القـــش الـــتي يلتجـــئون تحتها تجاه جدرانهم في جانب الساحة بالقرب من أشجار الجوز، وامتلك أطفالهم الجرأة الكافية للتسلل إلى مطـــابخ والســـرقة منها، وفي ليلة ما قام قطيع من كلابهم بـــالدخول إلى زريـــبة أغنام ومزقوا رقاب دزينة من النعاج. تحولت عندئذ المشاعر ضدهم. اتخذ الجنود موقفاً، أطلقوا النار عـــلى كلابهم على مرأى منهم وأيضاً في صباح يوم من الأيام وعندما كان الرجال ما يزالون عند البحيرة، مزقوا كامل صف ملاجئهم. اختبأت جماعة الصيادين في أدغال القصب عدة أيام. ثم واحداً بعد واحد بدأت أسقف القش العائدة إليهم تظهر مجدداً، في خـــارج البـــلدة هذه المرة تحت الجدار الشمالي. لقد سمح لأكواخهـــم أن تقـــام ولكـــن الحراس عند البوابات تلقوا أوامر

لمنعهم من الدخول. الآن وبعد أن أصبح القانون مرتخياً، أصبح بالإمكـــان رؤيتهم في الصباح وهم ينادون على بضاعتهم من السمك المنظم في خيوط متنقلين من باب إلى باب كل صباح. لأنهـــم لا يمتلكون خبرة بالنقود، بدأوا يتعرضون للخداع بشكل فظيـــع، وهـــم عـــلى استعداد للتخلي عن كل شيء مقابل ملء كستبان من شراب الرّوم.

إنهـــم أناس نحيلون ذوو عظام بارزة، وصدور أشبه بصدر الحمام. نساؤهم يظهرن في حالة حمل مستمرة، أطفالهم معوقو النمو، في قلة من فتياتهم آثار جمال عيون شفافة، أما في البقية فـــلا أرى غيـــر الجهل، المكر، والقذارة. وبعد ذلك، ما الذي يرونه هم في، إن وقعت على أعينهم يوما ما؟ بهيمة تتطلع من خـــلف بوابـــة إلى الخارج. الجانب السفلي القذر لهذه الواحات الجميلة حيث وجدوا أماناً متزعزعاً.

في يـــوم ما، يسقط ظل على جسمي حيث أغفو في الساحة، قدم تخزني، أرفع رأسي وأتطلع في عيني مانديل الزرقاوين.

يقول، هل نقوم بإطعامك بشكل جيد. هل بدأ وزنك يزداد من جديد؟'

أومئ برأسي، جالساً عند قدميه.

لأننا لا نقدر على إطعامك إلى الأبد .

يمتد بيننا صمت طويل يتأمل فيه أحدنا الآخر.

متى ستبدأ العمل من أجل كسب قوت يومك؟

إنــنى ســجين فى انتظار محاكمة. لا يعمل السجناء الذين ينــتظرون محاكمــة من أجل كسب أرزاقهم. هذا هو القانون. تصرف نفقاتهم من خزينة الدولة .

ولكنك لست بسجين، أنت حر فى الذهاب إلى حيث تشاء .

ينــتظرنى كى ألــتقط طعــم العرض الذى قدمه لى بشكل أخرق. لا أقول شيئاً. يمضى فى كلامه.

كيــف تكون سجيناً فى حين أننا لا نمتلك محضراً لك؟ هل تعــتقد أننا لا نقوم بمسك سجلات؟ ليس لدينا سجل خاص بك. يجب أن تكون رجلاً حراً.

أنهــض وأتــبعه عبر الساحة نحو البوابة. يناوله الحارس المفتاح هل ترى؟ البوابة مفتوحة .

أتــردد قبل أن أجتازها. هناك شىء ما أريد معرفته. أتطلع إلى وجه مانديل، فى العينين الصافيتين، نافذتى نفسه، إلى الفم الــذى مــن خلاله تعبر روحه عن حقيقتها. أقول، هل تمنحنى دقيقــة من وقتك؟ نقف عند البوابة، والحارس واقف فى خلفية الســاحة مــتظاهراً بأنــه لا يســمع. أقول،"لم أعد شاباً على الإطــلاق، وأى مستقبل كان لى فى هذا المكان قد دمر. أومئ نحــو أطــراف الســاحة، نحو الغبار الذى يندفع أمام الرياح

الساخنة لأواخر الصيف حاملاً الآفات والأوبئة. فضلاً عن أنني قـد مـت ميتة واحدة قبل الآن، على تلك الشجرة، ولكنك فقط قررتَ أن تبقى على حياتى. ولهذا السبب، هناك شيء ما أريد معرفـته قـبل ذهابى. إن لم يكن الوقت قد أصبح جد متأخراً، والبرابرة عند البوابة. أحس بابتسامة ماكرة ضئيلة تمس شفتى بـرقة، لا أسـتطيع تفاديهـا. ألـقي نظـرة خاطفـة عـلى السماء.'أعذرنى أن كان السؤال وقحاً، ولكننى أريد أن أطرحه عليك: كيف تجد الأمر ممكناً بعد أن كنت... تعمل مع الناس؟ ذلـك سؤال سألت نفسى عنه على الدوام حول جلادين وأناس آخـرين مثلهم. أنتظر: أصغ إلى دقيقة أخرى، أننى صادق فى ما أقول، لقد تطلب الأمر منى للوصول إلى هذا الشيء الكثير، بمـا أننى كنت خائفاً منك، لم تكن هناك ضرورة لإخبارك به. أنا متأكد من أنك تعى المسألة. هل تجد سهولة فى تناول الطعام بعدئـذ؟ لقـد ظننت أن المرء سوف يكون فى حاجة إلى غسل يديه. ولكن أى غسل اعتيادى لن يكون كافياً، المرء يحتاج إلى تدخـل كهـنوتى، إلى شعائر تطهير، ألا تعتقد ذلك؟ شكل من أشكال تطهير الروح أيضاً – تلك هى الكيفية التى ظننتها. وإلا كيف يكون بالمستطاع العودة إلى حياة يومية – الجلوس لتناول الطعام، مثلاً، وتقاسم الخبز مع أفراد عائلته أو مع رفاقه؟

يـرد ولكـن بيـد متمهلة أشبه بمخلب، أنجح فى الإمساك بذراعـه. أقول، لا تخطئ فهمى، إننى لا ألومك أو أتهمك، لقد

تجاوزت ذلك منذ زمن بعيد. تذكر، أنني أيضاً قد كرست حياة لـــلقانون، أعرف معاملاته، أعرف أن عوامله هي في الغالب مـــبهمة. إنـــنى أحاول أن أفهم فحسب. أحاول أن أفهم النطاق الـــذى تحيا ضمنه. إننى أحاول كيف تتنفس أنت وتأكل وتعيش مـــن يوم إلى يوم. ولكننى لا أستطيع! ذلك ما يقلقنى! لو كنت هـــو، أقول هذا لنفسى، فستحس يداى بأنهما قذرتان جداً وأنهما ستسببان لى غصة

يســـحب نفسه منى طليقاً، ويضربنى بقسوة فى صدرى مما يجعلنى ألهث وأندفع إلى الخلف. يصيح، أنت يا ابن الزنا! أنت أيها المجنون الداعر! اخرج من هنا! اذهب ومت فى مكان ما!

ومـــتى ســـتقدم عـــلى تقديمى للمحاكمة؟ أصبح نحو ظهره المتراجع. لا يبالى مطلقاً.

لا يوجد أى مكان للاختفاء. ولماذا يجب أن أفعل؟ أكون من الفجـــر وحتى الغسق تحت مرمى الأنظار فى الساحة، متجولاً حول الإسطبلات أو جالساً تحت ظل الأشجار. وتدريجياً، ومع انتشار الكلام فى الجوار من أن القاضى الهرم قد امتص محنته واجـــتازها، تكـــف الناس عن الصمت أو إدارة الظهر عندما أصـــبح قريباً. أكتشف أننى لست بدون أصدقاء، على الأخص بيـــن النســـاء، الـــلواتى يبدين توقهن لسماع وجهة نظرى فى القصـــة. مـــتجولاً فى الشوارع، أمر بالزوجة الممتلئة الجسد

لأميــن الإمــدادات والــتموين فى الجيش، وهى تعلق ملابس الغسيل. نتبادل التحيات، تقول، كيف حالك، سيدى؟ سمعنا أنك قد اجتزت زمناً صعباً للغاية. تبرق عيناها مع حذر شديد. ألا تدخل لتناول قدحاً من الشاى؟ .

وهكذا نجلس معاً عند مائدة المطبخ، ونقوم بإرسال الأطفال ليلعبوا فى الخارج. وبينما أحتسى الشاى وآكل بمثابرة من إناء فيه نوع من البسكويت اللذيذ من دقيق الشوفان، تبدأ هى بأولى الخطــوات في لعــبة الطــرق الملتوية للسؤال والجواب؟ لقد اخــتفيت زمناً طويلاً، تساءلنا فى شك إن كنت ستعود يوماً... وفضــلاً عــن كل ذلك العناء الذى تعرضت له! كم قد تغيرت الأمــور! لم يكن شيء من هذه الفوضى عندما كنت مسؤولا. كل هؤلاء الغرباء من العاصمة، يفسدون الأمور! أتسلم دورى، أتنهد: نعم، إنهم لا يعرفون كيف تدير الأمور فى الأقاليم، أليس كذلك! هل يعرفون: كل هذا العناء من أجل فتاة... التهم قطعة أخــرى من البسكويت. أحمق فى الحب، يثير السخرية ولكنه ينال السماح فى النهاية. بالنسبة لى كان الأمر ببساطة بديهياً أن أعــود بهــا إلى عائلــتها، لكــن كيف يمكن للمرء أن يجعلهم يدركــون ذلك؟ أتحدث بنحو غير مترابط، تستمع إلى أنصاف الحقــائق هــذه، تومى برأسها، ترقبنى مثل صقر، نتظاهر أن الصــوت الــذى نسمعه هو ليس صوت الرجل الذى تدلى من شــجرة مســتنجداً طالــباً الــرحمة بصوت عال بدرجة توقظ

المــوتى. عـــلى أى حال، لنأمل أن كل ذلك قد انتهى. ما زلت أعانى من آلام – ألمس كتفى جسد المرء يشفى ببطء كلما تقدم فى السن...

وهكــذا أغــنى لفــوت يومى. وإن كنت ما أزال جائعاً فى المســاء، إن أنــتظر عند بوابة الثكنات من أجل الصفارة التى تدعو الكلاب كى أنسلل إلى الداخل بهدوء تام، فأنا أتمكن عادة أن أحصل بالتملق للخادمات على بقايا من طعام عشاء الجنود، صــحناً من الفاصوليا لباردة أو ما يكشط من القعر الدسم لقدر الحساء أو نصف رغيف من الخبز.

أو يكــون بمقــدورى فى الصــباحات السير الهوينى نحو الفندق، ومتكئاً على مصراع باب المطبخ، أستنشق كل الروائح الطيــبة، نــباتات عطرية وخميرة وبصل مفروم مقلى وسمن ضــأن مدخــن. مى الطــباخة تدهن مقلاة التحميص: أرقب أصــابعها الماهرة وهى تنغمس فى قدر شحم الخنزير ثم تطلى المقــلاة بــثلاث دوائر فى حركة سريعة. أفكر فى معجناتها، وفطيــرتها الشهيرة من لحم الخنزير المقدد والسبانخ والجبن، وأحس باللعاب ينبجس فى فمى.

تقــول، رحــل الكــثير من الناس . وهى تستدير نحو كرة العجيــن الكبيرة، لا أستطيع حتى البدء فى إخبارك. مجموعة كبيرة غادرت قبل بضعة أيام فقط. إحدى الفتيات اللواتى يفمن

هنا – تلك الصغيرة ذات الشعر السرح الطويل، ربما تتذكرها، كـــانت واحدة منهن، غادرت مع رفيقها. تقول ذلك لى بصوت مـــنخفض، وأحـــس بالامتنان لمراعاتها ذلك. وتضيف، الأمر يكـــون بطـــبيعة الحال معقولاً، إن كنت تنوى الرحيل، فعليك المغـــادرة الآن إنـــه طريق طويل، خطر أيضاً، والليالى بدأت تغـــدو أكثر برودة: تتحدث عن الجو، عن الصيف الذى مضى ودلائل اقتراب الشتاء، وكأننى حيث كنت فى زنزانتى التى لا تبعد غير ثلاثمائة خطوة من المكان الذى نحن فيه، كان قد ختم عـــلى مـــن الحر والبرد، الجفاف والرطوبة. بالنسبة لها، أكاد أدرك، أنـــنى اخـــتفيت ومـــن بعد ذلك ظهرت ثانية، وما بين المرحلتين، لم يكن جزءًا من العالم.

كـــنت مصغياً أو مىء وأحلم بينما كانت تتكلم. الآن أبدأ فى الكـــلام. أقـــول، تعـــرفين أنت، عندما كنت فى السجن – فى الثكـــنات، ليـــس فى السجن الجديد، حيث احتجزت، كنت جد جائعـــاً بحيـــث أننى لم أفكر يوما ما بامرأة، بالطعام فقط. فقط عشـــت من وقت تناول وجبة إلى أخرى. لم يكن هناك أبداً ما يشـــبعنى. كـــنت أزدرد طعامى مثل كلب وكنت أريد المزيد. وكـــان فضـــلاً عـــن ذلك، الكثير من الألم فى أوقات مختلفة: ذراعـــاى، يداى، وأيضاً هذا، – ألمس الأنف الذى غداً أغلظ، الندبة القبيحة تحت عينى والذى بدأت أشعر أن الناس، بافتعال، مفتتنين بها. لما حلمت بامرأة، حلمت بواحدة تأتى ليلاً وتنتزع

الألم بعيداً منى، حلم طفل. الشيء الذى لم أعرفه كان كيف أن لرغبة الشديدة تخزن نفسها فى تجاويف عظام المرء ثم تفيض إلى لخارج يوماً ما دون تحذير. ما ذكرتينه قبل دقيقة مضت، عـلى سبيل المثال - الفتاة التى أشرت إليها - كنت جد متعلقاً بهـا، أعتقد أنك تعرفين ذلك، على الرغم من أن اللياقة منحتك مـن القـول... عندما قلت إنها قد رحلت، أعترف، كان الأمر وكأننى تلقيت ضربة هنا، فى لصدر. ضربة.

تتحرك يداها بمهارة، تضغطان على دوائر نافرة عن صفحة العجيـن بحافـة الطـاس، ملتقطة ما يتعلق بالقعر، تلفها معاً، تتجنب عينى.

ذهبت إلى غرفتها فى الطابق العلوى فى الليلة الماضية، إلا أن لباب كان مقفلاً. ولكننى خلعت القفل. كان لديها العديد من الأصـدقاء، لـم أفكر أبداً بأننى كنت لوحيد... ولكن ما الذى كـنت أريده؟ مكان ما للنوم، بالتأكيد، ولكن المزيد أيضاً. لماذا الـتظاهر؟ كلـنا يعـرف أن ما يبحث عنه رجال مسنون هو استعادة شبابهم بين ذراعىّ امرأة شابة.

تضرب العجينة، تجبلها، تفردها: هى نفسها امرأة شابة لديها أطفالهـا، يعيشـون مع أم بارعة: أى عنصر للإعجاب أشكله بالنسـبة إليهـا حيـنما أمضـى متحدثاً بشكل مفكك عن الألم والوحدة؟ منذهلاً أستمع إلى الحديث المنبثق منى. دع كل شيء

يقال! حدثت نفسي عندما واجهت في المرة الأولى أولئك الذين قاموا بتعذيبي. لماذا تطبق شفتيك بغباء على بعضهما؟ أنت لا تملك أسراراً. دعهم يعرفوا أنهم يتعاملون مع لحم ودم! أعلن عن هول ما جرى لك، أصرخ عندما ينتابك الألم! إنهم يزدهرون مع الصمت العنيد: إنه يؤكد لهم أن كل نفس هي قفل يتحتم عليهم ثقبها بطول أناة. عرّ نفسك! افتح قلبك! وهكذا صحت وصرخت وقلت كل ما خطر ببالي. منطق ماكر! ذلك أنني الآن عندما أرخي لساني وأدعه يبحر حراً لا أسمع غير أنين رقيق لمعدم.' هل تدرين أين نمت ليلة البارحة؟ أسمع نفسي تقول، هل تعرفين ذلك الجناح الممتد من مخزن القمح؟...'

الطعام، أكثر من أي شيء آخر، هو ما أتوق إليه، تزداد حدته مع انقضاء كل أسبوع. أريد أن أكون رجلاً سميناً من جديد. واقع أنا تحت تأثير الجوع ليلاً ونهاراً. استيقظ صباحاً ومعدتي تتثاءب، لا أقدر أن أنتظر بدء جولتي اليومية، أتباطأ عند بوابة الثكنات مستنشقاً شذا دقيق الشوفان الرطب المخفف وأنتظر كشط قعر القدر المحروق، أتملق للصغار ليقذفوا لي ثمار التوت من فوق الأشجار، أتمدد على سياج حديقة كي أسرق خوخة أو اثنتين، عابراً من باب إلى باب، رجل مُني بسوء الحظ، ضحية التيمم، لكنه شفي الآن، جاهز بابتسامة ليأخذ ما يقدم له، شريحة من الخبز والمربى أو طبق من

الفاصـوليا والبصـل، والفواكـه باستمرار، مشمش وخوخ ورمـان، ثروة صيف سخي. آكل مثل فقير معدم. ألتهم بشهية كـبيرة، أمسح الإناء حتى يبدو نظيفاً جداً ويسرّ قلب من يراه. فـلا عجب أنني أزحف يوماً بعد يوم إلى قوائم الفاضلين لأهل بلدتي.

وكـم أقـدر على المداهنة، وكم أقدر على التوسل! حصلت أكثر من مرة على وجبة خفيفة أعدت لي بشكل خاص: شرائح مـن لحم الضأن مقلية ومتبلة بالفلفل والثوم المحمر، أو شرائح من فخذ الخنزير والطماطم على رغيف من خبز، يتخللها جبن مـن حـليب الماعز. أحمل إن استطعت ماء أو حطب الوقود بالمفايل، أفعل ذلك بكل سرور، كعملة رمزية، على الرغم من أنـني لـم أعـد قوياً كما كنت في السابق. وإن كنت اليوم قد اسـتنفدت كافـة مصـادري في المدينة – لأنه يتحتم على أن أحـرص عـلى ألا أكون ثقيلاً على المحسنين إليّ – فبإمكاني على الدوام التمشي نحو مخيم الصيادين لأساعدهم في تنظيف السـمك. لقد تعلمت عدداً قليلاً من مفردات لغتهم، أدركت دون أن يسـاورني أي شك، أنهم يدركون ماذا يعني الأمر أن يكون المرء متسولاً، وهم يقاسمونني طعامهم.

أريـد أن أغدو سيناً من جديد، أسمن من أي وقت مضى، أريـد بطناً تقرقر باطمئنان عندما أطوي كفي فوقها. أريد أن

أحـــس أن خدى يغطس فى وسادة رقبتى ويتمايل ثدياى عندما أمشى. أريد حياة ذات قناعات بسيطة. أريد (أمل عقيم!) أنا لا أعرف الجوع مطلقاً.

* * *

ثلاثـــة أشهر مضت علي رحيلها، ولا أخبار حتى الآن عن القوة الخاصة بالجملة. بدلاً عنها، أقاويل فظيعة تنتشر فى كل مكـــان: من أن القوة قد وقعت فى شرك الصحراء وأبيدت عن آخـــرها، الأمر الذى كان خافياً علينا أنها قد استدعيت من أجل الدفـــاع عن الوطن. تاركة قوى الحدود للبرابرة كى يلتقطوها مـــثل فاكهة متى ما شاءوا. وسائط النقل تنتقل أسبوعياً كل من توحى له حكمته أن يغادر البلدة، متوجهين شرقاً، كل عشرة أو اثنـــتى عشرة عائلة تسافر معاً، لزيارة الأقارب ، وهو تعبير لطيـــف للتعبير عن شىء بغيض، حتى تستقر الأمور مجدداً . يغادرون، فى مقدمة الركب قافلة التموين، يدفعون عربات يد، متوجهين شرقاً، يحملون رزماً فوق ظهورهم، أطفالهم الصغار جداً، محملون مثل حيوانات. بل إننى حتى رأيت عربة طويلة ذات أربـــع عجـــلات تجرها الخراف. لم يعد بالمقدور شراء حيوانات حمول.

أولـــئك الذيـــن يغـــادرون هم ذوو تفكير صائب، يتهامس الأزواج والزوجات الذين يبقون يقظين فى أفرشتهم، يرسمون

الخطط، يفكرون فى الشروع فى بدايات جديدة لحياتهم. إنهم يتركون بيوتهم المريحة خلفهم، يقفلونها حتى نعود ، آخذين المفاتيح معهم كتذكار. ما إن يحل اليوم التالى، حتى تدخل زمرة من الجنود عنوة إليها، يسرقون البيوت، يكسرون قطع الأثاث، يلوثون أرضيتها. يتعاظم الاستياء ضد أولئك الذين يرونهم وهم يقومون بالاستعداد للسفر. توجه إليهم الإهانات علناً، يتعرضون للاعتداء أو السرقة، مع حصانة لفاعلين. يحدث الآن عائلات تختفى ببساطة فى عتمة الليل، يرشون الحراس من أجل فتح البوابات لهم، متخذين طريق الشرقى منتظرين فى محطة التوقف الأولى أو الثانية، حتى يتجمع عدد كاف من العوائل كى تسافر فى أمان.

الجند يضطهدون البلدة. لقد عقدوا اجتماعاً فى الساحة أضىء بكشافات نور كهربائية لشجب الجبناء ولخونة ومن أجل التأكيد على الولاء للإمبراطورية. باقون، أصبح شعاراً للإخلاص: تكسى الجدران فى كل مكان بهذه الكلمات. أقف فى الظلام عند نهاية حشد كبير فى تلك الليلة (لم يمتلك أحدا شجاعة كافية للبقاء فى المنزل) أستمع إلى تلك الكلمات تنشد بضجر، وبصورة آلية من قبل آلاف الحناجر.

سرت فى ظهرى رعشة. بعد الاجتماع قاد الجنود مسيرة طافت الشوارع. أبواب رفست، نوافذ حطمت، نار أوقدت فى

أحـــد المنازل. احتفال صاخب مخمور فى الساحة استمر حتى ســـاعة مـــتأخرة من الليل. قمت بالبحث عن مانديل ولكننى لم أره. ربمـــا أن الســـبب كان أنه قد فقد السيطرة على الحامية، وكان الجنود، إن استدعت الضرورة، على استعداد لتقبل أوامر من شرطى.

أقـــام هـــؤلاء الجـــند فى بادئ الأمر فى البلدة، غرباء عن عاداتـــنا، مجـــندين من مختلف أنحاء الإمبراطورية، استقبلوا بـــبرود، نحـــن لا نـــريدهم هـــنا، قالت الناس كلما أسرعوا لمحاربـــة الـــبرابرة كـــلما كـــان ذلك أفضل. رفض أصحاب المـــتاجر إقراضهم بالدين، أغلقت الأمهات على بناتهن. ولكن بعـــد أن ظهـــر البرابرة عند عتبات بيوتنا، تغير الأمر. والآن وبعـــد ان بدوا الشيء الوحيد الذى يقف بيننا وبين الدمار، غداً هـــؤلاء الجنود مركزاً للتملق بلهفة. لجنة من المدنيين تفرض ضريبة أسبوعية من أجل إقامة وليمة لهم، يشوون خروفاً كاملاً عـــلى الســـفود، يـــبددون عدداً من غالونات الرّم. فتيات البلدة أمامهم لاصطيادهن. يرحّب بهم فى كل ما يريدونه، ما دام ذلك ســـيجعلهم يـــبقون ويحرسون حياتنا. وكلما ازداد التملق إليهم ازدادوا طغيانـــاً. نعرف نحن أنه لا يمكننا الاعتماد عليهم. ما الـــذى ســـيبقيهم مـــع خلو مخزن الحبوب واختفاء قوة الجيش الأساسية مثل دخان إن توقفت الولائم مرة واحدة؟ كل ما نقدر ان نتمنى هو قسوة السفر فى الشتاء سوف تعوق تخليهم عنّا.

الـــتحذيرات الأولية للشتاء فى كل مكان. يرتفع نسيم قارس من لشمال فى الساعات المبكرة من الصباح: المصاريع نصر، لنائمون يتجمعون بعضهم إلى بعض، الحراس يلفون معاطفهم الفضفاضـــة بإحكـــام حولهـــم وقد أداروا ظهورهم لمواضعهم الأصـــلية. أصـــحو أنا فى بعض الليالى، مرتجفاً فوق فراشى المكـــون من عدد من أكياس ولا أتمكن من معاودة النوم. تبدو الشـــمس عـــند إشـــراقها أبعد مسافة من اليوم الفائت، تصبح الأرض بـــاردة حـــتى قبل المغيب. أفكر فى قوافل المسافرين المنـــتظمين فى صـــف واحـــد، متوجهين نحو وطن أم لم يره معظمهـــم، يدفعـــون عـــربات ليد، يحثون خيولهم، يحملون أطفالهم، يتدبرون بحرص مؤونتهم، يتنازلون يوماً بعد يوم عند جوانب الطرق عن أجهزتهم، أدوات مطبخ، لوحات. ساعات، لعب، أى شىء يعتقدون أنه سوف ينقذ ممتلكاتهم من الدمار قبل أن يدركـــوا أن قصـــارى مـــا سيتمنون هو الهرب بأرواحهم. الجـــوفى خلال أسبوع أو أسبوعين سيكون غير جداً بالنسبة لـــلجميع ولكـــنه الأقســـى لمن يشرع فى رحلة. ستهب الريح الشمالية طوال اليوم، تجىء مهلكة الحياة على سيقان النباتات، حاملة بحراً من غبار عبر النجد الفسيح، تجىء بهبات من برد وثـــلج. لا أقـــدر عـــلى تصور نفسى، بملابسى البالية ونعلىّ القديميـــن، فى يـــدى عصا، رزمة على ظهرى، باقياً على قيد الحياة فى تلك لمسيرة الطويلة. لن يتوق قلبى إلى ... الأمر.

أى حيـــاة يمكـــن أن أصبو إليها بعيداً عن هذه الواحات؟ حياة كـــاتب حسابات معدم فى العاصمة، عائد كل مساء بعد الغسق إلى غرفة مستأجرة فى شارع خلفى، وأسنانى تتساقط تدريجياً، وصاحبة المنزل تتشمم عند الباب. إن كان على أن أنضم إلى الهجرة الجماعية سيكون ذلك مثل واحد من أولئك الناس الذين ينسـلون فى يـوم مـا خارج خط السير، يستقرون فى حمى صـغرة، وينتظرون مجىء البرد الأخير كى يتسلل ببطء نحو أرجلهم.

* * *

أتجول فى الشارع الفسيح نازلاً منحدراً إلى شاطئ البحيرة. الأفـق الممـتد أمامى قد تلون تواً بالرمادى. أغوص فى الماء الرمادى للبحيرة. الشمس من خلفى تشرع فى المغيب بخطوط ذهبية وقرمزية. تصلنى من بين الأخاديد أولى أغنيات صرار الليل. هذا عالم أعرفه وأحبه ولا أريد أن أفارقه. لقد سرت فى هذا الطريق ليلاً منذ شبابى ولم يلحق بى أى أذى. كيف يمكننى أن أصـدق أن الـليل مـلئ بأشباح مرفرفة للبرابرة: لو كان للغرباء وجود فى هذا المكان لكنت أحسست به تماماً. انسحب الـبرابرة بقطعـانهم نحو أعمق وديان الجبال، فى انتظار أن يحـس الجـنود بالـتعب ويرحلوا. عندما يحدث ذلك سيظهر الـبرابرة مـن جديـد... سيقومون برعى مواشيهم ويتركوننا

لحالنا، وسنزرع حقولنا ونتركهم لحالهم، وسيستعاد السلام، فى بضعة أعوام على الحدود.

أجتاز الحقول التى خربت، والتى سويت الآن وحرثت حديثاً، أعبر قنوات الرى وجدار الساحل. الأرض تحت أخمص قدمى تزداد نعومة، وسرعان ما أسير أنا فى المستنقعات المبتلة، أشق طريقى عبر أدغال القصب، أوسع الخطى، أغوص حتى كاحل القدمين فى الماء مع آخر الضياء البنفسجي لغسق. ضفادع تغطس فى الماء بقوة أمامى، أسمع تقريباً خشخشة خافتة لريش طائر المستنقعات وهو يقرفص مستعداً للطيران.

أخوض أعمق، مفرقاً العيدان بيدى، حاساً ببرودة الوحل بين أصابع قدمى، الماء الذى يحتفظ بدفء الشمس مدة أطول من الهواء، يقاوم ثم يستسلم، قبل كل خطوة. فى الساعات الأولى للصباح، يدفع الصيادون زوارقهم المسطحة القعر بأعمدة عبر السطح الهادئ ثم يرمون شباكهم. يالها من حياة مطمئنة لكسب العيش. ربما يتحتم على ترك مهنة التسول لأنضم إليهم فى مخيمهم خارج السور، أبنىَّ لنفسى كوخاً من الطين والقصب، أتزوج إحدى بناتهم الجميلات، أولم عندما يكون الصيد وفيراً، أضيق حزمى عندما لا يكون.

فى عمق يصل إلى ربلة الساق، أخوض فى الماء المهدئ،

أطلق العنان لنفسي في هذه الرؤيا الكئيبة. إنني لست غير واع ما تدل عليه أحلام اليقظة هذه، أحلام عن التحول إلى إنسان ضار غير مفكر، اتخاذ السبيل البارد عائداً إلى العاصمة، التماس طريقي خارجاً إلى خرائب الصحراء، العودة إلى الحجز في زنزانتي، البحث عن البرابرة وتقديم نفسي لهم ليفعلوا بها ما يشاؤون. إنها بلا استثناء أحلام نهايات المطاف: أحلام ليس عن كيف تعيش ولكن كيف تموت. وأنا أعلم أن كل واحد في تلك البلدة المسورة الغارقة الآن في الظلام (أسمع الندائين اللذين يعلنهما البوق مشيراً إلى موعد إغلاق البوابات) مشغول البال بالأمور نفسها. كل واحد ما عدا الأطفال! الأطفال لا تساورهم الشكوك مطلقاً في أن الأشجار الكبيرة العتيقة التي في ظلالها يلعبون ستبقى واقفة إلى الأبد، وأنهم سيكبرون يوماً ويصبحون أقوياء مثل آبائهم، مثمرين كأمهاتهم، وسيعيشون ويغتنون ويربون أطفالهم، ويتقدمون في السن في البقعة عينها التي ولدوا فيها. ما الذي جعل الأمر غير ممكن بالنسبة لنا أن نعيش زمننا مثال أسمال في الماء، مثل طيور في الهواء، مثل أطفال؟ إنه خطأ الإمبراطورية! إمبراطورية قد خلقت مجريات التاريخ. إمبراطورية حددت وجودها ليس في زمن ناعم يلتف مع دورة المواسم ولكن في زمن مرتج من صعود وانهيار، من بداية ونهاية، من كوارث. إمبراطورية تحكم على نفسها أن تعيش في التاريخ وتتآمر ضد التاريخ. فكرة واحدة فقط تشغل

العقـل الخـفى للإمبراطورية: كيف لا تنتهى، كيف*لا تموت، كيـف تطيـل عصـرها. إنها فى النهار تلاحق أعداءها، إنها مراوغة وقاسية، ترسل كلاب صيدها إلى كل مكان. وهى فى الليل تغذى نفسها على تخيلات لكوارث: نهب المدن، اغتصاب السكان، أهرامات من عظام، فدادين من خراب. رؤيا مجنونة خبيـثة أيضاً:غائص أنا فى رواسب الطين، لست أقل تلوثاً بها فى العميد جول فى تعقبه أعداء الإمبراطورية عبر صحراء لا حـدود لها، بسيف مستل من غمده لتقطيع بربرى بعد بربرى وفى الـنهاية يجد واحداً ويذبحه والذى لابد أن يكون قدره (أو إن لـم يكن فقدر ابنه إذن أو قدر حفيده الذى لم يولد بعد) أن يصـعد الـبوابة البرونزية للقصر الصيفى ويطيح بالكرة التى يعلوها نمر هائج والتى ترمز للسيادة الأبدية، بينما يهلل رفاقه ويطلقون بنادقهم فى الهواء.

لا قمـر فى السـماء. أتحسس طريقى فى الظلمة عائداً إلى الأرض اليابسـة ثـم إلى فراشى من الحشائش، ملتفاً بمعطفى العـريض، وأسـتغرق فى الـنوم. الـنجمة الحمراء بالكاد قد تحركت فى السماء.

فى الوقـت الـذى أجتاز الطريق نحو مخيم الصيادين، يبدأ كلب فى النباح: فى لحظة ينضم إليه آخر وينفجر الليل ضجة، صـيحات تحذير، صراخ أصيح مرعوباً بأعلى صوتى، ما من

شيء ولكن لا أحد يسمعني. أقف حائراً في منتصف الطريق. أحد ما يجتازني راكضاً منحدراً نحو البحيرة، جسم آخر ينقذف علـى، امـرأة. أعرف ذلك في الحال، تلهث رعباً بين ذراعي قبل أن تتحرر وتختفي. هناك كلاب أيضاً، تزمجر من حولي: أدور بسـرعة حـول نفسي وأصرخ عالياً عندما يقضم أحدهم قـدمي، يمـزق جلدي، ثم يتراجع. العواء المجنون يحيط بي تمامـاً. كلاب البلدة تستجيب من خلف الأسوار، أقرفص على الأرض، وأدور في حـلقة، مـتحفزاً لـلهجوم التالي. النحيب المعـدني للأبـواق ينطلق عبر الهواء، تنبح الكلاب أعلى من قـبل. أجـر قدمي ببطء نحو الخيم، إلى أن يلوح أحد الأكواخ فجـأة في الأفـق. أزيح جانباً حصيرة معلقة على مدخل الباب وأعبر إلى الدفء المتعفن حيث كان أناس حتى قبل دقائق قليلة ينامون.

الضـجة تموت في الخارج، ولكن لا أحد يعود. الهواء فاسد ويـبعث على النعاس. أود أن أنام، مع ذلك يقلقني رجع صدى ذلـك الاصـطدام الـناعم بي في الطريق. مثل كدمة، يستبقي جسـدي أثر طبعة الجسد الذي ارتاح لدقائق على صدري. أنا خـائف ممـا أنـا مؤهل له: من العودة غداً في وضح النهار مـتوجعاً من الذكرى وأطرح أسئلة حتى أكتشف من كانت تلك التي هرعت نحوي في الظلام لكي أمارس الحب معها بالتالي، طفـلة أم امرأة، مغامرة حسية مضحكة أخرى أيضاً. ليس من

حـــدود لحماقـــة رجال فى مثل سنى. عذرنا الوحيد هو أننا لا نـــترك علامة ما تخصنا على الفتيات اللاتى ينتقلن بين أيدينا. رغباتـــنا معقـــدة، ممارساتنا الحب لها طقوس، نشوتنا الخرقاء سرعان ما تنسى بأجمعها، إنهن لا يبالين بحركاتنا المهتاجة فى حين يندفعن باستقامة كالسهام إلى أذرع الرجال الذين سيحملون لهـــم أولادهـــم، شـــباب أقوياء صريحون. ممارساتنا للحب لا ســـتتذكره الفـــتاة الأخـــرى ذات الوجه الخالى من التعبير: أنا بمعطفى الحريرى المنزلى ومظهرى البائس وعطورى وزيوتى ومـــلذاتى التعيسة، أم ذلك الرجل الذى تعوزه الحرارة والقناع عـــلى عيـــنيه والذى أعطى الأوامر وتأمل الأصوات العميقة لألمها؟ وجه من كان آخر ما رأته بوضوح على الأرض غير ذلـــك الوجـــه خلف القضبان المتوهجة؟ على الرغم من أننى أنكمـــش مذلـــة، حتى الآن، يتحتم على أن أسأل نفسى فيما إذا كنت، عندما تمددت ورأسى عند قدميها، مدللاً ومقبلاً الكاحلين المكسورين، فى أعماق قلبى آسفاً لأننى لم أتمكن من أن أطبع نفســـى عـــليها بـــالعمق نفسه. مهما ستكن درجة الحنان التى ســـتعامل بهـــا من قبل أهلها، فإنها لن تحب وتتزوج بالطريقة الاعـــتيادية: إنهـــا وإلى نهايـــة حياتها ستبقى موسومة كملكية خاصـــة لغـــريب، ولن يقترب منها أحد ما إلا بروحية حسية مشفقة كئيبة كشفتها هى ورفضتها فىّ. لا عجب أنها استغرقت فى الـــنوم غالـــباً، لا عجب أنها كانت أسعد حالاً وهى تقشر

الخضــروات مــن نومهــا على فراشي. منذ تلك اللحظة التى توقفــت فيهــا قدمـــاى أمامها عند بوابة الثكنات، لا بد أنها قد أحست بجو ضار من خداع يطوقها: حسد، شفقة، قسوة متنكرة جميعـــاً بوصفها رغبة. وفى علاقتى الحسية بها لم يكن الدفاع بــل الرفض المجهد للدفع! أتذكر ابتسامتها الهادئة. منذ اللحظة الأولى تماماً عرفتني مضللاً مخادعاً. أصغت إلىّ ثم إلى قلبها، وتصــرفت صـــواباً بحسب أهواء قلبها. لو أنها فقط كانت قد وجــدت الكلمات لتحدثنى، كان عليها أن تقول، الأمر ليس كما تفعلـــه، أن توقفنى وأنا فى أثناء الفعل، إن أردت أن تتعلم كيف تمارســـه، عليك أن تسأل صديقك ذا العينين السوداوين. وكان لزاماً عليها أن تضيف، كى لا تتركنى بلا أمل: ولكن إن أردت أن تحبـــنى عــليك أن تدير ظهرك له وتتعلم درسك فى مكان آخـــر. لو كانت قد أخبرتنى آنذاك، لو كنت قد فهمتها، لو كنت فى وضــــع يسمح لى أن أفهمها، لو كنت صدقتها، لو كنت فى وضــــع يسمح لى أن أصدقها، لربما أنقذت نفسى من عام من حركات مضطربة غير مجدية للتفكير.

قياساً لم أكن، كما أحببت أن أعتقد، المنغمس الساعى وراء المــلذات مقـــابل العميد القاسى المتصلب. كنت الأكذوبة التى تـــرويها الإمـــبراطورية لنفسها فى الأوقات الهيّنة. وكان هو الحقيقـــة التى ترويها الإمبراطورية لنفسها عندما تهب الرياح الجافـــة. وجهان للسلطة الاستبدادية، لا أكثر، لا أقل. ولكننى

سـايرت الظروف، تطلعت إلى ما حول هذه الحدود الغامضة، هـذا المكان المنعزل النائى ومواسم صيفها المغبرة وعرباتها المحمـلة بالشمس وفيلولاتها الطويلة ومواقعها العسكرية غير المـتغيرة، والطيور المائية التى تهاجر منها وتعود إليها عاماً بعد عام جيئة وذهاباً عبر صفحة البحيرة المبهرة غير المتوجة، وقـلت لنفسـى، كن صبوراً، سيرحل فى يوم من هذه الأيام، وسـيعود الهدوء، عندئذ ستصبح قيلولاتنا أطول، وسيوفنا أكثر صـدءاً، سيتسـلل الحـارس نازلاً من برجه ليمضى ليلته مع زوجـته، سيتفتت مدفع الهاون حتى تعشش السحالى بين قطع الآجر ويطير البوم خارجاً من الكنيسة، والخط الذى يشير إلى الحـدود عـلى الخـرائط سيزداد غموضاً وعتمة حتى نصبح منسـيين، منعمين . هكذا أغويت نفسى، متخذاً واحدة من عدة انعطافات خاطئة فى طريق يبدو صحيحاً ولكنها أوصلتنى إلى قلب متاهة.

أقترب أنا فى الحلم منها متجهاً نحو الساحة المغطاة بالثلج. اسير فى بادئ الأمر: ثم، وبعد اشتداد قوة الريح، أغدو مندفعاً نحـو الأمـام بكتـلة ثلجية دوامة، تمتد ذراعاى على الجهتين والريح تجتذب معطفى الفضفاض مثل شراع قارب. مستجمعاً السـرعة، تـنزلق قدمـاى على الأرض، أنقض على الكائن المـتوحد عند زاوية الساحة. أفكر، إنها لن تستدير فى الوقت المناسـب لـترانى أفتح فمى كى أصيح محذراً. يصل سمعى

شكوى خافتة، تتذبذب مع الريح، تدنو من السماء كقصاصة من ورق. إنـــنى فوقهـــا تقريباً، بل إننى بدأت أعد نفسى للصدمة، عـــندما تســـتدير وتـــرانى. للحظة واحدة تتكون لدى صورة لوجههـــا، وجه طفلة، يتوهج عافية، تبتسم لى دون خوف، قبل أن نتصـــادم. يرتطم رأسها ببطنى، ثم أختفى، محمولاً من قبل الـــريح. الضربة خفيفة كضربة فراشة. أنا مغمور بالارتياح. أفكـــر، "إذن، بعـــد كل ذلك ما كان على أن أقلق! أحاول أن أتطـــلع نحو الخلف، ولكن كان كل شىء قد اختفى عن البصر فى بياض الثلج.

فـــمى مغطى بقبلات ندية. أبصق، أهز رأسى، أفتح عينى. الكلب الذى كان يلعق وجهى يتراجع هازاً ذيله. يتسرب الضياء عـــبر مدخـــل بـــاب الكوخ. أزحف خارجاً إلى الفجر. السماء والمـــاء مشـــوبان بالـــلون الوردى نفسه. البحيرة التى اعتدت رؤيـــتها كـــل صباح، قوارب الصيد ذات المقدمة غير الحادة خالية. المخيم، حيث أقف أنا خال أيضاً.

ألـــفّ المعطف على نفسى بشدة أكثر، وأسير الطريق صاعداً متجاوزاً البوابة الرئيسية، التى ما تزال مغلقة، حتى برج المراقبة الشـــمال – الغـــرب، الـــذى يـــبدو خالياً، ثم العودة منحدراً على الطريق، قاطعاً الحقول، فوق السد متوجهاً نحو شاطئ البحيرة.

أرنـــب وحشى يفر من تحت قدمى ويسرع مبتعداً فى خط

متعرج. أبقى متتبعاً خطه حتى يستدير عائداً ويضيع أثره خلف الحنطة اليانعة فى الحقول البعيدة.

يقف ولد صغير فى وسط الدرب على مسافة خمسين ياردة مـنى، وهو يتبول. يرقب قوس بوله، يرقبنى أيضاً من طرف عينه، حانياً ظهره ليجعل الدفقة الأخيرة تتبجس أكثر. ثم يختفى فجأة، بذيله الذهبى الذى ما يزال معلقاً فى الهواء، منتزعاً من قبل يد سوداء امتدت من بين عيدان القصب.

أقــف فى البقعة التى كان واقفاً عليها. لا شىء يمكن رؤيته غيــر خفــق قمم القصب، التى تومض من خلالها نصف كرة تخطف البصر.

أقول رافعاً صوتى، بإمكانك الخروج، ليس هناك ما يخشى مــنه". ألاحــظ أن عصـــافير الدور، تتجنب هذا الموضع من القصـــب. ليــس لدى أى شك فى أن ثلاثين زوجاً من الآذان تسمعنى.

أعود إلى البلدة.

الــبوابات مفتوحة جنود مسلحون بأعتدة ثقيلة، يبحثون بين أكواخ جماعة الصيادين. يسير معهم الكلب الذى أيقظنى متنقلاً من كوخ إلى كوخ، مرتفع الذيل، متدل لسانه، أذناه منتصبتان.

واحد من الجنود يتعثر بحامل علقت عليه الأسماك المنظفة

المملحة لتجف. ينطرح بصرير على الأرض.

أصيح، "لا تفعل ذلك!"، مسرعاً الخطى، أميز بعض هؤلاء الرجال من الأيام الطويلة للتعذيب في ساحة الثكنات. "لا تفعلوا ذلك، لم يكن بسبب خطأ منهم!".

بلا مبالاة متعمدة، يتمشى الجندى نفسه نحو أكبر الأكواخ، يستجمع قواه مسنداً ثقله على دعامتين ناتئتين للسقف المصنوع من القش. وعلى الرغم من الجهد الذى يبذله فإنه يفشل. لقد راقبت بناء هذه الأكواخ الهشة. التى بنيت لتقاوم شدة ريح لا يقدر طير على التحقيق أثناءها.

فقاعدة السقف مثبتة عمودياً إلى أعلى بأسيرة جلدية تمر عبر أسنان اسفينية الشكل لا يمكن للمرء رفعها دون تقطيع الأسيرة الجلدية.

أحاجج الرجل. دعنى أخبرك بما حدث ليلة أمس. كنت ماراً فى الظلام وأخذت الكلاب تنبح. أنتاب الخوف الناس هنا، فقدوا عقولهم، أنت تعرف حالهم. من المحتمل أنهم اعتقدوا أن البرابرة قد وصلوا. لقد هرعوا منحدرين صوب البحيرة. أنهم يختبئون فى ادغال القصب – رأيتهم قبل مدة وجيزة. أنت غير قادر على معاقبتهم لمثل هذه الحادثة السخيفة .

يتجاهلنى، يساعده رفيق له فى السقف، متوازياً فوق

عارضـــتين، يـبدأ في توجيه ضربات بكعب حذائه ذى الرقبة الطويــلة، محدثاً ثقوباً فى السقف. اسمع خبطة فى الداخل فى حين ينهار مزيج الطلاء المتماسك من الحشائش والصلصال.

أصيح، أوقف الأمر! ينبض الدم فى صدغى. ماذا فعلوا لك كى يــؤذوك؟ أتمسك بكاحله، ولكنه جد بعيد عنى. بإمكانى أن أقطع رقبته فى حالتى هذه.

يــلقى أحدهم بنفسه أمامى: الصديق الذى ساعده فى العمل، يدمدم، لماذا لا تذهب بعيداً. لماذا لا تذهب وتموت فى مكان ما .

اســمع مــن تحت القش والصلصال عوارض السقف وهى تتقصــف تماماً. يمد الرجل الذى على السقف ذراعيه ثم يندفع إلى الداخل عبر فتحة وفى لحظة يكون هناك، عيناه مفتوحتان بدهشة، وفى اللحظة التالية، لا تبقى غير هبة من دخان معلقة فى الهواء.

يسحب البساط من مدخل الباب جانباً، قابضاً كلتا يديه معاً، مغطى من قمة رأسه حتى أخمص قدميه بغبار أصفر. خراء! يقول. خراء، خراء، خراء! ينفجر رفاقه بالضحك. يصيح، لا يدعو الأمر للهزء، لقد آذيت إبهامى الملعون! يعتصر يده بين ركبتيه. الملعون يؤلمنى! يوجه رفسة نحو الجدار، واسمع مرة أخــرى، الطلاء ينهار فى الداخل. يقول، متوحشون، ملعونون! كــان يتوجب علينا إيقافهم فى صف تجاه الجدار وإطلاق لنار عليهم منذ أمد بعيد – مع أصدقائهم!

متطــلعاً إلى ما ورائى – متطلعاً نحوى مباشرة، متجنباً بكل الطــرق رؤيــتى، يبتعد مختالاً. وفى الوقت الذى يجتاز الكوخ الأخير يشق البساط المعلق على مدخل الباب. حبال الخرز التى تزيــنه تنقطع وتتناثر الحبات فى كل مكان: ثمار العليق الحمر والسود، وحبوب البطيخ المجففة. أقف فى الطريق متمهلاً أنتظر خمــود رعشة الغضب التى تجتاحنى. أفكر فى فلاح شاب جئ بــه إلى مرة فى تلك الأيام التى كنت أقضى فيها أمور الحامية. كان قد أودع لدى الجيش لمدة ثلاثة أعوام من قبل قاض فى بلدة بعيدة بتهمة سرقة عدد من الدجاج. بعد شهر أمضاه هنا، حاول الهــرب إلى الصحراء. قبض عليه وجلب أمامى. طلب أن يرى والدتــه وشقيقاته ثانية، أفهمته قائلاً نحن لا نقدر تماماً على فعل ما نرغب فيه، نحن جميعاً خاضعون للقانون، الذى هو أكبر من أى واحد منا. القاضى الذى أرسلك إلى هنا، أنا شخصياً، أنت – كلــنا خاضعون للقانون. تطلع إلى بعينين باهتتين، منتظراً سماع الحكــم عليه، حارساه الغليظان خلفه، يداه موثقتان بالأغلال إلى الخــلف . أعــرف أنــك تحس بأن الأمر غير عادل، لامتلاكك مشاعر ولد صالح. أنت تعتقد بأنك تعرف ما هى العدالة وما هو غير ذلك. أنا أفهم. كلنا يعتقد بأنه يعرف .

عــندئذ، لــم يكن لدى أى شك شخصياً، إنه فى لحظة، كل واحــد منا، رجل، امرأة، طفل بل ربما حتى الحصان العجوز المســكين، الذى يدير عجلة الطاحونة، قد عرف معنى العدالة:

تأتى كافة المخلوقات إلى العالم حاملة معها ذكرى العدالة. قلت لسجينى المسكين، ولكننا نعيش فى عالم من القوانين. عالم أفضل من الدرجة الثانية. ليس بمقدورنا عمل أى شىء بشأنه. نحن مخلوقات خربة. كل ما نقدر عليه جميعاً هو دعم القوانين، دون أن نسمح بتلاشى ذكرى العدالة . بعد أن قمت بتوبيخه، أصدرت حكماً عليه. تقبل الحكم دون تذمر وقاده حارساه إلى الخارج. أتذكر إحساس الخزى غير الهين الذى شعرت به فى أيام مثل تلك. كنت اعتدت على مغادرة قاعة المحكمة والعودة إلى شقتى والجلوس طوال المساء فى الظلام على الكرسى الهزاز، دون أن أحس بشهية لطعام، حتى يحين موعد ذهابي إلى الفراش. قلت لنفسى'. عندما يعانى بعض الرجال ظلماً، فإنه قدر أولئك الذين يشهدون معاناتهم كى يعانوا الخزى منه – ولكن المواساة الخادعة لهذه الفكرة لا تتمكن من إراحتى. لقد داعبتنى أكثر من مرة فكرة الاستقالة من منصبى، الانصراف عن الحياة العامة، شراء أرض تزرع فيها الخضر. لكننى فكرت، فيما بعد، أن شخصاً آخر سيعين كى يتحمل عار المنصب، وأن ما من شىء سيتغير. وهكذا واصلت مهامى حتى باغتتني الأحداث في يوم من الأيام.

* * *

الفارسان على مبعدة أقل من ميل، وقد بدءا فى اجتياز الحقول الجرداء فى الوقت الذى عنا للبصر. أنا واحد من

الحشـــد الـــذى، سمع أصوات الانطلاقات المرحبة تنهمر من الأســـوار، ذلـــك أننا جميعاً نميز لواء الكتيبة الخضر والذهبى الـــذى يحملانه. أسير بخطوات واسعة بين الأطفال المهرولين المنفعلين فوق التربة حديثة التقليب.

الفارس على اليسار، الذى كان ممتطياً كتفاً إلى كتف بجوار زميله، يستدير مبتعداً باتجاه الطريق المحاذى للبحيرة.

يواصـــل الفـــارس الثانى السير متمهلاً نحونا، جالساً على الســـرج بانتصـــاب شديد، ماداً ذراعيه إلى جانبيه كأنما يريد احتضاننا جميعاً أو الطيران عالياً نحو السماء.

أبـــدأ فى الـــركض بأســـرع مـــا فى اســـتطاعتى، نعلاى يجرجرانى فى الأرض، قلبى يخفق.

مـــن مســـافة مئة ميل عنه، هناك خبط حوافر خلفه وثلاثة جـــنود مدرعون يعبرون عَدْوًا، يتسابقون باتجاه أجمة القصب التى قد اختفى فيها الآن الفارس الآخر.

أنضم إلى الحلقة من حول الرجل (أتعرف عليه، على الرغم مـــن التغيير) الذى حدث والراية ترفرف بشجاعة فوق رأسه، يحدق بنظرات خالية من التعبير نحو البلدة. وهو مثبت بحبال إلى قـــاعدة خشـــبية متينة تمسكه منتصباً على سرجه. عموده الفقرى منتصب بقائم ويداه مربوطتان إلى قطعتين متعارضتين.

الذبـــاب يحوم وجهه، فكاه مكبلان تماماً، لحمه منتفخ، تفوح منه رائحة تبعث على الغثيان، لقد مضت أيام عدة على وفاته.

يتعــلق طفل بيدى ويهمس، أهو بربرى يا عم؟ . أرد عليه هامســاً، لا . يســتدير نحو الولد الذى يجاوره ويهمس، هل ترى، لقد قلت لك .

نظــراً لعــدم تهيؤ شخص آخر للقيام بالأمر، فأنا الشخص الــذى يقع عليه نصيبه أن يلتقط الزمام المتجرجر وأتقدم هذه البشــائر المرسلة من البرابرة عائداً عبر البوبات الكبيرة، ماراً بالحراس الصامتين، إلى ساحة الثكنات، والقيام هناك بفك إسار حاملها وإعداده للدفن.

الجــنود الذيــن انطــلقوا خلف مرافقه الوحيد، سرعان ما يعــودون. يتوجهون خبباً عبر الساحة إلى مبنى المحكمة التى يديــر فيهــا مانديل شؤونه ويختفون داخلها. وعندما يظهرون ثانية، يرفضون التحدث مع أحد ما.

لقــد تــأكدت هواجس الكارثة كافة. يستولى وللمرة الأولى عــلى البــلدة فــزع حقيقى. المتاجر مزدحمة بمشترين يزايد بعضهم على بعض من أجل خزن الطعام، تحجز بعض الأسر نفســها فى بيوتها، يجمعون الطيور البرية وحتى الخنازير فى الداخــل معهــم. المدرســة أغــلقت. أقاويل عن أن جمعاً من الــبرابرة قــد خيــم على مبعد عدة أميال على ضفاف النهر

المتفحّة، وأن هجوماً على البلدة على وشك الوقوع، تتنقل بسرعة من زاوية شارع إلي شارع. الأمر الذى لا يصدق قد وقع: الجيش الذى سار قدماً بسرور فائق قبل ثلاثة أشهر لن يعود أبداً.

البوابات الكبيرة أغلقت وزلجت. ألتمس من رئيس المراقبة أن يسمح لمجموعة الصيادين بالدخول. أقول، إنهم فى فزع على أرواحهم'. يدير ظهره لى دون أن يجيب. الجنود فوق رؤوسنا على المتاريس، الرجال الأربعون الواقفون بيننا وبين الفناء، يحدقون نحو الخارج فى طول البحيرة والصحراء وعرضهما.

عند مجيء الليل، وأنا فى طريقى إلى سقيفة مخزن الحبوب حيث ما أزال أنام، أجد طريقى مسدوداً. صف من عربات ذوات العجلتين تجرها الخيول التابعة لإدارة المؤونة الحربية تعبر على طول الممر. الأولى محملة، كما أميز، بأكياس من حبوب المخزن، البقية فارغة. يتبعها صف من الخيول، مسرجة مغطاة بالبطانيات، من حضائر الحرس، أستطيع التخمين أن كل حصان إما أنه قد تمت سرقته وإما أنه قد صودر لأغراض عسكرية، فى الأسابيع الماضية. تطلع الناس من بيوتها، مستيقظين على الجلبة، ويقفون جنباً إلى جنب بهدوء يراقبون مناورة الانسحاب الجلية هذه والتى وضعت خطتها قبل زمن طويل.

أطلب مقابلة مانديل، ولكن الحارس عند مبنى المحكمة متبلد مثل رفاقه.

مانديل فى الحقيقة ليس فى مبنى لمحكمة. أعود إلى الساحة فى الوقــت المناسب كى أسمع نهاية بيان يقرأ علناً باسم قيادة الإمبراطورية . الانسحاب كما يقول، هو إجراء وقتى . سنترك فى الخــلف قوة لتولى الأمر مؤقتاً . وهو يود أن يشكر الجميع على الضيافة لتى لا يمكن أن ينساها والتى أظهرت له؟

بيــنما يتحدث هو، واقفاً في إحدى العربات الفارغة محاطاً بجــنود يحمــلون مشاعل، يعود رجاله بثمار غاراتهم. يجاهد اثــنان لتحميل موقد من الحديد الصلب سرقة من منزل خال. يعــود آخــر مبتسماً بانتصار وهو يحمل ديكاً ودجاجة، الديك رائــع بــلونيه الأســود والذهبى. يقبض عليهما من الأجنحة وأرجــلهما مشدودة، وأعينهما تتوهج شراسة. فى حين يمسك أحدهم ليحشرهما فى داخل الموقد. لعربة محملة عالياً بأكياس وبــراميل صــغيرة مــن مــتجر منهوب، بل وحتى بمنضدة وكرســيين. يقومون بفرش سجادة ثقيلة حمراء فوق الحمل، ثم يــربطونه بحــبل من تحت. لا يصدر أى اعتراض من الناس الواقفيــن المراقــبين هــذا العمل لمنسق للغدر، ولكننى أشعر بموجات من غضب لا إرادى تجتاح كل جسدى.

العــربة الأخيــرة حملت. البوابات فتحت مزاليجها، يمتطى

الجــنود خيولهــم. أســتطيع أن أسمع شخصاً فى مقدمة الرتل يجــادل مــانديل، وهو يقول، مجرد ساعة واحدة أو نحو ذلك، سيكونون جاهزين فى خلال ساعة . يجيب مانديل، لا جدال فى ذلــك، وتحمــل الريح بقية كلامه. يدفعنى جندى عن طريقه ويــرافق ثلاث نسوة محملات برزم ثقيلة إلى العربة الأخيرة. يصــعدون فوقها ويتخذون فيها أماكنهن، ممسكات ببراقع على وجوههــن. تحمل إحداهن فتاة صغيرة وتحطها فوق الأحمال. تطرقع الأسواط، يبدأ الرتل الحركة، تجهد الخيول نفسها، تصر عجلات العربات. يأتى فى مؤخرة الرتل رجلان يفودان قطيعاً من اثنى عشر خروفاً.

وبيــنما تمر الخراف، تزداد الدمدمة فى الحشد. يندفع شاب بعــنف خارجاً وهو يصيح ملوحاً: بتشت الخراف فى الظلمة، وبزمجــرة يضــم الحشــد صــفوفه. تفرقع فى الحال، أولى الرصاصـــات. مهرولاً بأسرع ما فى استطاعتى وسط عشرات مــن أنـــاس آخرين صارخين مهرولين. لا أحتفظ إلا بصورة واحــدة لهــذا الهجوم العقيم: رجل متماسك بالأيدى مع إحدى نســوة العــربة الأخيــرة، يمزق ملابسها، ترقب الطفلة الأمر بعينين مفتوحتين باتساع وإبهامها فى فمها. بعدئذ تصبح خالية ومظــلمة ثانية، تتدحرج العربة الأخيرة عبر البوابات، الحامية غادرت.

لمــا تبقى من الليل، تبقى البوابات مفتوحة، مجموعات من

عوائـل قليـلة، أغلبيتها على الأقدام مثقلة بأحمال ثقيلة، تهرع خلف الجنود.

وتتسل قبل الغسق، مجموعة الصيادين إلى الداخل، دون أن تواجـه مقاومة تذكر، وهى تحمل أطفالها المرضى وممتلكاتها التى تثير الشفقة وحزماً من أعمدتها وعيدان قصبها التى ستبدأ بها من جديد مهمة بناء بيوتها.

* * *

شقتى القديمة مفتوحة الباب. الهواء عفن فى داخلها. لم تنظف محـتوياتها مـن الغبار منذ زمن طويل. صناديق المعروضات – الأحجـار والبيوض والمصنوعات التى تعود لخرائب الصحراء – اخـتفت بأكمـلها. دفعـت قطـع الأثاث فى الغرفة الأمامية نحو الجـدران ورفعـت السجادة. غرفة الاستقبال الصغيرة، لم تمس، ولكن أغطية قطع الأثاث تحمل رائحة نتنة فاسدة.

فى غـرفة النوم، الشراشف قلبت جانباً بالحركة نفسها التى أسـتخدمها أنا، وكأننى، شخصياً كنت نائماً هنا. رائحة منفرة تفوح من البياضات غير المغسولة.

المبولة فى غرفة النوم، تحت السرير، ممتلئة حتى نصفها. يوجـد فى خـزانة الملابس قميص ذو ياقة مجعدة وحلقة بنية تطوقهـا من الداخل وبقع صفراء تحت الإبطين. ملابسى كلها اختفت.

أجـــرد الفـــراش من الأغطية وأستلقى على المرتبة الجرداء، متوقعاً أن يزحف على إحساس بالقلق، شبح رجل آخر ما يزال متخـــلفاً بيـــن روائحه العطرة وفوضاه. ولكن ذلك الإحساس لا يأتى: الغرفة مألوفة كما كانت دائماً. وذراعاى على وجهى، أجد نفســـى منساقاً إلى النوم. قد يكون الأمر حقيقة أن العالم كما هو حالـــه الآن ليـــس وهماً، ليس حلماً رديئاً. قد يحدث أننا نستيقظ عـــلى تغييـــره وأننا غير قادرين على نسيانه ولا على الاستغناء عـــنه. ولكنى أجد الأمر صعباً كما فى السابق من أن أؤمن بأن الـــنهاية وشـــيكة. أعلم أنهم إن هجموا الآن فسأموت فى فراشى أحمـــق وجاهلاً مثل طفل رضيع وسيكون الأمر أكثر ملاءمة أن قـــبض على وأنا فى بيت المؤونة والملعقة فى يدى وفمى ملآن بـــتين معلب مسروق من آخر قنينة على الرف: عندئذ قد يقطع رأســـى ويرمى فوق الرؤوس المكومة خارجاً فى الساحة، وهى مـــا تزال تحمل نظرة الألم ودهشة الشعور بالإثم، لغارة التاريخ هـــذه عـــلى الـــزمن الساكن للواحات: لكل واحد نهايته الخاصة الأكـــثر تطابقـــاً معه. سيلقى القبض على بعض الأشخاص فى مخـــابئ تحـــت ســـراديبهم وهم ممسكون بحاجياتهم الثمينة إلى صدورهم، وهو يغلقون أعينهم بشدة. بعضهم سوف يموت على الطـــريق مغمـــوراً بأولى ثلوج الشتاء. قلة منهم قد تموت وهى تناضـــل مـــع المذراة. بعد ذلك كله، سيمسح البرابرة مؤخراتهم بســـجلات البلدة. وحتى النهاية لن نكون قد تعلمنا شيئاً. يبدو أن

هـناك فى دواخلنا جميعاً فى أعمق أعماقنا شيئاً ثابتاً عنيداً غير قـابل على التعلم. لا يؤمن أحد منا حقاً، على الرغم من الهياج العـاطفى فى الشوارع، بأن العالم ذا الحقائق الساكنة التى ولدنا فيه، هو على وشك الانطفاء. لا أحد يتقبل أن جيشاً استبدادياً قد سحق من قبل رجال يحملون أقواساً وسهاماً وبنادق صدئة قديمة ويعيشـون فى خيـام ولا يغتسـلون أبداً ولا يستطيعون القراءة والكـتابة. ومن أنا كى أسخر من أوهام تمنح الحياة؟ هل هناك وسيلة أفضل لتمضية هذه الأيام الأخيرة من أن أحلم بمنفذ يحمل سيفاً سيقوم بتشتيت جيش الأعداء ويغفر لنا الخطايا لتى اقترفت مـن قـبل آخـرين بأسـمائنا ويمنحنا فرصة ثانية لبناء جنتنا الأرضية؟ أتمدد على المرتبة الجرداء وأركز فى إعادة صورتى كسـباح إلى لحيـاة، سـابحاً بضربات هادئة غير متعبة عبر واسـطة الـزمن، واسـطة أكـثر قصوراً من الماء، من دون تموجات، شاملة، لا لون لها، لا رائحة، جافة مثل ورقة.

* * *

٦

ثمة فى صباحات بعض الأيام، آثار حوافر حديثة العهد فى الحقــول، بيــن الأجمات الممتدة فى غيرٍ انتظام تعلم آخر حد للأرض المحروثة، يشاهد المراقب شكلاً يقسم على أنه لم يكن هناك فى اليوم الذى مضى والذى اختفى فى يوم تال. لا تجرؤ مجموعة الصيادين على الخروج قبل شروق الشمس وقد تدنى محصولهم إلى حد كبير لأنهم لا يحضرون إلا بشق الأنفس.

فى غضون يومين من عمل مشترك بذلنا فيه جهدنا والبنادق عــلى جوانبـــنا، قمنا بحصاد الحقول القصية، كل ما تبقى بعد الفيضان. المحصول أقل من أربعة أكواب فى اليوم لكل عائلة، ولكنه أفضل من لا شىء.

عـــلى الـــرغم مـــن أن الحصان الأعمى يستمر فى إدارة الـــدولاب الـــذى يمـــلأ الصفيحة بقرب شاطئ البحيرة ليروى بســـاتين البلدة، فإننا نعلم أنه من الممكن قطع أنبوب الرى فى لحظة من الزمن وبدأنا فعلاً فى حفر آبار جديدة داخل البيوت. لقـــد قمت بتحريض زملائى من المواطنين على زرع الحدائق الخلفية التى تطل على مطابخهم، بجذور ستقاوم صقيع الشتاء. أقـــول لهـــم، علينا فوق كل شئ إيجاد وسائل للبقاء أحياء فى

الشتاء.سيرسلون إلينا نجدة فى الربيع، لا شك فى ذلك. بإمكاننا بعد أول ذوبان للثلوج أن نزرع دخناً ينضج فى ستين يوماً .

أغلقت المدرسة وصار الأطفال يعملون فى الأجزاء الجنوبية الناتئة المالحة من البحيرة فى صيد سرطانات حمراء صغيرة توجد فى المياه الضحلة. نقوم نحن بتعريضها للدخان ورزمها فى شرائح زنة الواحدة منها رطلاً واحداً. لها طعم دهنى ردىء. تتناوله اعتيادياً مجموعة الصيادين فقط، ولكن قبل انصراف الشتاء سنكون سعداء جداً أن امتلكنا جرذاناً وحشرات لنلتهمها.

على طول السور الشمالى قمنا بإسناد صف من الخوذ مع رماح منتصبة إلى جوارها يمر طفل كل نصف ساعة بجانب الصف مزحزحاً بعض الشىء كل خوذة. وهكذا نأمل أن نخدع أعين البرابرة الحادة. تتألف الحامية التى أورثها إيانا مانديل من ثلاثة رجال. إنهم يتناوبون الوقوف عند الباب المغلق للمحكمة، ولأن بقية سكان البلدة يتجاهلونهم، فإنهم قد انعزلوا عن الآخرين.

توليت أنا الإرشاد فى كل التدابير التى اتخذت من أجل الحفاظ علينا، دون أن يعترضنى أحد. لحيتى شذبت وارتديت ملابس نظيفة، واستعدت فى الحقيقة الإدارة القانونية التى كنت انقطعت عنها قبل عام مضى مع مجىء الحرس المدنى.

يتحـــتم علينا قطع حطب للوقود وخزنه، ولكننا لا نجد من يغامر بالذهاب إلى الغابة المزروعة بالشوندر فى موازاة النهر، حيــث يقســم الصيادون على أنهم شاهدوا آثارا طرية لمخيم للبرابرة.

* * *

أصحو على طرق باب شقتى. إنه رجل يحمل قنديلاً، متقد الوجه بفعل الريح، هزيل منقطع الأنفاس، يرتدى معطف جندى يبدو واسعاً عليه. يحدق فى وجهى فى حيرة.

أقول، من أنت؟

أين الضابط المفوض للترخيص؟

يجيب لاهثاً محاولاً إلقاء نظرة من فوق كتفي.

الســاعة الآن الــثانية بعــد منتصف الليل، فتحت البوابات للســماح بدخول عربة العميد جول، التى تقف ومقدمتها تستقر عــلى الأرض وســط الساحة. عدد من الرجال يجتمعون فى جانــبها اتقــاء لــلريح القوية رجال المراقبة، من فوق السور يتطلعون نحو الأسفل.

يقول زائرى، نحن فى حاجة إلى طعام، خيول قوية، علف . يــتقدم إلى الأمــام، يفتح باب العربة، يتحدث: سيدى، الضابط

المفـوض غيـر موجود. لقد غادر . عند النافذة، وفى ضياء القمـر، ألمـح جول نفسه. يرانى هو أيضاً: يغلق الباب بقوة. أسـمع صوت المزلاج فى الداخل. أتمكن، متطلعاً من الجانب الآخـر لـلزجاج، مـن أن أستكشف تفاصيله وهو يجلس فى الزاوية المظلمة الأبعد، محوّلاً بقوة، أطرق على الزجاج، لكنه لا يولينى اهتماماً. يقوم تابعه، بعدئذ بإبعادى عنه.

حجارة تستقر على سقف العربة، منطلقة من الظلام.

حـارس آخر لجول يأتى مهرولاً. يلهث ويقول، الإسطبلات فارغـة، لقد أخذوا كل ما فيها . الرجل الذى فك أعنة عدد من الخيـول الـتى تقطر عرقاً، يبدأ فى اللعن، حجارة ثانية لكنها تخطئ العربة وتكاد تضربنى. لقد قذفت من فوق الأسوار.

أقـول، أصـغ إلى. إنـك تشعر بالبرد وبالتعب. دع الجياد تسترح، تعال إلى الداخل، تناول شيئاً ما، احك لنا قصتك. نحن نتـلقى أخـباراً منذ مغادرتك. إن أراد ذلك الرجل المجنون أن يجلس فى عربته طوال الليل، دعه يجلس .

بالكـاد يصغون إلى، رجال فى حالة جوع شديدة، متعبون، أدوا أكثر من واجبهم فى سحب رجل الشرطة هذا إلى السلامة مـن بين قبضة البرابرة. يتهامسون فيما بينهم، وقد بدأوا فعلاً بإعادة شد زوج من العدة البالية لخيولهم.

أتطلع عبر الزجاج إلى الشيء الضبابي الباهت عبر الظلمة الذي هو العميد جول. يرفرف معطفي الفضفاض، أرتجف برداً، وبسبب توتر غضبي المكبوت أيضاً. حافز يسرى فى داخلي أن أكسر الزجاج، أن أصل إلى الداخل وأسحب الرجل خارجاً عبر الفتحة المثلومة وأن أحس بجسده معلقاً وممزقاً على حافات الزجاج، أن أقذف به أرضاً وأرفس جسده حتى يصبح عجينة.

وكأنما أحس بهذا التدفق المهلك، يدير وجهه على مضض نحوى. ثم ينحرف جانباً فى جلسته كى يتمكن من النظر إلى من خلال الزجاج. وجهه مجرد من أى معنى، باهت ربما بتأثير ضياء القمر الأزرق، أو ربما بفعل تعب جسمانى. أحدق فى صدغيه المرتفعين الشاحبين. ذكريات عن ثديى أمه الناعمين، عن الحبل فى يده لأول طائرة ورقية جعلها تحلق فى حياته، وفضلاً عن تلك الأمور التى تتعلق بصميم طبيعته الوحشية التى أكرهه من أجلها، المستترة المحشورة فيه.

يتطلع إلى الخارج نحوى، تبحث عيناه عن وجهى. العدستان السوداوان قد اختفتا، أيضطر هو أيضاً إلى كتم حافز غضب مكتوم يدفعه إلى الوصول إليّ والقبض عليّ بكلتا يديه، ويعمينى بالشظايا؟

لدى درس له فكرت به كثيراً. أغمغم بالكلمات وأرقبه

وهـــو يقـــرأها من شفتى، أقول: الجريمة الكامنة فيٍ دواخلنا، يتوجب علينا إنزالها على أنفسنا . أومئ وأومئ دافعاً بالرسالة كى تصــل الهـــدف. أقول: ليس على آخرين :أعيد الكلمات، مشيراً إلى صدره. يرقب شفتى، تتحرك شفتاه الرفيعتان مقلدة، أو ربمـــا فى ســـخرية. حجارة أخرى، أثقل وزناً، أجرة ربما، تضـــرب العـــربة بطقطقة مدوية. يجفل هو، ترتج الخيول فى أعنتها.

يأتى أحدهم مهرولاً، يصيح، أذهب! يدفعنى جانباً، يضرب على باب العربة. يداه مملوءتان بأرغفة خبز. يصرخ، يجب أن نذهب! . يفتح العميد جول المزلاج ويسقط الأرغفة إلى الداخل. ينغلق البـاب بعـنف، يصيح، أسرع! . تبدأ العربة بالحركة، ونوابضها تصرّ.

أقـــبض على ذراع الرجل، أصرخ، أنتظرٍ! لن ادعك تذهب حـتى أعـــرف مـــا حدث! يصيح، ضارباً على قبضتى، ألا تســتطيع أن تـــرى؟ . يـــداى مـــا تزالان ضعيفتان: من أجل الإمساك به كان على أن أحيطه بهما. ألهث، أخبرنى، وبإمكانك الذهاب بعدئذ! .

تقترب العربة من البوابة. الرجلان الممتطيان قد انتهيا من اجـــتيازها، الـــرجال الآخـــرون يهرولون فى الخلف. أحجار تطقطـــق عـــلى العـــربة مندفعة من الظلام، تتهال الصرخات

واللعنات عليهم كالمطر.

يقول وهو يقاوم عبثاً'ماذا تريد أن تعرف؟ .

أين الآخرون؟ .

ذهـبوا، تشتتوا فى كل مكان. لا أعرف مكانهم. كان علينا أن نعـثر على طريقنا. كان من المستحيل أن نبقى معاً. وفى الوقـت الـذى يخـتفى رفاقه فى الليل، يصارع هو بقوة أشد. دعـنى أذهـب! إنه ليس أقوى من طفل. ستذهب فى خلال دقيقـة واحـدة. كيف يمكن أن يحدث أن البرابرة قد فعلوا هذا بكم؟ .

لقـد كـنا نـتجمد فى الجـبال! تعرضنا لجوع شديد فى الصـحراء! لمـاذا لم يخبرنا أحد بأن الأمر سيكون كذلك؟ لم نهزم – لقد قادونا إلى الصحراء ثم اختفوا بعد ذلك!

من قادكم؟

هم – البرابرة. لقد غرروا بنا مراراً وتكراراً. لم نقدر أبداً الإمسـاك بهم. التقطوا المجموعات المتناثرة فى غير انتظام، قطعوا أعنة خيولنا فى الليل، ولم يعد بمقدورنا الاستفادة منها!

هكذا استسلمتم وعدتم إلى البلدة؟

نعم!

هل تتوقع منى أن أصدق ذلك؟

يحدق فى بيأس، يصيح، وما الذى يضطرنى إلى الكذب؟ لا أريد أن أتخلف هنا. ذلك كل ما لدى! يحرر نفسه منى، يحمى رأسه بيديه، يهرع عبر البوابة ونحو الظلمة.

توقف الحفر فى البئر الثالثة. بعض الحفارين ذهبوا تواً إلى منازلهم، يقف آخرون حولها منتظرين الأوامر.

أقول، ما المشكلة؟

يشيرون إلى العظام المكومة على أرض طرية: عظام طفل.

أقول،'لا بد أن قبراً كان هنا، موضع غريب لقبر . نحن فى الأرض المفروزة الخالية خلف الثكنات، ما بين الثكنات والسور الجنوبى. العظام قديمة، إذ إنها امتصت لون الطمى الأحمر . ماذا تريد أن نفعل؟ بإمكاننا أن نبدأ الحفر ثانية فى الناحية الأقرب إلى السور .

يساعدونى فى تسلق الحفرة. واقفاً فى الحفرة، بعمق يصل صدرى، أنبش بأظافرى مبعداً التراب من حول عظم فك مطمور فى الجدار. أقول، ها هى الجمجمة، لا، ليست هى، الجمجمة قد أخرجت من قبل، يعرضونها على .

يقول ملاحظ العمال، انظر إلى ما تحت قدميك .

الظلمة الشديدة لا تساعد على الرؤية، ولكننى عندما أضرب بالمعول، أصطدم بشىء صلب، تقول أصابعى إنه عظم.

يقـــول، إنهـــا لـــم تدفـــن جيداً . يجلس القرفصاء عند حافة الحفرة . إنها مرمية كيفما اتفق. بعضها على بعض .

أقول، نعم، نحن لا نقدر على الحفر هنا، هل نقدر؟'

يقول، لا'.

علينا ملؤها والبدء من موضع أقرب إلى الجدار .

إنـــه صامت. يمد يداً لى ويساعدنى على الخروج. لا يهتم الواقفـــون بشىء أيضاً. يتوجب على إعادة العظام إلى مكانها، وأن أجـــرف الدفعة الأولى من التراب قبل أن يلتقط كل واحد مسحاته.

* * *

فى الحـــلم أقـــف ثانية فى الحفرة. الأرض رطبة، مظلمة، يتســـرب الماء منها، تخوض قدماى فى الوحل، يتطلب رفعهما جهداً متأنياً.

أتـــلمس طريقى تحت السطح، بحثاً عن العظام، تمسك يداى بطـــرف كيـــس مـــن القـــنب، أسود، متعفن، يتفتت تماماً بين أصابعى. أغوص عائداً إلى الوحل، مذراة ملتوية وملونة، طائر ميـــت، بـــبغاء: أمســـك بها من ذيلها، ريشها الملطخ بالطين يتهاوى، جـــناحاها المشبعان بالماء يسقطان، محجرا عينيه فارغـــان. عـــندما أطلقها تسقط على السطح من غير أن تثير

طرطشـــة ماء. ماء مسموم أفكر بالأمر، يجب أن أكون حذراً في عدم الشرب من هنا. يجب أن لا ألمس فمي بيدي اليمنى .

* * *

لم أنم مع امرأة منذ عودتي من الصحراء. والآن وفي أكثر الأوقات غير الملائمة، أحس بذكورتي تؤكد نفسها. أنام بصورة ســيئة وأصـــحو في الصباح بانتصاب عنيد يتزايد مثل غصن يخـــرج من بين تقاطع فخذي. لا علاقة للأمر بالرغبة. انتظر، وأنا نائم في فراشي المجعد زواله. أحاول أن أستحضر صورة الفـــتاة الـــتي نامت معي هنا ليلة بعد ليلة. أراها واقفة، حافية القدمين في قميصها الداخلي، قدم في الطست، ومنتظرة أن أقوم بغسلها، تضغط يدها على كتفي. أرغو الصابون على سمانتها القصـــيرة الممتلـــئة. تنزع القميص، وتسحبه من فوق رأسها. أرغو فخذيها، ثم أضع الصابون جانباً، أحتضن وركها، أدعك وجـــهي ببطـــنها. أستطيع شم الصابون. شاعراً بدفء الماء، بضغط يديها.

أخـــرج مـــن أعمـــاق تلك الرغبة إلى لمس نفسي. لا وثبة اســـتجابة هناك. إنه مثل لمس رسغي: جزء مني ولكنه صلب، متبلد، امتداد لا حياة خاصة به. أحاول أن أنجح في المحاولة: لا جدوى، فلا إحساس هناك، أقول لنفسي، إنني مجهد .

أجـــلس لمـــدة ســـاعة على كرسى ذى ذراعين منتظراً أن يتضاءل قضيب الدم هذا. فى الوقت المناسب يفعل. أرتدى بعد ذلك ملابسى وأغادر الغرفة.

يعـــاودنى الأمـــر فى الـــليل: يبرز سهم فىّ، مشيراً إلى لا مكـــان. أحـــاول ثانية أن أطعمه بالصور، لكننى لا أتبين أى استجابة للحياة.

يقـــول العشاب، جرب عفن الخبز ولب عشبة الحليب، وقد يكـــون له مفعـــول. إن لـــم يؤثـــر، عد إلىّ، هاك بعض جذر الحليب، اطحنه وامزجه حتى يصبح معجوناً ثم أضف إليه عفن الخـــبز وبعض الماء الدافئ. تناول معلقتين مملوءتين بعد كل وجـــبة. إنه ذو مذاق غير محبب، مر جداً، ولكن كن واثقاً من أنه لن يسبب لك الأذى مطلقاً .

أناولـــه أجره فضة. لا أحد غير الأطفال يقبلون تسلم نقود نحاسية اليوم.

يقول، ولكن قل لى، لماذا رجل ذو صحية جيدة مثلك، يريد أن يقتل رغباته؟

الأمر لا علاقة له بالرغبة، أبى، إنه تهيج فقط، تصلب مثل الروماتزم . يبتسم، أبتسم له بدورى.

أقول، لابد أن هذا الدكان هو الوحيد الذى لم ينهب . إنه ليس

بدكان، مجرد تجويف فى جدار، ولجهة تحت ظلّه، مع رفوف لمرطبات يعلوها الغبار، وجذور وحزم من أوراق يابسة تتدلى مـن كلابـات على الجدار، الأدوية التى عالج بها البلدة طيلة خمسين عاماً.

نعـم، أنهم يزعجوننى. اقترحوا أن أترك وشأنى. البرابرة سـوف يقلون خصيتيك ويأكلونهما - ذلك ما قالوه، تلك كانت كلماتهم. قلت، لقد ولدت هنا وسأموت هنا، لست بمغادر. وقد رحلوا، فالأمر أفضل من دونهم. هذا ما أقول.

نعم.

جرب جذر الحليب، عد إن لم ينفع.

أشرب الدواء المر المستحضر وآكل الكميات التى أقدر على تـناولها من الخس ما دام الناس يقولون إن الخس يقضي على فحولـة المـرء. ولكننى أفعل ذلك، نصف راغب، واعياً أننى أسيء تفسير العلامات.

أقـوم أيضـاً بزيارة مى، الفندق قد أغلق أبوابه، بسبب قلة الـزبائن، وهى الآن لمساعدة أمها فى الثكنات. أعثر عليها فى المطـبخ وهى تضع طفلها فى مهده بالقرب من الموقد، تقول، أحب الموقد الكبير الذى لديكم، إنه يحتفظ بدفئه لساعات. دفء لطيـف جـداً. تحضر الشاى، نجلس معاً عند المائدة، نرقب

توهج الفحم من خلال الحاجز المشبك. تقول، أود لو كان لدى شـــىء لذيـــذ كى أقدمه لك، ولكن لجنود قاموا بتنظيف غرفة المخزن، لم يتبق شئ تقريباً.

أقول: أريد منك المجيء معى إلى الطابق العلوى

هل بإمكانك ترك الطفل هنا؟

نحـــن صديقان قديمان. اعتادت قبل أعوام، قبل أن تتزوج ثانية، أن تزورنى فى شقتى، فى أوقات العصر.

تقول، أفضل أن لا أتركه، فى حالة استيقاظه وحيداً . وهكذا أنـــتظر بينما تقوم هى بلف الطفل، ثم أتبعها صاعداً السلم؟ ما تـــزال امرأة شابة، بجسد ثقيل وفخذين منتشرين لا شكل لهما. أحـــاول أن أتذكـــر كيف كان الأمر معها، ولكننى لا أقدر. كل النساء أمتعننى فى تلك الأيام.

تضع الطفل على الوســـادة فى إحدى الزوايا، تدندن له حتى يستغرق فى النوم ثانية.

أقـــول: إنـــه لمجرد ليلة واحدة أو اثنتين، كل شئ آت إلى نهايـــة. عليـــنا أن نعيـــش كما نقدر . تسقط سروالها الداخلى، تدوس عليه مثل حصان، وتأتى إلي فى ثوبها الفضفاض. أطفئ المصباح، كلماتى قد تركتنى مكتئبا.

عندما أدخل بها، تتنهد. أدعك خدى بخدها. تعثر يدى على

صدرها، تطبق هى بيدها عليه، تداعبه، تدفعه جانباً. تقول، إنها متوجعة بعض الشيء، تهمس، من الطفل .

إنـــنى مـــا أزال أبحث عن شيء أريد أن أقوله عندما أحس قـــدوم الذروة، بعيدة جداً، خفيفة جداً، مثل ارتعاشة أرض في جزء آخر من العالم هذا هو طفلك الرابع، أليس كذلك؟ ننام معاً جنباً إلى جنب، تحت الأغطية.

نعم، الرابع، أحدهم مات .

'والأب؟ هل يقدم مساعدة؟

'لقد ترك لى بعض المال. كان مع الجيش .

أنا متأكد من أنه سيعود'.

أحس بوزنها الرابط الجأش فى جوارى. أقول، لقد أصبحت جـــد متعلقاً بابنك الأكبر، لقد اعتاد أن يجلب لى وجباتى عندما كنت سجيناً .

نستلقى مدة من الوقت فى صمت. يبدأ بعدها رأسى بالدوار. أبـــزغ ثانية من النوم فى الوقت المناسب كى أسمع ذيل نهاية خشخشة فى حنجرتى، شخير رجل مسن.

تجلس هى. تقول، لابد أن أذهب. لا أستطيع أن أنام فى مثل هـــذه الغرف الجرداء، أسمع طقطقة طوال الليل. أرقب شكلها

المعــتم يــتحرك بيــنما هى تــرتدى ملابسها وتلتقط الطفل. وتقــول، هل أستطيع أن أضـىء المصباح. أخشى السقوط على السلم. واصل نومك. سأجلب لك الإفطار فى الصباح، عصيدة دخن إن لا تمانع .

تقول، أحببتها كثيراً جداً، فعلنا كلنا ذلك. إنها لم تتذمر قط. لقــد نفذت باستمرار ما طلب منها، على الرغم من معرفتى أن قدمها كانت تسبب لها الأذى. كانت ودودة. كان هناك باستمرار شئ يثير الضحك فى حال وجودها بيننا .

مــرة ثانية، متبلد الأحاسيس كقطعة من خشب. تبذل جهداً مــعى: تــربت يدها الكبيرة على ظهرى، تمسك صرتى. تأتى الــذروة: مثل شرارة ضربت مكاناً فوق البحر ثم ضاعت فى الحال.

يبدأ الطفل فى البكاء. تريح نفسها منى وتنهض كبيرة الحجم وعاريــة، تســير أمــامى جيئة وذهاباً عبر رقعة ضوء القمر والطفل فوق كتفها، مربتة إياه، مدندنة، تهمس، سينام فى دقيقة واحدة أنا شخصياً أكون نصف نائم أحس بجسدها البارد يستقر فى الفراش بجوارى ثانية، تمرغ شفتيها فى ذراعى.

* * *

تقول، لا أريد أن أفكر بالبرابرة، الحياة أقصر من تمضيتها

في القلق حول المستقبل . ليس لى ما أقول.

تقــول، "أنا لا أجعلك سعيداً. أعرف أنك لا تتمتع معى. إنك دائماً فى مكان آخر .

أنتظر كلماتها التالية.

"لقد أخبرتنى هى الشىء نفسه. قالت إنك فى مكان آخر. لم تستطع أن تفهمك لم تعرف ماذا كنت تريد منها .

"لم اكن أعرف بأنك وهى كنتما على علاقة حميمة .

كــنت دائماً هنا، الطابق السفلى. تحدثنا بعضنا لبعض عما كان يدور فى ذهنينا. كانت أحيانا تتمنى أن تبكى وتبكى. أنت جعلتها تعيسة جداً. هل عرفت ذلك؟

إنها تفتح باباً تهب من خلاله رياح يأس مطلق.

أنـــت لا تفهميـــن، أقول ذلك بصوت مبحوح. تهز كتفيها. أواصـــل: هناك جانب كامل للقصة لا تعرفينه. لا أريد التحث عنه الآن .

يصــمت كلانـــا، نتأمل أفكارنا عن الفتاة التى تنام فى هذه الليلة فى مكان بعيد تحت النجوم.

أقــول، ربما عندما يأتى البرابرة علي خيولهم إلينا، ستأتى راكبة معهم . أتخيلها تسير بالحصان خبباً عبر المدخل المفتوح

على رأس مجموعة من الفرسان، منتصبة على السرج، عيناها تـــبرقان، هى الســـابقة، المرشدة، تدل رفاقها. إلى مواقع هذه البلدة التى عاشت فيها ذات مرة.

سيكون كل شيء، بعدئذ على أساس جديد .

نتمدد فى لعتمة ونفكر.

تقول، إننى خائفة فى التفكير فى ما سيجرى لنا. أحاول أن أرجـــو الأفضل وأن أعيش من يوم إلى يوم. ولكننى فجأة أجد نفســـى أحيانـــاً متخيلة ما هو ممكن أن يحدث، وأحس بالشلل فزعاً. لا أعرف ما الذى أفعله قط. لا أقدر على التفكير إلا فى الأطفال. ما الذى سيحدث للأطفال؟ تجلس فى الفراش ما الذى سيحدث للأطفال؟ تسأل بحدة.

أقـــول لهـــا، إنهم لن يؤذوا الأطفال. لن يؤذوا أحداً . أربت عـــلى شـــعرها، أهدئها، أعانقها بشدة، حتى يحين وقت إطعام الطفل ثانية.

* * *

إنها تنام بصورة أفضل فى الطابق الأسفل، كما تقول. تحس بأنها أكثر أماناً عندما تصحو وتجد وهج الفحم فى الموقد. تحب كذلك أن ينام الطفل معها فى الفراش. وسيكون من الأفضل أن لا تكشف والدتها أين تمضى لياليها.

أحــس أيضــاً أن الأمــر كان خطأً ولا أعود إلى زيارتها مجــدداً، أفــتقد وأنا نائم منفرداً، رائحة الزعترِ والبصل على أطراف أصابعها. لأمسية أو اثنتين أعانى حزناً هادئاً لدنا قبل أن أبدأ بالنسيان.

* * *

أقــف فى الفضــاء المكشوف منتظراً قدوم العاصفة. بدأت السـماء فى الشحوب حتى تغدو الآن بيضاء كالعظم مع تدرج مــن القرنفلى يتموج فى الشمال. يتلألأ قرميد الأسقف الأحمر. الهواء يزداد إشراقا. تضىء المدينة بلا ظلال، غامضة جميلة فى هذه اللحظات الأخيرة.

أصــعد الســور بين الدمى المسلحة، الناس واقفون يحدقون بعيداً نحو الأفق حيث سحابة كبيرة من تراب ورمل بدأت قبل قليل فى الفوران. لا يتكلم أحد منهم.

الشــمس تغــدو نحاسية. الزوارق كافة قد غادرت البحيرة، وتوقفــت الطيور عن الغناء. هناك فاصل من الصمت المطبق المطبق. ثم تنطلق الرياح.

فى حــمى منازلهم مع غلق النوافذ بالرتاج ووضع دعامات خلف الأبواب، يبدأ الآن غبار رمادى ناعم فى التساقط منخولاً عــبر السقف والتسقيفة ليستقر على سطح غير مغطى، مشكلاً

طبقة رقيقة على ماء الشرب، يحتك بأسناننا، نجلس مفكرين فى أنـــد د لنا من مخلوقات خارج لجدران، فى الخلاء، الذين فى أوقـــات كهـــذه لا يجـــدون ملاذاً لهم غير أن يديروا ظهورهم للرياح وأن يتحملوا.

* * *

فى الأمســيات، فى الساعة وُ الاثنتين التى أتمكن خلالهما مـــن الجــلوس بالقـــرب من المدفأة قبل أن تنتهى حصتى من الحطـــب ويـــتوجب عـــلى التســـلل إلى الفراش، أشغل نفسى بهوايـــاتى القديمة، مصلحاً قدر الإمكان صناديق الحجارة التى وجدتها محطمة ومرمية خارجاً فى حدائق مبنى المحكمة، ألهو مجـــدداً فى كشف معانى الكتابة المنقرضة على شرائح خشب الحور.

يـــبدو الأمر صحيحاً، مثل إشارة أولئك الناس الذين عاشوا فى خـــرائب الصـــحراء، يتحـــتم علينـــا أيضاً وضع سجلات للاستيطان كى نترك للأجيال القادمة، تدفن تحت أسوار بلدتنا، ومـــن أجل كتابة مثل هذا التاريخ، لن يكون هناك من هو أكثر صـــلاحية من قاضينا الأخير. ولكننى عندما أجلس على مائدة الكـــتابة، ملفوفاً ضد البرد فى فروة جلد الدب القديمة الخاصة بى، مع شمعة واحدة (لأن الشحم الحيوانى متعفن أيضاً) وعند مـــرفقى كومـــة من وثائق صفر، فما أجده عندما أبدأ بالكتابة

ليستْ حولياتَ تاريخُ القاعدة الأمامية للإمبراطورية ولا سجلاً يبين كيف أمضى سكان تلك القاعدة الأمامية عامهم الأخير فى تنظيم أنفسهم بينما هم قابعون فى انتظار البرابرة.

أكـتب، لا أحـد زار هذه الواحات مرة واحدة وعجز عن الوقـوع فى سـحر الحيـاة هـنا. عشنا فى زمن كل مواسم: الحصـاد، هجرة الطيور المائية. عشنا من دون أن يفصل بيننا وبيـن النجوم شىء ما. كان بإمكاننا تقديم أى تنازل، لو كنا قد عرفنا فقط ما هو، كى نواصل الحياة هنا. كانت البلدة جنة على الأرض .

أظـل مـدة طويلة من الزمن احدق فى البيّنة التى كتبتها. سيكون مخيباً للآمال أن تكون شرائح خشب الحور التى أمضت زمـناً طويـلاً منكـبًّا عـليها تحتوى رسالة مراوغة، مريبة، وتستحق التوبيخ، مثل هذه.

أفكـر ربمـا فى نهاية الشتاء، عندما يقرصنا الجوع بشكل حقيـقى، عندما نحس بالبرد والجوع الشديدين، أو عندما يكون البرابرة حقاً عند البوابة، ربما آنذاك، سأتخلى عن أسلوب كتابة موظف مدنى ذى طموحات أدبية وأبدأ فى سرد الحقيقة .

أفكـر: أردت أن أعيـش خـارج التاريخ. أردت أن أعيش خـارج الـتاريخ الـذى تفرضـه إمبراطورية على مواطنيها الخاسـرين. لـم أرغبه قط للبرابرة من أن يكون عليهم لزاماً

تحمل مسؤولية تاريخ إمبراطورية.

كيف يمكننى أن أصدق ذلك، إنه مصدر للعار؟

أفكــر: لقــد عشت عبر عام زاخر بالأحداث، ومع ذلك لم اســتنتج منه شيئاً اكثر مما يستنتجه طفل فى قماط. أنا من بين كل أبناء هذه البلدة، الشخص الأقل صلاحية لكتابة المذكرات. الحداد أفضل منى بصرخات غضبه وتوجعه.

أفكــر: ولكن عندما يتذوق البرابرة طعم الخبز، خبز طازج ومــربى الــتوت، خبز ومربى المشمش، فإن أساليبنا هى التى ستستهويهم. سيكتشفون أنهم غير قادرين على العيش من غير مهــارات رجالــنا الذى يعرفون كيف يجعلون نباتاتنا المنتجة للحــبوب ترتفع عالياً، حبوب المحيط الهادى، ومن غير براعة النساء من ذا لذى يعرف كيف يتعامل مع فواكهنا العذبة؟

أفكــر: عــندما يأتى يوم ما ويبحث الناس حول الخرائب، ســيكونون أكــثر استمتاعاً بآثار الصحراء من أى شىء آخر أتــركه خــلفى. وحقاً كذلك. (وهكذا أقضى أمسية فى تغطية الشــرائح واحــدة بعد أخرى بطبقة من زيت بذر الكتان وألفها بقماش زيتى. وعندما ستهدأ العاصفة، أعد نفسى، سوف أذهب إلى الخارج وأدفنها حيثما وجدتها).

أفكر: كان هناك شىء يتفرس فى وجهى وما زالت لا أراه.

* * *

الريح تلاشت، تبدأ الآن رقائق الثلج تعوم نازلة، أول سقوط ثـلج لهـذا العام، مغطياً قرميد الأسطح بالبياض. أقف طوال الصـباح عـند النافذة، أرقب سقوط الثلج. عندما أجتاز ساحة التكـنات أجد أن ارتفاع الثلج قد أصبح حتى الآن عدة انجات وأن خطوات قدمى تسحقه بخفة غريبة.

فى وسط الساحة أطفال يلعبون ويقيمون رجل ثلج. حذراً ألا أزعجهـم، لولا إحساسى بسعادة يتعذر تبريرها، أقترب منهم عبر الثلج.

إنهـم غير منزعجين، ولديهم ما يشغلهم عن أن يلقوا علىّ نظـرة عابـرة. لقـد أكملوا الجسد المدور الضخم، وهم الآن يدحرجون كرة الرأس.

يقـول الطفل الذى هو قائدهم، ليجلب لى أحدكم أشياء للفم والأنف والعينين .

يخطـر بـبالى أن رجل الثلج سيكون فى حاجة أيضاً إلى ذراعين، إلا أننى لا أريد أن أتدخل.

يضـعون الـرأس على الكتفين ويملأون الفراغات بحصى للعينين، للأذنين، الأنف والفم. ويتوجه واحد منهم بقبعته.

إنه ليس برجل سيئ.

هذا ليس هو المشهد الذى حلمت به. مثل أشياء كثيرة أخرى

فى هذه الأيام. أتركه وأنا أحس بالبلادة، مثل رجل ضل طريقه مــنذ بعيــد، إلا أنه يصر على المضى فى طريق طويل قد لا يؤدى إلى أى مكان.

* * *

كوتزى J.M. Coetzee

ولـد جى. أم. كوتـزى فى كيب تاون، جنوب أفريقيا، عام ١٩٤٠. تـلقى تعـليمه فى جـنوب أفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية.

يحاضـر حاليا فى جامعة كيب تاون بالإنكليزية (علم اللغة والأدب).

له عدد من الروايات المطبوعة إضافة إلى ترجمته لعدد من الدراسات اللغوية والمقالات النقدية.

من رواياته:

١- حياة وأحوال مايكل ك The Life & Times of Michail k

٢- بلاد الغسق (١٩٧٤) Dusklands

٣- فى قلب الوطن (١٩٧٧) In the Heart of the Country

نالت:

- الجائزة الأدبية الأولى فى جنوب أفريقيا
- جائزة CNA

٤- فى انتظار البرابرة Waiting For The Barbarians

نالت:

- الجائزة الأدبية الأولى فى جنوب أفريفيا
- جائزة جودفرى
- جائزة CNA

- نشرت فى بنغوين ١٩٨٠
- أعيد طبعها فى الأعوام ١٩٨٢، ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥
- جائزة البوكرز ١٩٨٣

أحدث رواياته:

٥- خزى Disgrace

ثالث:

- جائزة البوكرز ١٩٩٩
- جائزة كتاب رابطة الكومنولث للأدب المكتوب بالإنكليزية (نيسان ٢٠٠٠)

المشروع القومى للترجمة

العنوان	المؤلف	المترجم
١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد بر وننيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت . طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت . ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت . أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت . منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت . عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بليع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت . جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت . منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت . محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت عاطف أحمد/إبراهيم فتحي/محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت . مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف . فاين	ت . أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت . محمود السيد علي
٤٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت . ماهر جويجاتي
٤٩ – الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسي التدعيمي	بيتر ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت مرسي سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقي للمسرح	ج. مايكل والتون	ت محسن مصيلحي
٥٥ – ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت علي يوسف علي
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود علي مكي
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز إيتين	ت صبري محمد عبد الغني
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف . محمد الجوهري
٦٢ – لذة النص	رولان بارت	ت محمد خير البقاعي .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند رسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت رمسيس عوض .
٦٥ – في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند رسل	ت . رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت . المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت . عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت حسين محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – لسياسى لعجوز	ت . س . ليوت	ت : فؤ د مجلى
٧٣ – نقد ستجابة لقارئ	چين . ب تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح لدين و لماليك فى مصر	ل . سيميونا	ت . حسن بيومى
٧٥ – فن لتر جم و لسير لذ تية	أندريه مورو	ت : حمد درويش
٧٦ – چال لاكان وعواء لتحليل لنفسى	محموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد لكريم
٧٧ – تاريخ لنقد لأدبى لحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد لمنعم مجاهد
٧٨ – لعولة لنظرية لاجتماعية ولثقافة لكونية	رونالد روبرتسون	ت . حمد محمود ونور مين
٧٩ – شعرية لتاليف	بوريس وسبنسكى	ت : سعيد لغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة لدموع»	ألكسندر بوشكين	ت مكارم لغمرى
٨١ – لجماعات لمتخيلة	بندكت ندرسن	ت محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى ونامونو	ت . محمود السيد على
٨٣ – مختار ت	غوتفريد بن	ت : خالد لمعالى
٨٤ – موسوعة لأدب و لنقد	مجموعة من لكتاب	ت عبد لحميد شيحة
٨٥ – منصور لحلاج (مسرحية)	صلاح زكى قطاى	ت : عبد الر زق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت . حمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون و لقلم	جلال ل حمد	ت : ماجدة لعنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال ال حمد	ت : بر هيم لدسوقى شتا
٨٩ – لطريق لثالث	نتونى جيدنز	ت : حمد ز يد ومحمد محيى لدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبر هيم مبروك
٩١ – لمسرح ولتجريب بين لنظرية ولتطبيق	باربر لاسوستكا	ت : محمد هناء عبد لفتاح
٩٢ – ساليب ومضامين لمسرح لإسبانوأمريكى لمعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال لدين
٩٣ – محدثات لعولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت عبد الوهاب علوب
٩٤ – لحب الأول و لصحبة	صمويل بيكيت	ت فوزية لعشماوى
٩٥ – مختار ت من لمسرح لإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت دور لخر ط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت بشير لسباعى
٩٨ – لهم الإنسانى و لابتز ز لصهيونى	نماذج ومقالات	ت أشرف لصباغ
٩٩ – تاريخ لسينما لعالمية	ديفيد روبنسون	ت بر هيم قنديل
١٠٠ – مساءلة لعولمة	بول هيرست وجر هام تومسون	ت : بر هيم فتحى
١٠١ – لنص لروئى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت رشيد بنحدو
١٠٢ – لسياسة و لتسامح	عبد الكريم لخطيبى	ت : عز لدين لكتانى لإدريسى
١٠٣ – قبر بن عربى يليه ياء	عبد لوهاب لمؤدب	ت . محمد بنيس
١٠٤ – أوبر ماهوجنى	برتولت بريشت	ت عبد لغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى لنص لجامع	چير رچينيت	ت عبد لعزيز شبيل
١٠٦ – لأدب لأندلسى	د. ماريا خيسوس روبيير متى	ت شرف على دعدور
١٠٧ – صورة لفدائى فى لشعر لأمريكى لمعاصر	نخبة	ت محمد عبد الله لجعيدى

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرنسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقولا الكسندر وفنادوليفا	ت : أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	چون جرى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	ڤيتلينا تاروني	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدر	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

العنوان	المؤلف	المترجم
١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أتيال وألان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	إليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم المنيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبد الأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و. ب. ييتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٣ – جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت: فتحي العشري
١٨٤ – القاهرة .. حالة لا تنام	هانز إيندورفر	ت: دسوقي سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بزرج علوي	ت: علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت: بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	بول دي مان	ت: سعيد الغانمي
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت: محسن سيد فرجاني
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازي السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغي	ت: محمود سلامة علاوي
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت: محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت: محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت: أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	ت: جلال السعيد الحفناوي
١٩٨ – الاتصال الجماهيري	إدوين إمري وآخرون	ت: إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لانداوي	ت: جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمي سيبروك	ت: فخري لبيب
٢٠١ – الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصاري
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالي	ت: جلال السعيد الحفناوي
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدي
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي - سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت: علي يوسف علي
٢٠٧ – ليل إفريقي	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائي	سنائي الغزنوي	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدي عبد الغني
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد علي الناصري
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتوني جيدنز	ت: محمد محمود محي الدين
٢١٥ – سياحتنامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغي	ت: محمود سلامة علاوي
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧ – عولمة السياسة العالمية	جون بايليس وستيف سميث	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازار	ت: علي إبراهيم علي منوفي

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو يشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية في الكون	باري ماركر	ت : علي يوسف علي
٢٢١ – شعرية كفافي	جريجوري جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراي	ت : نسيم مجلي
٢٢٣ – العلم في مجتمع حر	بول فيرابند	ت : السيد محمد نفادي
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورنس	ت : طاهر محمد علي البربري
٢٢٧ – المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى ماريديا ديف بوركي	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمري
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسوا جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١ – الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	آرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس التبريزي	جلال الدين مولوي رومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادي	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربي مدبولي أحمد
٢٣٩ – العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلا رامراز – رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامي حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
٢٤١ – في انتظار البرابرة	ك. م كويتزي	ت : ابتسام عبد الله سعيد

Waiting for the Barbarians

By J.M.Coetzee